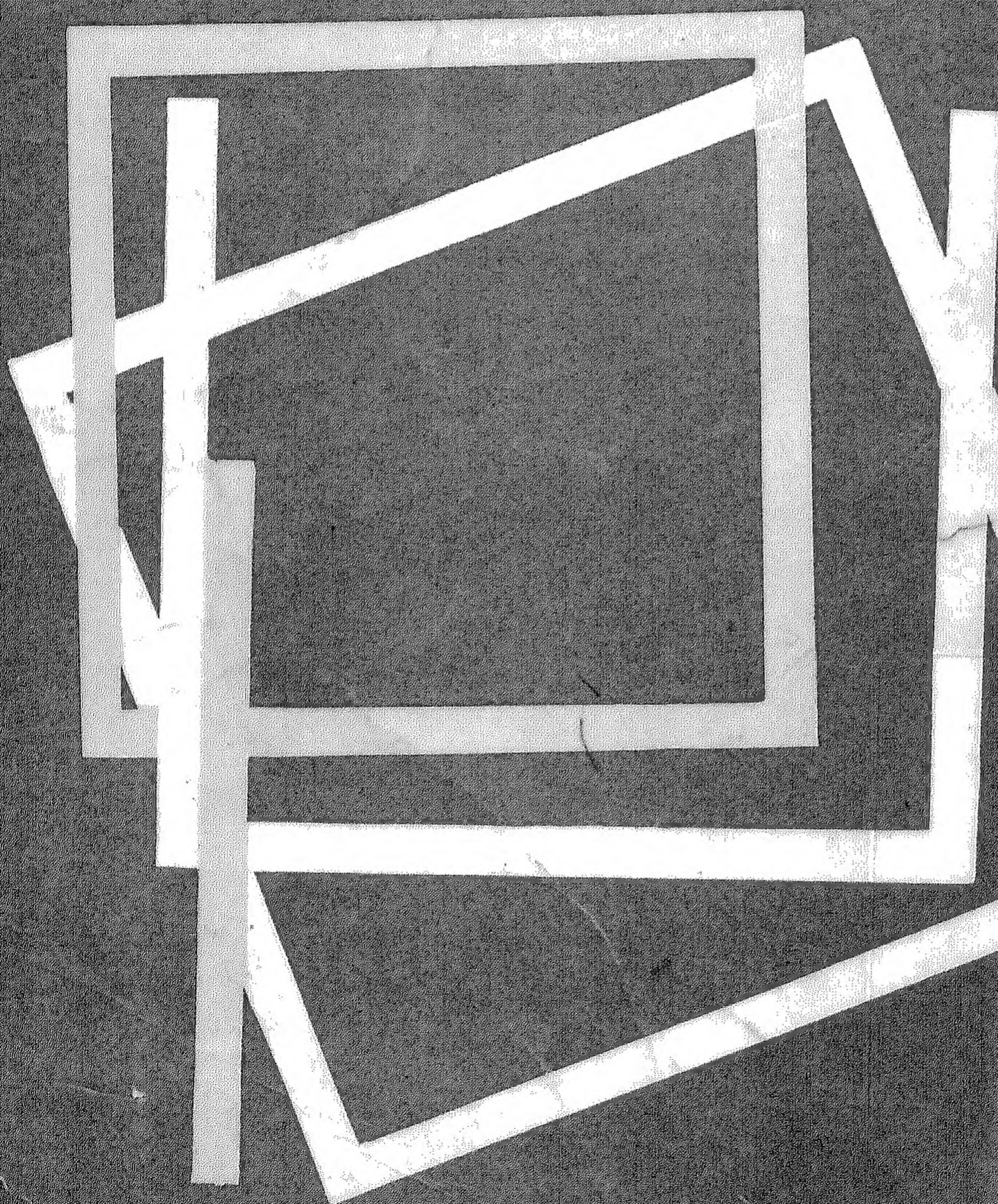
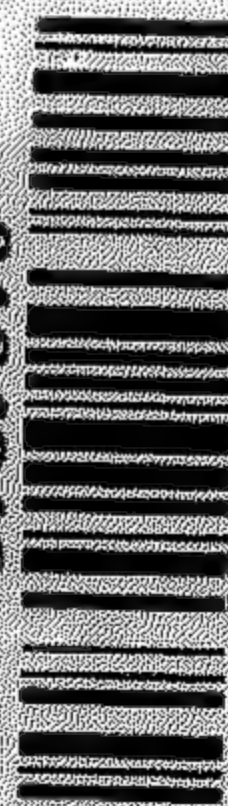


دكتور سمير نعيم أحمد

النظرية في علم الاجتماع



0164913



Bibliotheca Alexandrina

اهداءات ٢٠٠١

١.د. أحمد أبو زيد

أنثروبولوجي

النظرية في علم الاجتماع

(دراسة نقدية)

تأليف

دكتور سمير نعيم أحمد

استاذ علم الاجتماع
جامعتى عين شمس والكويت

الطبعة الثالثة

١٩٨٢



دارالمعارف

محتويات الكتاب

مقدمة المؤلف ٥

الباب الأول

- ١٥ طبيعة النظرية في علم الاجتماع
١٧ الفصل الأول : طبيعة المعرفة العلمية ومكونات العلم . . .
٣٥ الفصل الثاني : النظرية الاجتماعية بين الواقع والممكن . . .
٥١ الفصل الثالث : أسس تقييم النظرية الاجتماعية . . .

الباب الثاني

- ٧٣ النظريات الكلاسيكية ونقدها
٧٥ الفصل الرابع : أوجست كونت وسكونية المجتمع . . .
٩٣ الفصل الخامس : أميل دوركايم والتضامن الاجتماعي . . .
١٠٩ الفصل السادس : /ماكس فيبر والفعل الاجتماعي . . .
١٢٥ الفصل السابع : فلريدو باريتو ونظرية الصفوة . . .
١٤٣ الفصل الثامن : /كارل ماركس والمادية التاريخية . . .

الباب الثالث

- ١٨٥ صياغات حديثة لمسلمات قديمة
١٨٧ الفصل التاسع : البنائية الوظيفية . . .
٢١٣ الفصل العاشر : الظاهراتية . . .
٢٣١ الفصل الحادي عشر : السلوكية الجمعية . . .
٢٤٥ الفصل الثاني عشر : الراديكالية . . .
٢٥٨ المراجع العربية . . .
٢٦٠ المراجع الأجنبية . . .

مقدمة المؤلف

ان الذى يكتب عن النظرية فى أى من العلوم الفيزيائية أو البيولوجية يقف عادة على أرض صلبة وممهدة ، فمعظم ما يكتب عنه متفق عليه تقريبا ، وحتى ذلك القدر البسيط من المعرفة غير المتفق عليها تماما والتي تتشعب حولها الآراء يسهل حصره وتحديد نوع الأدلة اللازمة لحسم الخلاف حوله . وكلما مضى الوقت وتراكمت المعرفة العلمية ازدادت النظريات ثراء ورسوخا وتكاملا وتم حسم الكثير من النقاط الخلافية لتظهر نقاط أخرى يتم حسمها وإضافتها للنظرية وهكذا ، وتصبح مهمة من يكتب عن النظرية البيولوجية أو الفيزيائية أكثر سهولة ويسرا اذا كان بصدد تقديم هذه النظرية أو تلك لطلاب هذه العلوم أو كان بصدد تبسيطها وعرضها على الجمهور .

وعلى ذلك فان الاختلاف بين مؤلف وآخر فى موضوع النظرية البيولوجية أو الفيزيائية يصبح اختلافا فيما يتمتع به كل منهما من سمات شخصية تعينه على العرض المنظم والشيق والمقنع والتكامل لهذه النظريات .

أما عالم الاجتماع الذى يقدم على الحديث عن النظرية فى علم الاجتماع ، فانه يواجه منذ البداية بحشد هائل من الآراء ، لا المختلفة بل والمتضاربة أيضا ، وتكون أصعب مهمة يواجهها أن يبحث عن نقاط الاتفاق بين علماء الاجتماع ، وعادة ما يجد أن زملاءه لم يتفقوا ليس على تفسيرات معينة لما يدرسونه من ظاهرات فقط ، ولكنهم حتى غير متفقين على تعريف لهذه الظاهرات التي يدرسونها بما فى ذلك أكثرها عمومية مثل «المجتمع» ، ذلك المفهوم الأولى الذى مازلنا نجد له عشرات التعريفات المختلفة فى علم الاجتماع . وليت الأمر يقف عند هذا الحد ولكنه يتعداه ليشمل الاختلاف حول كل شيء حتى حول تلك المسائل المنهجية والبديهية

التي انتهى غيرهم من العلماء من الاتفاق حولها وحسمها بحيث كان في امكانهم (أى علماء الاجتماع) استخدامها جاهزة دون ما عناء .
فها نحن نرى عالما كبيرا من علماء الاجتماع يقول في ستينات القرن العشرين :

« يتحدث معظم العلماء الاجتماعيين اليوم بحرارة عن فائدة النظرية، ومع هذا فحينما تسعى للحصول على اجابة للسؤال « ما المقصود بالنظرية في العلم الاجتماعى ؟ نواجه بتعريفات متضاربة أو غامضة في احسن الأحوال » (١) ويمضى بعد ذلك في تعداد وجهات النظر المختلفة لدى علماء الاجتماع حول معنى النظرية .

وقد كتب عالم الاجتماع الأمريكى روبرت مرتون Robert K. Merton ذات مرة يقول :

« يوجد في الولايات المتحدة الأمريكية خمسة آلاف عالم اجتماع ، ولكل منهم علم الاجتماع الخاص به » ، كما قرر عالم الاجتماع الأمريكى هيوجز E. C. Hughes في المؤتمر الدولى الخامس لعلم الاجتماع أنه لا يوجد علم اجتماع واحد ، بل هناك علم اجتماع أمريكى ؛ وآخر سوفيتى، وثالث يوغسلافى ، ... وصينى ... الخ (٢) .

ويقول قطب آخر من أقطاب علم الاجتماع مبررا الموقف ومتخففاً من جدته :

« هناك في العلوم الطبيعية كالفيزياء أو الكيمياء - بوجه عام - نظرية واحدة فقط على مستوى عال من التجريد ، أو مجموعة من النظريات المرتبطة التي يكمل بعضها بعضا ، ولكن هذه العلوم قد وصلت الى هذه المرحلة من النضج بعد أن مرت بمرحلة النظريات المتصارعة التي قد تتمثل في نظريتين أو أكثر تتعايش معاً . وما زال الحال كذلك في علم الاجتماع ، حيث لا يوجد إطار من القضايا المتسقة أو المتجانسة ، أو

(١) Glodeon Sjoberg and Roger Nett : A Methodology for Social Research. (New York: Harper of Row, 1968). P. 29.

(٢) أو سيوف : قضايا علم الاجتماع . ترجمة سمير نعيم وفرج أحمد (القاهرة دار المعارف ، ١٩٧٠) ص ٦٤ .

المعروفة والتعميمات بوصفها اشتقاقات منطقية لمبادئ محددة ، بل ان علم الاجتماع قد تميز فى نموه بظهور مجموعة كبيرة وغير عادية من النظريات المتصارعة .

وينطلق تيماشيف بعد ذلك ليطمئن القارئ ويعدده بأن الاختلاف بين علماء الاجتماع أخذ فى التناقص والتقلص (٣) .

ويعبر عاطف غيث عن الموقف النظرى فى علم الاجتماع المعاصر بقوله :

« تعددت المواقف النظرية فى علم الاجتماع الحديث ، حتى أصبحت معالجة موضوعاته من خلال موقف نظرى واحد ، مخاطرة كبيرة على حساب الوضوح والتحليل الصحيح ، بالإضافة الى عدم التصور المتكامل للحقيقة الاجتماعية كما أن الانحياز الايديولوجى يكون امرا من الصعب تجنبه . ولهذا يميل عدد من الباحثين فى علم الاجتماع اليوم الى تبني نظرة متعددة الجوانب أو الالتزام بتعدد العوامل عند التفسير والتحليل (٤) .

هذه امثلة قليلة جدا مما يقوله علماء الاجتماع عن الاختلافات فيما بينهم ونكاد نجزم بأن كل مرجع فى علم الاجتماع بوجه عام وعن النظرية فى علم الاجتماع بصفة خاصة يذكر صراحة أو ضمنا عدم اتفاق علماء الاجتماع حتى على تعريف أبسط المفاهيم ، التى هى المادة الأولية فى بناء أى نظرية علمية .

هذه أول صعوبة يواجهها دارس النظرية فى علم الاجتماع - صعوبة تعدد النظريات - التى تحاول تفسير الظواهر الاجتماعية ، ويرتبط بهذه الصعوبات الأولية والرئيسية مجموعة من الصعوبات المتفرعة عنها ؛ همها أن كلا من النظريات الأساسية فى علم الاجتماع تضم داخليا اتجاهات

(٣) نيقولا تيماشيف : نظرية علم الاجتماع - طبيعتها وتطورها - ترجمة محمود عودة محمد الجوهري والسيد الحسيني ومحمد على (القاهرة - دار المعارف ، ١٩٧٠) ص ١٦ .
(٤) عاطف غيث : الموقف النظرى فى علم الاجتماع المعاصر (الاسكندرية دار الكتب الجامعية ١٩٧٢) ص ٩ .

مختلفة بعضها قد يكون قديما والبعض الآخر قد يكون حديثا ويرتبط كل من هذه الاتجاهات باسم عالم من العلماء أو أكثر ، ومما يزيد الأمر تعقيدا أو صعوبة أن كل نظرية من النظريات الأساسية وكل اتجاه من الاتجاهات الفرعية داخلها يضم حشدا هائلا اما من المفاهيم والمصطلحات المختلفة التي تشير الى نفس الشيء أو المفاهيم والمصطلحات المتشابهة التي تشير الى أشياء مختلفة . وتلك الصعوبة على جانب كبير من الأهمية لأنها تجعل عملية المقارنة بين النظريات بل مجرد عرضها بشكل واضح أمرا بالغ التعقيد .

وتتعلق الصعوبة الثانية والأساسية التي يواجهها دارس النظرية الاجتماعية بتصنيف هذه النظريات أو مسمياتها . فمثلا لا توجد نظرية عامة واحدة متفق عليها بين علماء الاجتماع لا يوجد أساس واحد لتصنيف هذه النظريات أو حتى لاطلاق مسميات عليها . ذلك أن تصنيف النظريات في حد ذاته يعتمد على الاطار النظرى الذى يتبعه القائم بالتصنيف . ولناخذ مثلا واحدا فى ذلك - حالة اميل دور كايم عالم الاجتماع الفرنسى الشهير - لقد صنّفه دون مارتندال تحت ما أسماه بالنظريات العضوية الوضعية (٥) بينما صنّفه كل من تيماشيف (٦) وأبل (٧) تحت ما أسماه بعلم الاجتماع التحليلي ؛ وصنّفه هاجدورن تحت النظريات البنائية وصنّفه كوزر تحت ما أسماه بالنظريات الاجتماعية بينما يصنّفه الماركسيون تحت النظريات المثالية . ولسنا بصدد حصر للتصنيفات المختلفة لدور كايم وهى كثيرة ، ولكننا نقدم للقارئ بعض الأمثلة القليلة على تعدد مسميات النظريات وأسس التصنيف . وينطبق هذا بالطبع على كافة أصحاب النظريات الاجتماعية .

أما الصعوبة الثالثة فى دراسة النظرية الاجتماعية فتتمثل فى اختلاف

(٥) Don Martindale, Nature and Types of Sociological Theory (London. Routledge-Kegan paul. 1967).

(٦) نيقولا تيماشيف - المرجع السابق .

(٧) Theodere Abel. The Foundation of Sociological Theory. (New York. Random House, 1970).

أسس تقييم النظريات الاجتماعية • فكل اتجاه نظري يضع أساسا لتقييم النظرية الاجتماعية تنبع من المسلمات الأساسية التي يعتمد عليها ويختلف بالطبع عن أسس تقييم النظرية المستمدة من غيره من الاتجاهات •

ومثلما توجد نظريات في علم الاجتماع وأسس مختلفة لتصنيف النظريات وأسس مختلفة لتقييمها توجد أيضا تفسيرات مختلفة لهذه الاختلافات جميعا • فبعض علماء الاجتماع يرون أن هذه الاختلافات مرحلية وأنه مع تطور علم الاجتماع ونضجه سيتوفر لهذا العلم نظرية أساسية مثل بقية العلوم ، بينما يرى البعض الآخر أن هذه الاختلافات سمة لازمة لعلم الاجتماع وأن التعدد في النظرية الاجتماعية يعكس طبيعة الظواهر الاجتماعية المعقدة ، فكل موضوع من الموضوعات المختلفة التي يدرسها علم الاجتماع يحتاج إلى منظور يختلف عن ذلك الذي يحتاج إليه غيره • بينما يرى آخرون أن كل هذه الاختلافات المتعلقة بالنظرية الاجتماعية إنما تعكس مواقف أيديولوجية وسياسية لعلماء الاجتماع تعبر بدورها عن أوضاع اجتماعية واقتصادية وسياسية سائدة في المجتمعات التي تنشأ فيها هذه النظريات • بل أن هناك من يرى أن هذه الاختلافات في حد ذاتها لا تزيد عن كونها جهدا مقصودا لتغليب الواقع الاجتماعي بالغموض وتصويره على أنه غير قابل للفهم من أجل إخفاء حقائق النظام الاجتماعي في المجتمع الذي يعيش فيه علماء الاجتماع والمحافظة على هذا النظام •

ومن المؤكد أن كل من تعرض لمهمة الكتابة عن النظرية الاجتماعية ولمهمة تدريسها قد شعر بوطأة هذه المشكلات جميعا عليه • فبالإضافة إلى الجهد الخارق الذي لابد أن يبذله في عملية الإلمام بكافة الاتجاهات النظرية وتفرعاتها في علم الاجتماع وفي عملية المقارنة بينها والبحث عن نقاط الاختلاف والاتفاق بينها ودراسة المعاني المختلفة التي تضيفها كل نظرية على المفاهيم التي تستخدمها ، أقول بالإضافة إلى ذلك كله عليه أن يبذل جهدا آخر في محاولة عرض ما تم له استيعابه وما توصل إليه من استنتاجات بطريقة منظمة ومنطقية (على الرغم من أن المادة موضوع دراسته ليست أصلا منظمة ولا منطقية في معظم الأحوال) •

ويمكن أن نشعر بوطاة هذه المشكلات على المؤلف فى هذا الميدان من قراءتنا لمقدمات الكتب التى تتناول النظرية الاجتماعية من قول عالم الاجتماع الأمريكى الشهير « دون ما تندال » فى مقدمته لكتابه « طبيعة وأنماط النظرية الاجتماعية » : « لابد أن أعترف بأننى فى محاولتى هذه لاستكشاف طبيعة وأسس الصور المختلفة من النظرية الاجتماعية وقدراتها التفسيرية كنت أسترشد بهدف واحد لا غير - أن أفهمها أنا أولاً » (٨) .

بيد أن هذه الصعوبات التى تحدثنا عنها لا يجب بحال أن تعوق المتخصص فى علم الاجتماع عن فهم طبيعة وأنماط النظرية الاجتماعية مهما كان موقعه من أى من هذه الأنماط ، إذا كان يرغب حقاً فى فهم أى من الظواهر الاجتماعية التى يتخصص فى دراستها أو فهم المجتمع الذى يعيش فيه بوجه عام .

ان أى باحث فى أى علم من العلوم لا غنى له عن نظرية توجهه فى جمعه للوقائع المتعلقة بالظاهرة التى يريد دراستها أو فى اختياره للفروض التى يريد أن يختبر صدقها وفى اختياره للمنهج وللأدوات التى سيستخدمها فى دراسته ، فبدون هذه النظرية يتخبط فى جمع معلوماته بحيث تأتى غير مترابطة ثم يعجز فى النهاية عن اضافة معنى عليها أو تفسيرها . ولكن أى نظرية سيختار من بين هذا الحشد من النظريات المتضاربة فى ميدان علم الاجتماع ؟ وعلى أى أساس تكون مفاضلته بين هذه النظريات ؟

ان هذا الكتاب محاولة للإسهام فى توضيح المعالم الأساسية للاتجاهات النظرية المختلفة فى علم الاجتماع وفى وضع أسس علمية للمفاضلة بين هذه النظريات تساعد الدارس والباحث على التعرف على نواحي القوة والقصور فى كل منها واتخاذ موقف نقدى منها . وقد حاولنا تحقيق هذا الهدف عن طريق ما يأتى :

١ - مناقشة معنى النظرية ودورها فى العلم بوجه عام ومحاولة تشخيص الوضع الراهن للنظرية فى علم الاجتماع والعوامل التى ترتبط بعدم وصول هذه النظرية الى المستوى العلمى المطلوب .

٢ - مناقشة وتحديد الأسس التي يمكننا على أساسها نقد وتقييم النظرية الاجتماعية والمقارنة بين النظريات المختلفة .

٣ - عرض الأفكار العامة والمسلمات الأساسية التي يركز عليها كل اتجاه من الاتجاهات النظرية في علم الاجتماع بصورة واضحة مع تجنب مناقشة التفاصيل الفرعية التي تزيد من غموض الاتجاه وتجعل القارئ يضل سبيله بين متاهات هذه التفاصيل ، مع إحالة القارئ الى المراجع التي يمكنه الاستزادة منها فيما يتعلق بكل اتجاه .

٤ - تطبيق أسس نقد وتقييم النظرية الاجتماعية على كل اتجاه واستخلاص مسلماته الأساسية ومناقشتها .

أما فيما يتعلق بأسلوب عرض الاتجاهات النظرية الأساسية في علم الاجتماع في هذا الكتاب فقد رأينا أن نبدأ بالنظريات الكلاسيكية ونناقشها، نظرا لأنها تتضمن المسلمات الرئيسية التي ترتكز عليها كل الاتجاهات النظرية المعاصرة . وقد بينا خلال هذا العرض أنه على الرغم من بزوغ أسماء ومسميات جديدة في ميدان النظرية الاجتماعية إلا أن ذلك لم يقدم جديدا يذكر في هذا الميدان يمكن أن يضاف الى أعمال العلماء الكلاسيكية، وعلى هذا فإن النظريات الاجتماعية الحديثة لا تزيد عن كونها « صياغات جديدة لمسلمات قديمة » كما أسميناها . وقد ركزنا على بيان العلاقة بين المسلمات الأساسية التي يحتوى عليها كل اتجاه نظري من جهة وبين التوجيه الايديولوجي لصاحب هذا الاتجاه والمضامين الايديولوجية له ، وما يشير اليه من اجراءات اجتماعية عملية من جهة أخرى حتى يكون الدارس على وعى بالموقف السياسي الذي يتخذه عند اختياره لأي من الاتجاهات النظرية السائدة في علم الاجتماع .

وتركيزنا على هذه العلاقة يستند على ما أثبتته الكثيرون من علماء الاجتماع من عدم الحياد الايديولوجي في النظرية الاجتماعية منذ نشأتها وارتباطها الوثيق بالموقف السياسي لصاحب النظرية .

ويجب أن نذكر في هذا المقام أن الخلفية الفكرية التي نعتمد عليها في عرضنا ومناقشتنا للنظرية الاجتماعية في علم الاجتماع مستمدة من

المعرفة المتوافرة فى ميدان علم اجتماع المعرفة بصفة عامة وعلم اجتماع علم الاجتماع Sociology of Sociology بصفة خاصة .

وأهم ما نركز عليه فى هذا الصدد حقيقة أن المعرفة (والنظرية الاجتماعية احدى صورها) تكون دائما نتاجا للظروف الاجتماعية والثقافية التى تظهر فيها ، وتعكس الى حد كبير الموقع الاجتماعى للعالم وبخاصة الطبقة التى ينتمى اليها كما يقرر عالم اجتماع المعرفة كارل مانهايم .

ولكن على الرغم من أن هذه الحقيقة قد وجهتنا دائما فى عرضنا وفى تقييمنا للنظرية الاجتماعية الا اننا لم نحاول أن نجعل من هذا الكتاب مؤلفا فى علم اجتماع المعرفة أو فى علم اجتماع النظرية الاجتماعية ، وبالمثل فانه على الرغم من تسليمنا بأن الظروف التاريخية التى ارتبطت بظهور كل اتجاه نظرى قد تركت بصماتها واضحة عليه فاننا لم نحاول أن نجعل منه كتابا فى تاريخ الفكر الاجتماعى ، فكل موضوع من هذين الموضوعين يتطلب مؤلفا مستقلا يتناول بعمق وتفصيل وعن دراية تاريخ المجتمعات الغربية وتحليلا مستقيضا للظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية التى ظهرت فيها هذه الاتجاهات ويربط بين التغيرات الاجتماعية من جهة وبين التغيرات أو التعديلات التى طرأت على النظرية الاجتماعية من جهة أخرى وتقديم الأدلة على انتماءات وولاءات وأنشطة أصحاب هذه النظريات وانعكاسها على نظرياتهم وفوق هذا كله فان مثل هذه المؤلفات تنطلق من التسليم بأن القارئ على علم كاف بالنظريات التى تؤرخ لها أو تحللها اجتماعيا .

ان محاولة الجمع بين الأهداف الثلاثة (التحليل الاجتماعى للنظرية الاجتماعية والتأريخ للفكر الاجتماعى وعرض النظرية الاجتماعية بشكل واضح وتقييمها) فى مؤلف واحد لا يمكن أن ينجم عنه سوى عدم تحقيق أى منها بطريقة جدية .

وأخيرا أود أن أقرر أننى قد أستفدت كثيرا عند وضعى لهذا المؤلف من المناقشات المثمرة التى دارت بينى وبين طلابى بالجامعات المصرية (عين شمس والقاهرة والاسكندرية والمنيا) والأمريكية (جامعة سان

فرنسيسكو) والعربية (الجزائر وقاريونس) أثناء تدريسي لهم مواد علم الاجتماع ومادة النظرية الاجتماعية لمدة تزيد على العشر سنوات سواء في مرحلة الليسانس أو مرحلة الدراسات العليا كما أنني قد أفدت من مناقشة الزملاء من الأساتذة المصريين والأجانب الزائرين وطلاب الماجستير والدكتوراه لآرائي ومناقشتي لآرائهم أثناء جلسات السمنار الذي يعقد أسبوعيا بقسم الاجتماع بجامعة عين شمس منذ عام ١٩٦٩ .

وقد اتاحت لي فرصة زيارة جامعة Hull بالمملكة المتحدة خلال شهر ديسمبر ١٩٧٦ إمكانية الاطلاع في مكتبتها على أحدث المراجع الأجنبية في موضوع النظرية الاجتماعية ، واتوجه بالشكر للأستاذ الدكتور بونز Pons رئيس قسم الاجتماع بالجامعة والدكتور طلال أسد أستاذ الأنثروبولوجيا وأعضاء هيئة التدريس بالقسم على ما بذلوه من جهد وما قدموه من مساعدة .

ولابد أن أشيد هنا بالجهد القيم الذي قدمه أساتذة ورواد علم الاجتماع في الجامعات المصرية في شرح وتقديم النظريات الاجتماعية للقارئ العربي والذي يجد القارئ ثبوتا بمؤلفاتهم في النظرية الاجتماعية في آخر الكتاب وأرجو أن يكون هذا العمل امتدادا لاسهاماتهم .

ولا يسعني في النهاية إلا أن أشكر كل من أسهم من الزملاء والأصدقاء في اكمالى لهذا العمل سواء بالمناقشة أو المساعدة الفعلية ، وأخص بالذكر الأستاذ الصديق الدكتور عاطف غيث رئيس قسم الاجتماع بكلية الآداب جامعة الاسكندرية لتشجيعه الدائم لي على الكتابة في هذا الموضوع وللمناقشات المثمرة معى للاتجاهات النظرية وآرائه النقدية التي أثرت مجال علم الاجتماع في مصر .

واتوجه بالشكر للزميلين الصديقين مجدى حجازى المدرس المساعد بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجناائية وشادية على قناوى المدرس المساعد بقسم الاجتماع بآداب عين شمس لمناقشاتهما البناءة ولحثهما الدائم لي لاكمال هذا العمل ، والآتسة سهام نعيم أحمد على ما بذلته من مجهود كبير في إعادة نسخ أصول الكتاب ومراجعة تجاربه وما أبدته من ملاحظات أثناء ذلك العمل .

كما كان لزوجتى وبناتى هالة وهبة وسحر أكبر الفضل فى توفير
الجو المناسب لانجاز ذلك العمل وتحملن فى سبيل ذلك الكثير فلهن كل
تقدير •

واننى لآمل أن يسهم هذا العمل فى تحقيق بعض من الوضوح
الفكرى فيما يتعلق بالنظرية الاجتماعية •

سمير نعيم أحمد

مدينة نصر فى ٢٣/٩/١٩٧٧

الباب الأول

طبيعة النظرية فى علم الاجتماع

- الفصل الأول : طبيعة المعرفة العلمية ومكونات العلم .
- الفصل الثانى : النظرية الاجتماعية بين الواقع والممكن .
- الفصل الثالث : أسس تقييم النظرية الاجتماعية .

الفصل الأول

طبيعة المعرفة العلمية ومكونات العلم

ليس من الممكن أن نفهم معنى النظرية العلمية ودورها فى العلم دون أن نفهم أولا معنى العلم ومكوناته ، لذلك فاننا سنبدأ دراستنا للنظرية الاجتماعية بمقدمة ضرورية نشرح فيها النقاط الآتية :

١ - معنى المعرفة العلمية .

٢ - مكونات العلم .

٣ - طبيعة النظرية العلمية وعلاقتها بغيرها من مكونات العلم .

وعلى ضوء هذه المقدمة نستطيع أن تنتقل للحديث عن النظرية الاجتماعية بوصفها صورة من صور النظريات العلمية .

١ - معنى المعرفة العلمية :

يمكننا القول أن المعرفة بصفة عامة عبارة عن نسق من المعانى والمعتقدات والأحكام والمفاهيم والتصورات الفكرية التى يكونها الانسان عن أى جانب من جوانب الكون الذى يعيش فيه (١) . ومع أن مصدر المعرفة دائما هو الواقع ، سواء كان هذا الواقع فيزيقيا (جامدا) أو بيولوجيا (حيا) أو اجتماعيا ، الا أن هناك دائما فرق بين معرفة تصور هذا الواقع تصويرا موضوعيا دقيقا وبين معرفة أخرى تعكس هذا الواقع بصورة مخالفة لما هو عليه فعلا . والنوع الأول من المعرفة هو ما يطلق عليه المعرفة العلمية ، وهى تلك المعرفة العلمية ، التى اكتسبها الانسان من خلال محاولاته الدائمة للسيطرة على الطبيعة (بجوانبها الفيزيائية والبيولوجية والاجتماعية) واخضاعها لارادته عن طريق عمله الجماعى

(١) عبد الباسط محمد حسن . أصول البحث الاجتماعى - مكتبة وهبة . للقاهرة ١٩٧٦ .

والتي مكنته بدورها من التنبؤ بالظواهرات المختلفة والتحكم فيها . أما النوع الثانى من المعرفة (غير العلمية) فيتمثل فى المعرفة الميتافيزيقية التي تفسر ظواهرات الكون الطبيعية بقوى فوق طبيعية وفى المعرفة الأدبية والفنية التي تعكس ظواهرات الكون من خلال المشاعر الذاتية للأدباء والفنانين . ولكي نوضح هذه الأنواع الثلاثة من المعرفة (العلمية والميتافيزيقية والفنية) نضرب لذلك مثلا باحدى الظواهرات التي يمكن أن تكون موضوعا لهذه الأنواع من المعرفة ولتكن الشجرة . المعرفة العلمية تحاول تصوير الشجرة فى الواقع . فعالم الحياة يصف لنا الشجرة بدقة بأجزائها المختلفة ويبين لنا كيفية نموها ويفسر لنا ما بين هذا الكائن الحى وبين التربة التي ينشأ فيها . من علاقات ويشرح لنا العمليات (البيولوجية) أو (الحيوية) التي تتم - بداخله - كعملية التمثيل الكلوروفيلى أو الضوئى .

وبناء على هذه المعرفة نستطيع أن نتحكم بنجاح فى هذه الظاهرة ، أى نستطيع أن نزرعها فى المكان المناسب والوقت الملائم ، ونستطيع أن نزيد من سرعة نموها عن طريق تزويدها بما تحتاج اليه فعلا من أسمدة أو مياه ، كما نستطيع أن نزيد من محصولها أو نحسن منه . الخ . أما المعرفة الميتافيزيقية فانها تمدنا بصورة عن القوى فوق الطبيعة التي تتحكم فى هذه الظاهرة . ومن أمثلة هذه المعرفة ماكانت تتصوره الأقوام البدائية من أن كل شئ بالكون تسكنه روح هى التي تحدد سلوكه وكان هذا التصور يعرف بما يسمى باحياء المادة Animism وكانت وسيلة التحكم فى هذه الظواهرات تبعا لهذا النوع من المعرفة وسيلة ميتافيزيقية أيضا ، تتمثل فى إقامة طقوس معينة كالرقص لارضاء هذه الروح حتى تفعل مايريده الانسان . (مثلما كان يفعل قدماء المصريين فى طقوسهم لارضاء النيل بالقضاء عروس البحر فيه حتى يأتى الفيضان) ويمكننا أن نقارن هنا بين درجة نجاح هذه الوسيلة من التحكم القائمة على المعرفة الميتافيزيقية وبين درجة نجاح إقامة السدود كوسيلة للتحكم فى مياه النيل والقائمة على المعرفة العلمية .

أما المعرفة الأدبية أو الفنية فانها تصور لنا نفس الظاهرة (الشجرة) من خلال مشاعر الأديب والفنان الذي يبرز لنا جوانب معينة منها ويضفى

عليها معان لا توجد فيها ذاتها ولكنها توجد في عقل الانسان ، ولا تهدف هذه المعرفة الى التحكم في الظاهرة أو السيطرة عليها بقدر ما تهدف الى تحقيق مشاعر انسانية معينة نحوها أو استمداد مشاعر منها (كالجمال) مثلا .

المعرفة العلمية اذن تتصف بصفتين أساسيتين أولهما أنها تصور الواقع موضوعيا ، أى أنها تعكس هذا الواقع كما هو عليه ، ليس في خصائصه الظاهرة فحسب ولكن في جوهره ، وثانيهما أنها تمكننا من التعامل مع هذا الواقع بكفاءة عن طريق التحكم فيه والسيطرة عليه . والعلم يستطيع التوصل الى تصوير انواقع الذى يدرسه تصويرا موضوعيا لأن العلماء يستخدمون في دراساتهم منهجا Method أو أسلوبا خاصا تم اكتشافه من خلال الدراسات العلمية المتعددة في كافة المجالات يعرف بالمنهج العلمى Soientific method ويتصف هذا المنهج بعدة خصائص أهمها (٢) :

أولا : الاعتماد على الأدلة التى يمكن التحقق من صدقها لقبول أو رفض أى حكم أو فكرة . والأدلة هنا تعنى الوقائع Facts التى يمكن لأى عالم مدرب على الملاحظة العلمية أن يلاحظها ويرتبها أو يقيسها أو يحصيها وأن يتأكد منها . وهذه الخاصية تحدد نوعية الظواهرات التى يدرسها العلم . فالعلم لا يدرس الا تلك الموضوعات التى يمكن الحصول على أدلة محسوسة عنها أو بعبارة أخرى العلم لا يدرس الا الأشياء التى لها وجود موضوعى فى الطبيعة .

وهذه الخاصية تجعل العلماء مرنيين فى تفسيراتهم للظواهرات التى يدرسونها فإذا ما جدت أدلة تنفى ما سبق أن توصلوا اليه من تفسيرات فانهم يرفضون هذه التفسيرات على الفور أو يعدلون منها . وعلى ذلك فليس فى العلم صدق أو حقيقة مطلقة Absolute Truth ولكن الصدق دائما فى العلم نسابتي relative، فالعلماء لا يعتقدون أن هناك استنتاجات

G. Sjoberg and R. Nett. opt. cit. pp. 23 - 28.

(٢) انظر فى ذلك

وكذلك عماد الدين اسماعيل . المنهج العلمى وتفسير السلوك (القاهرة - النهضة المصرية

(١٩٦٢) ص ٤٠ - ٥٤ .

تصلح لكل زمان ومكان فى ظل كل الظروف • وجميع الاستنتاجات العلمية تخضع للتعديل بل وحتى الرفض اذا ما وجدت أدلة جديدة تستدعى ذلك • وهذا ما يفرق بين العلم والعقيدة •

والعلماء يحصلون على الأدلة عن طريق اجراء الملاحظات العلمية التى تختلف عن الملاحظات العادية فى أنها تتصف بعدة صفات - أهمها (٣) :

(١) الدقة Accuracy :

ونعنى بها أن العالم يتأكد دائما من أن وصفه للأشياء التى يلاحظها مطابق لما هى عليه فى الواقع • فالعالم لا يقول مثلا أن « هذه الغابة مليئة بالأشجار الميتة » الا اذا تأكد تماما بعد فحص جميع الأشجار أنها قد ماتت فعلا • كما أنه لا يقول « أن الأسر المصرية قد أصبحت الآن أقل حجما مما كانت عليه من قبل » ، ولكنه يحدد بدقة حجم الأسرة الآن وحجمها فى فترة سابقة محددة قبل أن يصدر هذا الحكم •

(ب) التجديد Precision:

تتصف الملاحظة العلمية أيضا بالتحديد • وبينما تعنى الدقة صحة الملاحظة يعنى التحديد تعيين درجة معينة للشئ الملاحظ • فقولنا أن الغابة مليئة بالأشجار الميتة ملاحظة دقيقة اذا تأكدنا من موت الأشجار ولكنها ملاحظة غير محددة لأن كلمة مليئة غير واضحة • ولكننا اذا قلنا أن جميع اشجار الغابة ميتة أو أن ٩٠٪ منها ميتة لكأننا ملاحظتنا دقيقة ومحددة أيضا •

لذلك فان العلماء يعتمدون فى ملاحظاتهم على « القياس » Measurement ويستخدمون لذلك مختلف المقاييس الدقيقة مثل الترمومتر لقياس درجة الحرارة والبارومتر لقياس الضغط ومقاييس الذكاء والشخصية والاتجاهات الاجتماعية... الخ •

(ج) التسجيل الدقيق :

يلجأ العلماء دائماً الى تسجيل ملاحظاتهم بدقة حتى يمكن الرجوع اليها فيما بعد ومقارنتها بملاحظات غيرهم ، وهم لا يعتمدون على ذاكراتهم لما يمكن أن تحدثه من تشويه أو نقص في دقة الملاحظات . ولكنهم يستخدمون لذلك أجهزة للتسجيل الدقيق في مختلف المجالات .

(د) الموضوعية :

الموضوعية في الواقع محصلة الصفات الأربع السابقة التي اذا توفرت كان وصف العالم للشيء المدروس أقرب ما يكون لما هو عليه فعلاً وليس لما يرغب أن يكون . ولكن من حق العالم بعد أن يقدم هذا الوصف الموضوعي للظاهرة موضوع الدراسة أن يصدر عليه حكماً ما بناء على ما هو متوافر لديه من معلومات أو بيانات ، وهذا الحكم بدوره يكون موضوعياً اذا كان يعتمد على الأدلة . فمن حق العالم مثلاً بعد أن يصف سلوك الذباب أن يصدر حكماً بأن الذباب ضار بصحة الانسان وأن يحدد أساليب إبادته .

هذا عن الخاصية الأولى للمنهج العلمي ، وهي الاعتماد على الأدلة المستقاة من الملاحظة الدقيقة والمحددة والمنظمة والمسجلة بدقة والتي تتوفر فيها الموضوعية .

ثانياً : التسليم بمبدأ الحتمية : Determinism يسلم المنهج العلمي بأن جميع مظاهر الكون نتاج لعمليات أو أحداث طبيعية فكل ظاهرة لها تاريخ يتلخص في الأحداث التي سبقت حدوث الظاهرة ، وبناء على ذلك فإن العلماء لا يقتصرون على وصف أي ظاهرة أو حدث ولكنهم يسعون دائماً الى اكتشاف العلاقات بين الظاهرة التي يدرسونها وبين ما سبقها من أحداث أدت الى وقوعها . وتختلف الحتمية العلمية عن الحتمية الميتافيزيقية في أن الحتمية العلمية تفتش عن مسببات الظاهرة في الطبيعة بينما تفتش الحتمية الميتافيزيقية عن مسببات الظاهرة في قوى فوق طبيعية والتسليم بمبدأ الحتمية الطبيعية في المنهج العلمي هو الذي أدى بعلماء الحياة الى اكتشاف مسببات الأمراض في الجسم الانساني أو في البيئة الطبيعية (مثل

الميكروبات) وبالتالي أمكن علاج هذه الأمراض بالأساليب العلمية الناجحة كما أن التسليم بمبدأ الحتمية الطبيعية هو الذى أدى الى اكتشاف مسببات الفيضانات ، وبالتالي أمكن التحكم فيها بإقامة السدود .
وجميع القوانين العلمية قد تم التوصل اليها نتيجة التسليم بهذا المبدأ .

ثالثا : التسليم بترابط ووحدة ظاهرات الطبيعة : يسلم المنهج العلمى بأن جميع ظاهرات الكون مترابطة ومتفاعلة مع بعضها البعض ، وبالتالي فإن على العلماء أن يكشفوا عن طبيعة هذا الترابط والتفاعل وأن يتوصلوا الى القوانين التى تحكمه . وقد أمكن للعلماء استرشادا بهذا المبدأ أن يتوصلوا الى الكثير من القوانين سواء فى مجال الظاهرات الجامدة (الفيزيكية) أو الظاهرات الحسية (البيولوجية) أو الظاهرات الانسانية الاجتماعية . فقانون الجاذبية ليس الا تعبيرا عن تفاعل الأجرام السماوية . فالأرض ترتبط بغيرها من الكواكب فى المجموعة الشمسية كما أن المجموعة الشمسية ذاتها ترتبط بغيرها من التكوينات والمجموعات السماوية والكائنات الحية ترتبط ببعضها البعض ويتأثر كل منها بالآخر ويؤثر عليه ليس هذا فحسب ، ولكن هذه الكائنات جميعا ترتبط بالبيئة التى تعيش فيها وتتأثر بها وتتأثر عليها وليس أدل على وحدة وترابط جميع ظاهرات الكون مما تم للعلماء اكتشافه عن العلاقة بين الشمس (ظاهرة فيزيكية) والحياة .

فالطاقة الشمسية تؤدى الى ما يعرف بظاهرة التمثيل الكلوروفيلى فى النبات حيث يمتص النبات الكربون الذى يوجد فى ثانى أكسيد الكربون وينطلق الأكسجين الذى يتنفسه الانسان . وهكذا نرى أن النبات يمثل حلقة فى سلسلة التفاعلات بين الظاهرات الفيزيكية والحية . فبدون الشمس لن يوجد النبات وبدون النبات لا وجود للانسان أو لغيره من الكائنات الحية . وعلى هذا فإنه لكى نستطيع فهم أى ظاهرة فى الكون لا بد لنا من أن ندرس كل جوانبها وجميع العلاقات بين هذه الجوانب ليس هذا فحسب ولكن لا بد لنا أيضا أن ندرس علاقة هذه الظاهرة بغيرها من الظاهرات .

رابعاً : التسليم بأن هناك درجة من الاستمرارية أو الثبات النسبى والانتظام فى ظاهرات الكون . فالمنهج العلمى على الرغم من تسليمه بأن جميع ظاهرات الكون فى حالة تغير دائم ، الا أن هذا التغير لا يحدث على شكل قفزات مفاجئة أو أحداث عرضية أو عشوائية ولكنه يتبع نظاماً ثابتاً نسبياً ، فما يحدث على نحو معين فى ظل ظروف معينة سوف يتكرر على نفس النحو تقريباً اذا توفرت نفس الظروف . ولذلك فان العلماء يحددون مهمتهم بأنها البحث عن القوانين الثابتة نسبياً وراء ما هو متغير .

ان استخدام المنهج العلمى الذى يتصف بهذه الخصائص الأساسية الأربعة فى تحصيل المعرفة هو الذى يميز اذن بين المعرفة العلمية والمعرفة غير العلمية ، وعلى ذلك يمكننا تعريف العلم تعريفاً مبسطاً بقولنا « أنه المعرفة المنظمة بظاهرات الكون التى تم التوصل اليها وصياغتها باستخدام أسلوب أو منهج معين هو المنهج العلمى » . وهذه المعرفة ذات طبيعة تراكمية وتمكن الانسان من التعامل بكفاءة مع البيئة الطبيعية ، ولكن ما هى مكونات هذه المعرفة ؟

٢ - مكونات العلم : (٤)

رأينا أن المعرفة العلمية تختلف عن غيرها من أنواع المعرفة فى المنهج الذى يتبع فى التوصل اليها ، والذى يحدد بما يتضمنه من مسلمات ، طبيعة الظاهرات القابلة للدراسة العلمية من جهة (الظاهرات الطبيعية الخاضعة للملاحظة وذات الوجود الموضوعى المستقل عن ارادتنا) ويحدد من جهة أخرى كيفية دراسة هذه الظاهرات واستخلاص النتائج منها كما يقرر الهدف من هذه الدراسة . ويمكننا أن نستنتج من ذلك أن المعرفة العلمية تتكون من ثلاثة عناصر رئيسية :

(٤) انظر :

1 — V. Afanasyv : Marxist philosophy.

2 — J. D. Bernal : Science in History.

3 — G. Sjöberg : Methodolgy in Social Research.

١ - ملاحظات منظمة دقيقة ومحددة وموضوعية لوقائع Facts
فى الكون .

٢ - اجراءات تستخدم فى اجراء هذه الملاحظات (مثل القياس
والجربة) .

٣ - استنتاجات عامة من هذه الوقائع تبين العلاقات الترابطية
والسببية بينها .

ومن الواضح أن المعرفة العلمية بعناصرها الثلاثة هذه تختلف عن
أى معرفة أخرى . فالمعرفة التى توجد لدى الناس العاديين والتى
يكتسبونها من خلال تجاربهم اليومية انما تتضمن أساسا الملاحظات التى
يقومون بها للأشياء المحيطة بهم دون أن يدركوا العلاقات الجوهرية بين
هذه الأشياء وبعضها البعض أو يكونوا استنتاجات عامة عنها . والمعرفة
الميتافيزيقية والفنية والأدبية لا تزيد عن كونها تأملات فكرية لا تستند على
ملاحظات منظمة ودقيقة وموضوعية لوقائع موجودة فى الكون أو بعبارة
أخرى لا تستند على أدلة مستمدة من الواقع تخضع للاختبار والتحقق
من صدقها . والمعرفة العلمية وحدها هى التى تجمع بين الملاحظات
المنظمة أو الموضوعية للوقائع الطبيعية ، وبين الاستنتاجات التى يصل
إليها العلماء عن العلاقات الترابطية والسببية بين هذه الوقائع . وسوف
نتحدث فيما يلى بالتفصيل عن عناصر المعرفة العلمية أو مكونات العلم
والعلاقة الجدلية بين بعضها البعض .

تتكون المعرفة العلمية من جانبين : جانب حسى يسمى بالمعرفة
الحسية أو العيانية Concrete ونعتمد فيها على الخبرة الحسية التى
تزودنا بها أعضاء الحس . وجانب منطقى أو عقلى يسمى بالمعرفة
العقلية ، أو المجردة Abstract ونعتمد فيها على العقل أو وظائف المناطق
العليا بالمخ .

وهذان الجانبان لا انفصال بينهما بأى حال من الأحوال ، ولكنهما
يمثلان حلقتين متصلتين فى سلسلة المعرفة العلمية ، ومن خلال تفاعلها
تتقدم المعرفة وتتطور .

الجانب الحسى : تبدأ المعرفة دائماً بالخبرة الحسية فهي التي تزودنا بالخبرة المباشرة بموضوعات العالم الخارجى المحيط بنا والمستقل عنا . فأول انطباع عن العالم الخارجى يأتينا عن طريق أعضاء الحس فهي النافذة التي تدخل منها موضوعات العالم الخارجى الى عقل الانسان ، وأعضاء الحس جزء من الجهاز الحسى الذى يتكون من أعضاء الحس والأنسجة العصبية ومناطق الاحساس فى المخ . والمثيرات الخارجية التي توجد فى العالم الخارجى تحدث تهيجات فى عضو الحس تنتقل عبر الأنسجة العصبية الى المخ لتتحول الى احساسات . فالمثير الصوتى مثلا يحدث تهيجات بالأذن تنتقل الى المناطق الحسية بالمخ لتصبح احساسات صوتية . والمثير الضوئى يؤثر على العين ويتحول الى احساسات ضوئية ، وهكذا بالنسبة لباقي الحواس . وبدون هذه الخطوة الأولى والأساسية تصبح المعرفة مستحيلة .

وهذه الاحساسات حين تصل الى المناطق الحسية فى المخ لا تزيد عن كونها أشعة ضوئية مختلفة فى حالة الاحساسات الضوئية مثلاً ولا يكون لها أى معنى ، ولكن المخ يضيف عليها معنى ، أى يحولها من اجناسات الى مدركات *percepts* مثل الشجرة أو المنضدة أو السبورة . . الخ فالادراك يعنى اضافة معنى على مجموعة معينة من الاحساسات المباشرة . وهذه المدركات قابلة للاستعادة فى المخ مرة أخرى بعد حدوثها وفى حالة غيابها . وفى هذه الحالة تسمى أفكارا *Ideas* وأعضاء الحس تمكننا من ادراك موضوعات العالم المحيط بنا ولكن فى جوانبها الخارجية أو السطحية فقط فهي تمكننا مثلاً من ادراك ضوء منبعث من لمبة كهربائية ، ولكنها لا تمكننا وحدها من معرفة أن هذا الضوء ناجم عن سيل من الالكترونات تتحرك بسرعة معينة . فالجانب الحسى من المعرفة على الرغم من أنه أساس كل المعرفة الانسانية لا يمكننا وحده من التعرف على الطبيعة الداخلية للأشياء أى جوهرها ، أو بعبارة أخرى لا يمكننا وحده من التوصل الى القوانين . وهنا يأتى التفكير المجرد أو المنطقى ليلعب دوراً هاماً فى تعرفنا على جوهر الأشياء .

ويعتمد العلم على الجانب الحسى فى جمع المعلومات الموضوعية عن

الظواهرات التي يدرسها • قالعلماء يقومون بإجراء الملاحظات الدقيقة والمنظمة عن كافة الظواهرات التي يدرسونها ويعتمدون في ذلك أساسا على خبرتهم الحسية بها ، وهم يلجأون الى وسائل شتى لزيادة دقة هذه الخبرة الحسية مثل استخدام الأجهزة الدقيقة التي لا تعنى شيئا أكثر من كونها وسائل مساعدة لأعضاء الحس • فالترموومتر مثلا وسيلة مساعدة لاحتساس اللمس والميكروسكوب والتلسكوب وسيلتان مساعدتان لاحتساس النظر • وسماعة الطبيب وسيلة مساعدة لاحتساس السمع • وهكذا • • • ولكن المعرفة التي نستمدّها من هذه الخبرة الحسية تصبح عديمة القيمة تماما اذا لم تستغل بعد ذلك استغلالا عقليا يساعد العلماء على النفاذ الى جوهر الأشياء التي يدرسونها والتوصل الى القوانين التي تحكمها •

الجانب العقلي أو المجرد Abstract في المعرفة العلمية :

ان التفكير المجرد أو المنطقي صفة يتصف بها الانسان وحده بين الكائنات الحية نظرا لما يتمتع به من جهاز عصبي معقد ومتطور • ويعتمد هذا التفكير على استخدام الرموز Symbols بينما يعتمد الجانب الحسي على استخدام الاحساسات التي ترتبط بالأشياء الملموسة المباشرة • والرمز عبارة عن فكرة توجد في عقل الانسان يشير بها الى أشياء ملموسة توجد في العالم الخارجي • ولكن هذه الرموز تتدرج من الرموز البسيطة التي ترتبط مباشرة بأشياء خارجية الى رموز أكثر تعقيدا تشير الى ما هو مشترك بين مجموعة من الأشياء • فرمز « السيارة » مثلا يشير الى شيء معين ملموس أمامنا ، ولكن لفظ « وسائل النقل » يشير الى خاصية مشتركة بين مجموعة من الأشياء تبدو ظاهريا شديدة الاختلاف (الدواب – السيارات – القطارات – الطائرات – السفن) ، وأول وأبسط شكل من أشكال الرمز هو « المدرك » الذي نصور به الشيء الذي نلاحظه في عقلنا في خصائصه الخارجية فقط • ولكن هناك اشكالا أخرى من الرموز المعقدة تساعدنا على تصوير الأشياء في جوهرها ، وتعرف هذه الرموز بالمفاهيمات Concepts والمفاهيمات تشكل العناصر الرئيسية في المعرفة العقلية أو في النظرية العلمية • فأى نظرية علمية تتكون من عدد هائل من هذه المفاهيمات التي ترتبط مع بعضها البعض

بشكل متناسق فى شكل فروض أو قوانين أو تعميمات . انظر مثلا الى هذه العبارة : المعادن تتمدد بالحرارة وتتكماش بالبرودة . تتكون هذه العبارة من مجموعة من المفهومات أو الرموز المترابطة التى تصور الخصائص الجوهرية لعدد لا نهاية له من الأشياء التى تمت ملاحظتها باستخدام أعضاء الحس . ولناخذ مفهوما واحدا منها وليكن المعادن . هذا المفهوم فى حد ذاته مركب ويتضمن عددا من المفهومات الأخرى ، مثل الحديد والنحاس والألمنيوم . . . الخ ومفهوم الحديد يشير الى مجموعة من المدركات التى توجد فى الطبيعة (قطع من مادة معينة) ولكنه يركز على الخصائص الجوهرية لها ويهمل كافة الخصائص الثانوية أو السطحية مثل الأشكال المختلفة التى توجد عليها هذه المادة وبالمثل يشير مفهوم المعادن الى الخصائص الجوهرية المشتركة بين أنواع شتى من المادة ويهمل الخصائص الثانوية أو السطحية لها مثل اللون أو الشكل .

والعلماء (وكذلك الانسان بصفة عامة) يتوصلون الى المفهومات عن طريق عمليتين أساسيتين يتمان فى العقل هما : التحليل Analysis وهى العملية التى نقسم بها الظاهرة التى نلاحظها الى عناصرها أو جوانبها المكونة لها من أجل فهم أهمية كل جانب فى الظاهرة واختيار الجوهرى منها والتأليف أو التركيب Synthesis وهى العملية التى نقوم فيها بتجميع أو تركيب الأجزاء أو العناصر الهامة فى الظاهرة سويا . فمفهوم « الانسان » مثلا تم التوصل اليه عن طريق تحليل الخصائص أو الجوانب التى توجد لدى أفراد متعددين : مثل اللون وشكل الجسم والسن والنوع ومكان الإقامة والسلوك . . . الخ . ثم اختيار أهم هذه الجوانب وأكثرها جوهرية والتى تميز بين الانسان وغيره من الكائنات الحية مثل التفكير أو اللغة أو العقل والقدرة على العمل ، ثم تركيب هذه الخصائص الجوهرية سويا وابتداع رمز يشير اليها هو « الانسان » ونلاحظ هنا أنه قد تم إهمال الخصائص الثانوية والسطحية التى يختلف فيها بنو البشر عن بعضهم البعض .

والمفهومات على الرغم من أنها نتاج للتفكير العقلى أو المجرد

الا أنها مستمدة أساسا من ملاحظة الواقع أو من الخبرة الحسية • وعلى ذلك فانه كلما ازدادت خبرة الانسان وتعمقت بالعالم المحيط به ازداد عدد المفاهيم لديه •

ونظرا لأن كل علم من العلوم يقوم بدراسة نوع معين من الظواهر الطبيعية فان كل علم تصبح له مفاهيمه الخاصة به • ولما كان العلم يتصف بالدقة فان كل مفهوم من المفاهيم التي يستخدمها لابد أن يعرف بدقة عن طريق تحديد ما يشير اليه من العلاقات بين المدركات وبذلك يسهل الاتصال بين العلماء •

وكل أشكال المعرفة العقلية أو المجردة تتكون من مفاهيم فى علاقات مترابطة فيما بينها • ومن هذه الأشكال :

١ - الأحكام أو القضايا :

وهى عبارة عن تقارير أو تعبيرات عن أشياء تمت ملاحظتها وتتضمن مجموعة من المفاهيم المترابطة ، مثل قولنا : الشمس تشرق من جهة الشرق ، أو يمر الكائن الحى بمراحل نمو مختلفة ، أو تسقط الأمطار شتاء •

٢ - الفروض :

وهى عبارة عن تقارير عن علاقات محتملة بين ظاهرات أو أحداث مختلفة ولكن لم يتم التأكد منها بالأدلة القاطعة ، مثال ذلك : « تصنيع الريف يؤدي الى انخفاض نسبة جرائم النار » - أو « توجد حياة فوق سطح المريخ » • ويلاحظ هنا أن الفرض يتكون من عدة مفاهيم أيضا ، كما أنه يكون دائما مستندا على ملاحظات عديدة سابقة ويدعونا الى اجراء مزيد من الملاحظات •

٣ - القانون :

يشير الى علاقة ثابتة بين متغيرين أو أكثر فى ظروف معينة ، وهذه العلاقة قد امكن التأكد منها بالأدلة • وهو مثل الفرض يتضمن نوعا من التعميم الا أن التعميم فى حالة الفرض يكون احتماليا فاذا ما وجدت

أدلة تؤكده ، تحول الى قانون • ويعبر القانون عن نظام محدد من الروابط السببية والثابتة بين المظاهرات وعن العلاقات الجوهرية بينها والتي يتسبب فيها تغير بعض الظواهر فى تغير محدد لظواهر أخرى • وتتخذ القوانين أشكالا مختلفة تتدرج من الشكل البسيط الى الشكل المعقد • ويمكننا التمييز بين الثلاثة أنواع من القوانين •

١ - القوانين النوعية أو الجزئية •

٢ - القوانين العامة التى تتعلق بمجموعات كبيرة من المظاهرات •

٣ - القوانين الكلية أو الشمولية التى تتعلق بالكون بأسره •

٤ - النظرية :

يمكننا تعريف النظرية بشكل عام بأنها نسق من المعرفة المعممة تفسر الجوانب المختلفة للواقع • وتختلف النظرية العلمية عن غيرها من النظريات فى أنها تخضع للتحقق من صدقها عن طريق الملاحظة الأمبيريقية (التجريبية) • وتمثل النظرية أعلى درجة من درجات التجريد Abstraction والتعميم Generalization فى العلم • وتفسر النظرية القوانين تماما مثلما تفسر القوانين الوقائع Facts التى تمت ملاحظتها وتوجد العلاقة بينها • كما أنها تساعد العلماء فى نفس الوقت على اكتشاف قوانين جديدة أو وضع فروض لاختبار صدقها •

ويرى جدعون جوبرج فى كتابه مناهج البحث الاجتماعى (٥) أن للنظرية العلمية ثلاثة أبعاد رئيسية :

١ - الشكل أو البناء المنطقى •

٢ - المضمون ، أى التعميمات المتعلقة بطبيعة المظاهرات التى تدرسها •

٣ - الافتراضات المتعلقة بالمنهج الذى يستخدم فى جمع الوقائع وطبيعة المادة التى يدرسها العلم •

وأى نظرية من ناحية الشكل أو البناء المنطقى تتكون حسبما يقول تيماشيف فى كتابه نظرية علم الاجتماع (٦) من مجموعة من القضايا تتسق كل منها مع الأخرى وتتنظم بشكل معين يسمح باشتقاق تعميمات منها بطريقة استنباطية كما تسمح باستكشاف الطريق للملاحظات أبعد مدى وتعميمات تنمى مجال المعرفة .

٣ - العلاقة بين الجانبين الحسى والعقلى فى العلم :

من عرضنا السابق لطبيعة الجانب الحسى والجانب العقلى فى العلم يتضح أن هذين الجانبين لا انفصال بينهما على الإطلاق وأن العلاقة بينهما دائما علاقة جدلية . فالمفاهيم والأحكام والقوانين والنظريات كلها قائمة فى الأساس على ملاحظات حسية لمعطيات الواقع المادى الذى يدرسه العلم، كما أن هذه الجوانب العقلية جميعها ترشد العالم بعد ذلك عند أجرائه لمزيد من الملاحظات العلمية باستخدام أعضاء الحس ، وكلما تطورت المعرفة العقلية كلما أمكن للعلماء جمع حقائق جديدة ، وكلما جمعت حقائق جديدة كلما أدى ذلك الى تطوير المعرفة العقلية والوصول الى نظريات أكثر اتساعا وشمولا وصدقاً . ولما كانت النظرية العلمية هى أكثر عناصر الجانب العقلى من العلم تجريدا أو تعميما فانه يجدر بنا أن نتحدث عن أهم وظائف النظرية فى العلم .

يحدد ويليام جود Good وبول هات Hatt فى كتابهما مناهج البحث الاجتماعى (٧) وظائف كل من النظرية (الجانب العقلى) والوقائع (الجانب الحسى) فى العلم على النحو التالى :

أولا : وظائف النظرية فى العلم :

١ - تحديد الاتجاه الأساسى للعلم عن طريق تحديد نوع المادة أو الوقائع التى يجب جمعها عن الظاهرة المدروسة . فلو كانت الظاهرة موضوع الدراسة مثلا هى كرة القدم ، فان النظرية الاقتصادية سوف

(٦) نيقولا تيماشيف - مرجع سابق ص ١٥ .

(٧) Good and Hatt p. Methods in Social Research (New York, Mc Graw-Hill, 1952) pp. 8 - 12.

توجه العالم لجمع حقائق عن أنماط العرض والطلب التي تتصل بتسويقها في الوقت الذي تحدد النظرية الكيماوية جمع حقائق عن تكوين الكرة من الناحية الكيمائية وتوجه النظرية الفيزيائية العالم نحو حقائق عن كتلة الكرة والضغط المختلفة التي تؤثر على ثقلها وسرعتها . أما النظرية الاجتماعية فهي توجه العالم لجمع حقائق تتعلق بالأنشطة الاجتماعية المتصلة بالكرة ونوعية التنظيمات الاجتماعية الخاصة بهذا النشاط وهكذا .

٢ - تقديم اطار تصوري Conceptual Scheme يسترشد به العالم عند جمعه للحقائق . وهذا الاطار يساعد العالم على ادراك ما بين الوقائع من علاقات ويرشده الى نوعية الوقائع التي يتعين عليه جمعها .

٣ - تلخيص الوقائع وتلخيص العلاقات بينها : ان كل قانون وكل فرض بل وحتى كل مفهوم تتضمنه النظرية ليس الا تلخيصا او تكثيفا هائلا لعدد لا نهاية له من الملاحظات التي قام العلماء باجرائها . فمفهوم الخلية الحية مثلا يلخص في كلمة واحدة ملاحظات عديدة أجريت عن شكل او صورة معينة من المادة ومفهوم الأسرة ينعسل نفس الشيء ، والقوانين تلخص العلاقات المتعددة بين الظواهرات موضوع الدراسة ، والنظرية تلخص العلاقات بين القوانين ، وبدون عملية التلخيص والتنظيم هذه يتعذر تماما الايام بمكتشفات العلم او استنتاج أى شيء منها .

٤ - التنبؤ بالوقائع : اذا كانت النظرية تلخص الوقائع وتقرر وجود نظام عام يربط بين الملاحظات التي يتوصل اليها العالم فانها تصبح أيضا تنبؤات بما سيحدث في المستقبل . فقولنا مثلا أن المعادن تتمدد بالحرارة يعنى في نفس الوقت أنه اذا لم تترك مسافات مناسبة بين قضبان السكك الحديدية فانها سوف تنقوس نظرا لتمددتها . وقولنا أن البعوض ينقل مرض الملاريا يعنى في نفس الوقت تنبؤا بأن نسبة هذا المرض ستقل اذا ردمنا البرك والمستنقعات التي يتوالد فيها البعوض . وهكذا .

٥ - تحديد أوجه النقص في معرفتنا . اننا لا نستطيع أن نعرف ما ينقصنا في أى مجال الا اذا عرفنا أولا ما هو متوفر لدينا ، واذا كانت

المعرفة المتوفرة لدينا من الكثرة فانه يصعب علينا أن نعرفها جيدا . ولما كانت النظرية تلخص وتنظم المعرفة المكتسبة فانها تساعدنا على التعرف على ما ينقصنا من معرفة وبالتالي ترشدنا الى الجوانب التى يجب أن نركز بحثنا عليها .

٦ - النظرية تقوم بمهمة ترشيد التطبيق . أن الغاية النهائية للعلم هى التطبيق ، بمعنى أن العلماء يدرسون ظاهرات الكون ويحاولون التوصل الى القوانين التى تحكمها من أجل استخدام نتائج دراساتهم فى التعامل مع الطبيعة والسيطرة عليها . والنظرية العلمية بما أنها تلخيص لكل الحقائق التى اكتشفها العلماء تقوم بمهمة ترشيد أى توجيه التطبيقات العلمية فى مجالات الحياة المختلفة . فقوانين الطفو مثلا ساعدت على بناء السفن ونظرية الجاذبية ساعدت على بناء الطائرات ، وهكذا .

والعلاقة بين الممارسة أو التطبيق من جهة وبين النظرية العلمية من جهة أخرى علاقة متبادلة . فمحك صدق النظرية هو نجاح ما تشير اليه من تطبيقات عملية ، كما أن التطبيقات العلمية والممارسة ، تدعو العلماء الى استكمال أو تعديل نظرياتهم .

ثانيا : وظائف الوقائع فى العلم . ان النظرية (التى تمثل أعلى مراحل الجانب العقلى فى العلم) والوقائع (التى يمثل وصفها وملاحظتها الجانب الحسى فى العلم) يمثلان كما سبق أن ذكرنا وحدة عضوية . ولا وجود لأحدهما دون الآخر . فالمعرفة العقلية أو المجردة مستحيلة دون معرفة حسية ذلك أن المعلومات التى تمدنا بها أعضاء الحس هى المادة الأولية أو الأساسية التى تتكون على أساسها المفاهيم (العناصر أو

المكونات الأساسية للمعرفة العقلية) كما سبق أن ذكرنا . كما أن المعرفة الحسية وحدها لا يمكن أكتسابها دون توجيه عقلى . فالمعرفة العقلية تضيف معنى أعمق على المعلومات التى تزودنا بها أعضاء الحس وتمكننا من معرفة جوهر الظاهرات التى ندرسها . ومثلما بينا دور النظرية فى العلم فاننا يجب أن نبين أيضا دور الوقائع فى العلم .

ان الوظيفة الأولى للملاحظة الوقائع هى المساعدة على تكوين النظرية،

فمن خلال الملاحظة الحسية للظواهرات يمكن تكوين المفهومات فالفروض
فالقوانين فالنظريات . فالنظرية مستحيلة دون ملاحظة حسية لوقائع
الكون . ولكن يجب ألا ننسى أننا فى جمعنا للوقائع نسترشد دائما بما
سبق صياغته من نظريات .

والوظيفة الثانية للملاحظة الوقائع هى تعديل أو إعادة صياغة النظرية
ذلك أن عملية البحث العلمى عملية دائمة ومستمرة ، واكتشاف وقائع
جديدة يؤدى باستمرار الى تعديل النظرية أو إعادة صياغتها لكى تتلاءم
مع الوقائع الجديدة التى تم اكتشافها .

أما الوظيفة الثالثة للملاحظة الوقائع فهى توضيح النظرية وإثبات
صدقها ، فكلما توصل العلماء الى اكتشاف وقائع جديدة أدى ذلك
الى إثبات صحة النظرية .

وتتضح الوحدة العضوية بين النظرية أو المعرفة العقلية من جهة
والوقائع أو المعرفة الحسية من جهة أخرى فى العلوم الطبيعية أكثر منها
فى العلوم الاجتماعية ، فما زالت العلوم الاجتماعية تعاني من الانفصال
بين الجانبين . وسوف نتحدث عن ذلك بالتفصيل عند تناولنا للنظريات
الاجتماعية . وسنبين أسباب هذا الانفصال بين جانبى المعرفة العلمية فى
العلوم الاجتماعية ونتأجه بالنسبة لهذه العلوم .

الفصل الثاني

النظرية الاجتماعية بين الواقع والممكن

ان ما سبق لنا الحديث عنه فيما يتعلق بمكونات العلم والعلاقة العضوية بين الجانبين الحسى والمعرفى والاعتماد المتبادل بين النظرية من جهة والوقائع من جهة أخرى إنما يمثل الصورة النموذجية أو المثالية للمعرفة العلمية بصورة عامة . ولكن هذه الصورة غير متحققة فى ميدان علم الاجتماع بصفة خاصة . وقد قرر عالم الاجتماع الأمريكى الشهير رايت ميلز فى كتابه « التصورات السوسيولوجية (١) » ، أن هذا العلم يوجد به انقسام وعدم تكامل بين المعرفة الحسية من جهة والمعرفة العقلية من جهة أخرى . فهناك بين علماء الاجتماع من يقتصر عملهم على مجرد جمع وقائع جزئية عن الحياة الاجتماعية دون أن يؤدى جمع هذه الوقائع الى صياغة نظرية عامة عن المجتمع - ودون أن يسترشدوا فى جمع الوقائع بنظرية عامة . وهناك فريق آخر من علماء الاجتماع يقومون بصياغة نظريات عامة عن المجتمع تتصف بالصيغة التأملية أو الكتبية دون أن تعتمد هذه النظريات على وقائع تمت ملاحظتها والتأكد من صحتها . وقد أطلق رايت ميلز على الفريق الأول أصحاب اتجاه الامبيريقية أو التجريبية المجتزأة *abstracted empiricism* وعلى الفريق الثانى أصحاب اتجاه النظريات المتضخمة *grand theories* وبين ميلز فى كتابه عقم الاتجاهين وكيف أن كلا منهما يؤدى الى عرقلة نمو علم الاجتماع ويعوق الوصول الى الفهم العلمى السليم للظواهر الاجتماعية .

وقد كان من جراء ذلك ما نجده الآن فى ميدان علم الاجتماع من

(١) Mills, C.W. The Sociological Imagination. (London, Oxford University Press 1969).

تعدد فى النظريات • وعلى عكس ما نجده فى العلوم الطبيعية من وحدة النظرية • وإذا كان أى علم من العلوم يتصف بالوحدة بين الجانبين الحسى والعقلى فإن هذا الانقسام الواضح فى علم الاجتماع انما يدل على أنه لم يبلغ فى الواقع بعد المستوى المطلوب • وأن نظرياته التى لا تدعمها الحقائق لا تزيد عن كونها تأملات فكرية ولا ترقى الى مستوى النظريات العلمية • ولا يجب أن يتبادر الى أذهاننا أن هناك استحالة فى الوصول الى نظريات علمية فى ميدان علم الاجتماع • فذلك ممكن تماما لأن الظاهرات الاجتماعية التى يدرسها هذا العلم ظاهرات طبيعية أى توجد فى الطبيعة ويمكن اخضاعها تماما للدراسة بالمنهج العلمى وبالتالى يمكن الوصول الى القوانين التى تحكمها وصياغة نظرية عامة عنها • ولكن عجز علم الاجتماع عن تحقيق ذلك حتى الآن يرجع الى أسباب اجتماعية وأيديولوجية تناولها الكثيرون من علماء الاجتماع بالشرح وبالتفصيل وسوف نعرضها بعد أن نشرح الموقف الراهن للنظرية الاجتماعية •

معنى النظرية الاجتماعية :

تتفق النظرية الاجتماعية مع غيرها من النظريات العلمية من حيث بنائها ووظائفها فى العلم ولكنها تختلف عنها من حيث المضمون • فالنظرية الاجتماعية تهدف الى تقديم تفسيرات وتصورات هامة للحياة الاجتماعية من حيث تطورها ونشأتها وتغيرها أو من حيث علاقة كل جانب من جوانب هذه الحياة بغيره من الجوانب ، تماما مثلما تهدف النظرية البيولوجية الى تقديم صورة موضوعية عن نشأة الحياة وتطورها وعناصرها ومكوناتها والعلاقات بين جوانبها المختلفة • ومثلما يوجد فى علم الحياة نظرية عامة عن الحياة بأسرها ونظريات نوعية عن كل شكل من أشكال هذه الحياة ، يفترض أن يوجد فى علم الاجتماع نظرية عامة ونظريات نوعية عن كل شكل من أشكال الحياة الاجتماعية •

وعلى الرغم من اختلاف علماء الاجتماع حول معنى النظرية الاجتماعية وأهدافها وحدودها إلا أن تحليل النظريات الاجتماعية فى

الماضى والحاضر يدل كما يقرر تيماشيف (٢) على أنها تدور حول عدة تساؤلات عامة وأساسية أهمها -

١ - ما المجتمع وما الثقافة ؟

٢ - ما الوحدات الأساسية التى ينبغى أن نحلل المجتمع والثقافة اليها ؟

٣ - ما طبيعة العلاقة بين المجتمع والثقافة والشخصية ؟

٤ - ما العوامل التى تحدد حالة المجتمع والثقافة وتغيرهما ؟

٥ - ما علم الاجتماع وما مناهجه الملائمة ؟

ويحدد رايت ميلز ثلاثة أسئلة رئيسية يجب أن تصال المنظرية الاجتماعية الاجابة عليها (٣) :

١ - ما طبيعة البناء الاجتماعى للمجتمع الكلى ؟ وما هى مكوناته الأساسية وكيف ترتبط هذه المكونات بعضها ببعض ؟ وكيف يختلف هذا البناء عن غيره من الأبنية ؟ وما الدور الذى يلعبه أى عنصر داخل هذا البناء ذاته بالنسبة لبقاء هذا البناء وبالنسبة لتغيره ؟

٢ - ما موضع هذا المجتمع فى التاريخ الانسانى ؟ وما هى الآليات تغيره ؟ وما موضع هذا المجتمع فى تطور الانسانية ككل وما الدور الذى يلعبه فى ذلك ؟ وكيف يؤثر أى عنصر تدرسه على الفترة التاريخية التى يتحرك فيها وكيف يتأثر بها . وما هى الخصائص الجوهرية لهذه الفترة ؟ وكيف تختلف عن غيرها من الفترات ؟ وما هى خصائصها المميزة فى العملية التاريخية ؟

٣ - ما هى نوعيات الرجال والنساء التى لها السيادة فى هذا المجتمع فى تلك الفترة ؟ وما هى النوعيات التى فى سبيلها الى السيادة ؟ كيف يتم اختيارهم وتكوينهم وتحريرهم أو قمعهم ؟ وكيف يزداد وعيها أو كيف يتم تزييف هذا الوعى حين يصابوا بالتبلىد بدلا من الحساسية ؟

(٢) نيقولا تيماشيف : نظرية علم الاجتماع - مرجع سابق ص ١٨ .
(٣) Mills, C.W. Opt. cit. pp.

ما أشكال الطبيعة الانسانية التى يفصح عنها السلوك الذى نلاحظه فى هذا المجتمع وفى هذه الفترة ؟ وما مغزى كل عنصر نقوم بدراسته فى المجتمع بالنسبة للطبيعة الانسانية ؟

ويرى رايت ميلز أن هذه الأسئلة هى التى اهتم بها أفضل علماء الاجتماع عند معالجتهم لأى مسألة اجتماعية . فهى تمثل المحاور الأساسية لدراسة الانسان والمجتمع ذلك أن الوظيفة الأساسية للنظرية الاجتماعية المبدعة هى الانتقال من منظور الى آخر ، أى من المنظور السياسى الى السيكولوجى ومن دراسة اسرة واحدة الى دراسة الميزانيات القومية فى بلدان العالم ، ومن المدرسة الى الجيش ومن صناعة البترول الى الشعر المعاصر . ان صاحب النظرية يجب أن يتمتع بالقدرة على أن يربط بين أكثر المسائل عمومية وبين أكثرها شخصية وفردية وأن يكتشف العلاقة بين الاثنين .

من ذلك نرى أن الوظيفة الأساسية للنظرية الاجتماعية هى التصوير الموضوعى (أى المستند على الأدلة) للعلاقات المتبادلة بين جوانب النشاط الاجتماعى للناس بوصفهم أعضاء فى مجموعات اجتماعية تتفاعل مع بعضها البعض داخل تكوينات اقتصادية اجتماعية أكبر وأشمل (مثل التكوين الاجتماعى والاقتصادى الاقطاعى أو الرأسمالى أو الاشتراكى) ، وللتطور التاريخى لهذه التكوينات وتتضمن القوانين التى تحكم الحياة الاجتماعية فى بنائها ووظيفتها وتطورها والقوانين الخاصة التى تحكم كل جانب من جوانبها على حدة .

واقع وامكانية النظرية الاجتماعية :

ولكن هل توصل علم الاجتماع الى مثل هذه النظرية ؟ الأجابة بالنفى . وهل من الممكن الوصول اليها ؟ الاجابة بالايجاب ، فقد سبق أن ذكرنا أن الظاهرات التى يدرسها علم الاجتماع ظاهرات طبيعية تخضع للدراسة العلمية المنهجية وبالتالي فمن الممكن الوصول الى نظرية علمية صادقة عن المجتمع مثلما هو الحال بالنسبة للعلوم الأخرى التى توفرت فيها هذه النظرية مثل علم الحياة وعلم الفيزياء .

ولكن لماذا لم يتم التوصل الى هذه النظرية العلمية فى ميدان علم الاجتماع على الرغم من مرور حوالى ١٧٠ عاما على اكتساب دراسة المجتمع عنوان العلم ، وعلى الرغم من أن التفكير فى المجتمع قديم قدم البشرية ؟

لكى نستطيع الاجابة على هذا السؤال علينا أن نتوقف قليلا لندرس الظروف الفعلية التى تحيط بالعلم وتشجعه على التطور أو تعرقل تطوره . ذلك أن العلم قد وجد دائما فى مجتمع وكانت بينه وبين هذا المجتمع علاقات تأثير متبادل . ولكى نوضح الظروف الفعلية التى تعوق تطور النظرية الاجتماعية وتعوق وصولها الى فهم موضوعى ومتكامل للظواهر الاجتماعية يجب أن نشير الى الظروف الاجتماعية الفعلية التى عاقت تطور العلوم الفيزيائية والبيولوجية من قبل والى ما طرأ على هذه الظروف من تغير أدى الى تطور ونمو هذه العلوم ثم تحاول التعرف على الظروف الاجتماعية المرتبطة بنشأة علم الاجتماع وكيف تشجع هذه الظروف على عرقلة نمو النظرية الاجتماعية أو على نموها (٤) .

يدلنا التاريخ على أن المكتشفات العلمية الجديدة فى ميادين العلوم الفيزيائية والبيولوجية كانت تلقى فى أوروبا أشد المعارضة والمقاومة مما أثر على تقدمها وأعاق نموها لفترة طويلة من الوقت ، والأمثلة على ذلك كثيرة ومنها ما تعرض له عالم الفلك والرياضة والطبيعة الايطالى الشهير جاليليو جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢م) من سجن واضطهاد من جانب محاكم التفتيش الكاثوليكية التى نشطت فى أوروبا وخاصة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر وكانت مهمتها اكتشاف الكفرة ومعاقبتهم بالتعذيب والسجن والاعدام حرقا ، وقد أجبرت هذه المحاكم التفتيشية الكاثوليكية جاليليو على انكار ما نشره فى إحدى مقالاته عام ١٦٣٢ يؤيد فيه نظرية مؤسس علم الفلك الحديث نيكولا كوبرنيكس (١٤٧٣ - ١٥٧٣) بأن

(٤) انظر فى ذلك :

J. D. Bernal : Science in History. (New York. Hawthorn Books. 1965).

الشمس هي المركز وأن الأرض تدور حولها . لقد كانت الكنيسة الأرثوذكسية في ذلك الوقت متحالفة مع الاقطاع الأوربي وكانت تسيطر على عقول الناس وتنتشر بينهم الخرافات التي تتفق ومصالح الاقطاع ، ولهذا كانت تحارب القلم والفكر العلمي في كافة صورته لأن هذا الفكر كان سيسقط الفكر الزائف الذي كانت الكنيسة ، والاقطاع يروجانه . وكانت الكنيسة تدرك أن كشف الأكاذيب والخرافات وفضح زيف الفكر الذي تروج له من شأنه أن يؤدي إلى الاطاحة بمصالحها ومصالح الاقطاع . ولكن مع قدوم عصر التنوير ومع ما طرأ على المجتمع الأوربي من تحول من مجتمع زراعي اقطاعي إلى مجتمع صناعي رأسمالي ومع ما حدث من ثورات بورجوازية أهمها الثورة الفرنسية . ونظرا لحاجة الرأسمالية الناشئة إلى العلم والمكتشفات العلمية من أجل تطوير التكنولوجيا وزيادة الانتاج وتحسينه وتحقيق المزيد من الأرباح - كل ذلك أدى إلى تشجيع العلم والعلماء الطبيعيين على الانطلاق والتقدم والنمو المتزايد ، لدرجة أن ما حققه العلم الطبيعي خلال القرن الواحد من الزمان يفوق ما حققته البشرية خلال تاريخها الطويل بكثير .

كانت دراسة الظواهر الفيزيائية والبيولوجية أذن دراسة علمية والوصول إلى القوانين التي تحكمها والتنبؤ بها والتحكم فيها ممكنة دائما ولم تكن مستحيلة ، ولكن واقع العلوم الفيزيائية والبيولوجية فيما قبل عصر التنوير والثورة الصناعية كان يتناقض تماما مع هذه الامكانية ، ولكن مع تغير الظروف الاجتماعية الفعلية (والتي ساعد العلم أيضا على تغييرها) أمكن أن تتحول هذه الامكانية إلى واقع فعلى وحقت العلوم الفيزيائية والبيولوجية تقدما مذهلا في كافة المجالات .

ترى هل هناك وجه شبه في ذلك بين العلوم الفيزيائية والبيولوجية من جهة والعلوم الاجتماعية من جهة أخرى ؟ بعبارة أخرى هل هناك ظروف اجتماعية حالت وما زالت تحول دون انطلاق العلوم الاجتماعية وتقديمها وكشفها عن قوانين الحياة الاجتماعية والتوصل إلى نظريات اجتماعية صادقة ؟

الاجابة على ذلك بالايجاب قطعا فهناك ظروف اجتماعية حالت
وما زالت تحول دون تقدم العلوم الاجتماعية .

معوقات تطور النظرية الاجتماعية :

من هذه الظروف أن اهتمامات المجتمعات بصفة عامة كانت تنصب
على البيئة الطبيعية لكي يستطيع الانسان أن يحافظ على بقائه وأن يتغلب
على العوامل التي تهدد هذا البقاء وبالتالي فإن اهتمام الانسان انصب
أولا على دراسة البيئة الطبيعية ولذلك تطورت العلوم الفيزيائية قبل تطور
العلوم الاجتماعية ، أن الحاجات الفعلية والمادية والمباشرة للمجتمعات
الانسانية أدت الى أن تولي هذه المجتمعات اهتماماتها الى السيطرة على
البيئة الطبيعية أولا .

وقد ظهرت العلوم الاجتماعية تباعاً واستقلت عن الفلسفة منذ أواخر
القرن التاسع عشر ، ولكنها في رأي الكثيرين ظهرت منذ البداية كعلوم
زائفة ليست مهمتها الحقيقية كشف الحقائق الاجتماعية والوصول الى
فهم علمي لها بقدر ما كانت مهمتها اخفاء هذه الحقائق أو تشويهها لسبب
بسيط هو أن الرأسمالية الناشئة كانت ترى من مصلحتها كشف الحقائق
فيما يتعلق بالكون المادي لاستغلالها في الانتاج الرأسمالي وتطويره ،
ولكن لم يكن من مصلحتها كشف الحقائق الاجتماعية لأن من شأن ذلك أن
يكشف أيضا عن استغلالها للطبقات العاملة ، ذلك الاستغلال البشع الذي
صوره الكثير من الأدباء والفكرين في ذلك الوقت . ومثلما احتضنت
الكنيسة والاقطاع العلماء الفيزيقيين والبيولوجيين الذين يشوهون الحقائق
المتعلقة بالكون المادي بما يتفق وأفكارهم ومصالحهم واضطهدت كل من
حاول مهاجمة هذه الأفكار وتقديم فهم علمي حقيقي للكون المادي احتضنت
الرأسمالية الفكرين الاجتماعيين (أمثال أوجست كونت وهريبرت سبنسر
وماكس فيبر وباريتو) لأنهم أخذوا على عاتقهم مهمة ترويج مبادئ
وأفكار الرأسمالية (٥) . ولما كان الجو السائد آنذاك هو الجو العلمي

(٥) يجمع الكثير من المؤلفين على أن نشأة للنظرية الاجتماعية كانت نشأة محافظة
ومضادة لفلسفة التنوير في أوروبا وأنها سخرت لخدمة البورجوازية وتبرير سيطرتها للسياسية
والاقتصادية . انظر في ذلك :

فقد أضفوا على أفكارهم الصفة العلمية وتسببوا بالعلوم الطبيعية في دراساتهم من أجل اكساب هذه الافكار قوة أكبر في الاقناع ، كما حاربت الرأسمالية الأفكار العلمية الاجتماعية واضطهدت كل من يروجون لها وأجبرت البعض منهم على انكارها بل ونفى الصفة العلمية عنها . ولكن مثلما لقيت العلوم الفيزيائية والبيولوجية دفعة قوية مع تغير الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ومثلما ساهمت نفس هذه العلوم في أحداث هذه التغيرات يحدث نفس الشيء الآن بالنسبة للعلوم الاجتماعية . فمع زيادة وعى وقوة الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية ومع ادراك المثقفين والعلماء للتغيرات التي تطرأ على المجتمع الرأسمالي ومع زيادة قوة وفعالية الحركات الثورية داخل هذه البلدان وفي البلدان المستعمرة ومع انكشاف زيف الفكر الذي تروجه الرأسمالية - مع ذلك كله بدأت في اواخر الستينات من القرن العشرين تيارات واتجاهات جديدة في علم الاجتماع تصارع من أجل التقدم العلمى الحقيقى لعلم الاجتماع بل للعلوم الاجتماعية بأسرها والى كشف الحقائق والقوانين الاجتماعية والى استخدام هذا الفهم العلمى فى أحداث تغيرات تقدمية فى المجتمع من أجل صالح الانسان ، واتخذت هذه التيارات لنفسها تسمية جديدة هي الراديكالية .

فهناك علم الاجتماع الراديكالى وعلم النفس الراديكالى ، وعلم الاجرام الراديكالى الخ . . . ومثلما هاجمت العلوم الفيزيائية والبيولوجيا (الراديكالية) فى القرون الماضية الفكر الخرافى الذى كان يسود هذه العلوم ودعت الى تغيير جذرى فيه بناء على ما توفر لها من معلومات وحقائق عن الكون المادى ، تدعو هذه العلوم الاجتماعية الراديكالية الى

Irving Zeilin : Ideology and the Development of Sociological Theory (Prentice-Hall, New-Delhi, 1969).

Robert Nisbet : The Sociological Tradition. London, 1970.

T.B. Bottomore : Sociology as Social Criticism. London, George Allen and Unwin. 1975.

وبالعربية انظر :

د . عبد الباسط محمد حسن . علم الاجتماع (القاهرة . مكتبة غريب ١٩٧٧) .

أحداث تغير جذرى فى مضمون ومسلمات العلوم الاجتماعية بل وأحداث تغيرات جذرية فى بناء المجتمع بأسره ، وتلقى هذه التيارات العملية الجديدة مقاومة شديدة من جانب الرأسمالية ومن جانب العلماء الذين يدافعون عنها ، ولكن هذه المقاومة وذلك الاضطهاد الذين يتعرضون له يختلفان فى أساليبيهما عما كان سائدا فى عصور ما قبل النهضة ويتخذ أشكالا مختلفة منها استخدام المؤسسات العلمية ذاتها كوسيلة للضغط والارهاب .

ونحن نعلم أن الباحث العلمى يحتاج لمصادر لتمويل بحوثه ، وهذه المصادر إما أن تكون الحكومات أو المؤسسات الاقتصادية والصناعية التى تملك المال فى المجتمعات الرأسمالية . وموقف الحكومات والمؤسسات فى هذه البلدان موقف معروف ومحدد ، فهى تقوم بتمويل البحوث العلمية وتشجيع العلماء الذين تؤدي جهودهم الى فائدة سريعة ومباشرة لها ، وعملية تمويل العلم أصبحت فى العصر الحديث أشبه ما يكون بالاستثمار بحيث نجد الآن فى معظم البلدان الصناعية أقساما للأبحاث العلمية داخل الشركات الكبيرة والمصانع تستخدم العلماء وتنفق عليهم ، بل إن الجامعات ومراكز البحوث فى الولايات المتحدة مثلا تحصل على ميزانية تمويل البحوث العلمية فيها من الشركات الكبيرة سواء فى شكل أموال هبات أو منح دراسية لأعداد العلماء أو تأتي من الحكومات .

ولو قارنا الأموال التى تصرف على إجراء البحوث العلمية الفيزيائية والبيولوجية والاجتماعية فى البلدان الرأسمالية التى نشأت فيها العلوم الاجتماعية أساسا لوجدنا أن الغالبية العظمى من هذه الأموال توجه الى فروع معينة من العلوم الطبيعية أكثر من غيرها لأن لها تطبيقات استثمارية أو حربية أكثر من غيرها ، يتضح ذلك من ازدهار بحوث استخدام الذرة فى الحرب أكثر من بحوث استخدامها فى السلم ، ونجد نفس الشيء فى العلوم البيولوجية حيث نجد أموالا هائلة تنفق على استخدام الميكروبات فى الحروب بينما ترصد مثل هذه الأموال لعلاج الأمراض المستعصية . أما الأموال التى ترصد للبحوث الاجتماعية فإنها توجه فى معظمها لتلك البحوث الجزئية التى تخدم الجهات الممولة بشكل مباشر ، ومن أمثلتها بحوث الرأى العام حتى يمكن التأثير عليه لصالح الجهات السياسية

والاقتصادية وبحوث المعنوية للعمال من أجل جعلهم يقدمون انتاجا أكثر لأصحاب الأعمال في مقابل الأجر الذى يحصلون عليه ، ولكن من يحاول أن يجرى بحوثا لكشف الحقائق الاجتماعية الأخرى لا يجد أى تشجيع بل ربما طرد من عمله أو حرم الامتيازات التى يتمتع بها زملاؤه الذين يعملون فى خدمة النظام وتزييف الواقع فى أذهان الناس باسم العلم . ولناخذ مثالا على ذلك ظاهرة التمييز العنصرى فى الولايات المتحدة الأمريكية من غير المعقول أن يشجع أصحاب مزارع القطن الكبيرة بحثا يمكن أن يكشف عن الاستغلال البشع الذى يتعرض له الزوج من جانب أصحاب الأعمال البيض وعن الظروف السيئة التى يعيش فيها هؤلاء الناس ، بل أنهم سوف يسارعون الى تمويل أى أبحاث سيكولوجية تبين أن سبب تدهور حالة الزوج أو الطبقة العاملة بصفة عامة يرجع الى نقائص عقلية أو ثقافية فيهم أنفسهم .

ان تطور علم الاجتماع فى الطريق العلمى وتقديمه فهما موضوعيا للحياة الاجتماعية ليس فى صالح الرأسمالية ولذلك فإنها تعمل بشتى الأساليب على تعطيل تطوره وعلى تزييف الحقائق الاجتماعية ويتولى (علماء الاجتماع) الموالون للنظام الرأسمالى مهمة الترويج لفكرة أن الظواهر الاجتماعية لا يمكن أبدا دراستها دراسة علمية حقيقية مثل غيرها من الظواهر وأنه لا يمكن الوصول الى قوانين اجتماعية ولا يمكن للإنسان أن يتحكم فى مسار المجتمع ، لا يمكن أن توجد نظرية اجتماعية عامة واحدة وأنه لا بد من وجود نظريات متعددة تعكس الآراء المختلفة للعلماء الاجتماعيين .

وتأتى الأدلة على ذلك من داخل المجتمعات الرأسمالية ذاتها ومن علماء الاجتماع الشباب المتمردين على علم الاجتماع التقليدى أو ما أصبحوا يطلقون عليه علم الاجتماع المزيف أو علم الاجتماع الرجعى أو المحافظ أو علم اجتماع النظام Establishment Sociology .

وهناك الآن تيار قوى فى علم الاجتماع فى كل من الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوروبا الغربية يسمى « علم الاجتماع الراديكالى » وفيما

يلى وصف لعلم الاجتماع التقليدى قدمته مجموعة من المتخصصين فى علم الاجتماع أطلقت على نفسها اسم « حركة تحرير علم الاجتماع فى أمريكا »
ان علم الاجتماع يرتبط ارتباطا وثيقا بالأجهزة الحاكمة ويعبر عن مصالح القوى المسيطرة فى المجتمع الأمريكى ويتضح ذلك من القيم والمعتقدات السائدة بين علماء الاجتماع ومن ولائهم لهذه الأجهزة .

وعلى الرغم من ادعاء علماء الاجتماع لصفة الحياد الا أنهم يقومون باجراء بحوث لصالح التنظيمات القومية فى المجتمع ويمدونهم بالمعرفة التى يحتاجون اليها للسيطرة على مشكلاتهم . وهم يضعون خبرتهم تحت تصرف النظام ويجعلون تطور علم الاجتماع يسير فى الاتجاه الذى تحدده احتياجات الذين يمولونهم وتحت ستار الحياد فشل علم الاجتماع فى أن يسهم بأى شكل فى فهم مشكلات الفقراء والضعفاء وفى مساعدتهم على التغلب على سيطرة ذوى النفوذ والقوة عليهم .

ان علماء الاجتماع حاولوا أن يضيفوا على أنفسهم الصبغة العلمية عن طريق تطوير أساليب وطرق البحث العلمى ولكن على حساب المضمون كما قدموا نظريات علمية ولكنها تخلو من المعرفة الحقيقية بالمجتمع . ان علماء الاجتماع قد تجاهلوا دراسة المشكلات الحقيقية للمجتمع الأمريكى ، وكل من حاول ذلك واهتم بدراسة الواقع كان يواجه بالنبذ ونفى صفة العلمية عنه .

ان النظريات الاجتماعية الرجعية والليبرالية تبالغ عن عمد فى اظهار أن المجتمع تسوده حالة من الاتفاق والاجماع وتدعو الى المحافظة على ذلك وتهمل حقيقة وجود الصراع بين مصالح المجموعات المختلفة فيه ، وتدعو الى التفاهم والصبر والنية الحسنة لحل أى مشكلات فيه ، وذلك لا يمت للعلم بصلة . انه لا يزيد عن كونه ضراعة ولا يصور الواقع بل يعبر عن آمال الطبقة الاجتماعية التى يمثلها علماء الاجتماع .

ان علم الاجتماع تحت تأثير وهم الابتعاد عن الصراعات الدائرة فى المجتمع تخلق عن مسئوليته فى أن يكشف ، بدقة القسوى الاستغلالية فى المجتمع ، وأصبحت الطبيعة الرجعية للحكومة الأمريكية خارج نطاق البحث

الاجتماعى ولكن السكوت على وضع ما يعنى الرضا عنه ، وعدم كشف هذا الوضع يعنى تأييده «(٦)» .

وفى كتاب صدر عام ١٩٧٠ بعنوان « علم الاجتماع الراديكالى (٧) » يتناول مجموعة من علماء الاجتماع الراديكاليين شرح أسباب تخلف علم الاجتماع فى أمريكا وفشله فى تحقيق امكانية الفهم العلمى للمجتمع ، وأهم هذه الأسباب خضوع علم الاجتماع لسيطرة الرأسمالية والاحتكارية وقيامه بدور الدفاع عن هذا النظام وتبريره ويدعو هؤلاء العلماء الى التمرد على ذلك الوضع والى استخدام المنهج العلمى فى فهم المجتمع وكشف القوانين التى تحكمه والى مناقشة ونقد الآراء التى يروج لها علماء الاجتماع التقليديون المستفيدون من النظام والمدافعون عنه .

نتبين مما سبق أن الدراسة العلمية للظواهرات الاجتماعية والوصول الى نظرية اجتماعية عامة أمور ممكنة تماما ولكن هناك ظروف وعوامل تعوق وتعرقل نمو وتطور العلوم الاجتماعية بصفة عامة وعلم الاجتماع بصفة خاصة وهذه الظروف اجتماعية وتشبه الظروف التى كانت تعرقل نمو وتطور العلوم الفيزيائية والبيولوجية قبل عصر الثورة الصناعية . ولكن هذه الظروف ليست أبدية ، أى أنها تتغير . ومثلما تطورت العلوم الفيزيائية والبيولوجية فى أوروبا مع ظهور قوى اجتماعية جديدة من مصلحتها كشف الحقائق المتعلقة بالكون المادى فان العلوم الاجتماعية فى سبيلها الى التطور فى الاتجاه العلمى الحقيقى مع ظهور وتعاضلهم القوى الاجتماعية الجديدة التى من مصلحتها كشف الحقائق المتعلقة بالحياة الاجتماعية وهذه القوى هى القوى الشعبية والمثقفون المستنثرون الذين يهتمهم كشف الحقيقة والدفاع عنها .

(٦) Sociology Liberation Movement Handbill, 1968, in Paul Horton and Gerald R. lesli : Studies in the Sociology of Social Problems, New-York, Appleton-Century-Crafts. 1971 pp. 18 - 19.
(٧) J. D. Colfax and Jack Roach (ed.) Radical Sociology New-York. Basic Books.

أهمية دراسة النظرية الاجتماعية :

سبق أن ذكرنا أن العلم يتكون من جانبين أساسيين هما الجانب الحسى والجانب العقلى وتحدثنا بالتفصيل عن مكونات الجانبين وعن العلاقة الوثيقة والمتبادلة بينهما . وراينا أن الصورة النموذجية لآى علم هى تلك التى لا تنفصل فيها النظرية عن الوقائع بمعنى أن تضم النظرية كل الوقائع التى تم اكتشافها وتربط بينها وتضفى عليها معنى وتخرج منها مجموعة من التعميمات العامة المترابطة ، وفى هذه الحالة تصبح النظرية موجها للباحثين عند جمعهم لوقائع جديدة تسهم فى إثراء النظرية وتطويرها .

وأى باحث فى أى علم من العلوم لا غنى له عن نظرية توجهه فى جمعه للوقائع المتعلقة بالظاهرة التى يريد دراستها ، وفى اختياره للفروض التى يريد أن يختبر صدقها ، وفى اختياره للمنهج والأدوات التى سيستخدمها فى دراسته ، فبدون هذه النظرية يتخبط فى جمع معلوماته بحيث تأتى غير مترابطة ثم يعجز فى النهاية عن اضعاف معنى عليها أو تفسيرها . وهنا أريد أن أتوقف قليلا لأشرح أهمية دراسة « النظريات الاجتماعية » بالنسبة لطالب علم الاجتماع .

إن الهدف الرئيسى لطالب علم الاجتماع من دراستهم هو فهم المجتمع الذى يعيشون فيه ومحاولة الاسهام فى تطوير الحياة الاجتماعية فيه . وهم يدركون أن فهمهم للمجتمع لا يمكن أن يتحقق الا عن طريق الدراسة الفعلية لجوانب الحياة الاجتماعية والتعرف عليها ، ولكن المجتمع الذى نعيش فيه ونريد أن نفهمه يضم عددا لا نهاية له من الوقائع الاجتماعية Facts وكل منها يمكن أن يكون موضوعا للدراسة : خذ مثلا بعض النماذج لما يمكنك أن تفكر فى دراسته : عادات الناس فى مختلف الأحياء والقرى المتعلقة بالتعامل الاجتماعى فى كافة صورته مثل أسلوب التحية بين فئات الناس (الأكبر والأصغر سنا ، النساء ، الرجال) ملابس النساء ، ملابس الرجال ، العلاقات بين الطلبة والطالبات فى الجامعة ، كيفية ركوب الناس للمواصلات وتعاملهم فيها ، العلاقات بين العاملين وبعضهم البعض ، أشكال الاستهلاك بين فئات الناس ، والانحرافات بين الشباب ، الجريمة

والمخدرات ، البغاء ، القيم ، وضع المرأة فى المجتمع ، الفقر ، الاستغلال ، الرشوة ... الخ الأشياء التى لا حصر لها ، ولكن أى هذه الموضوعات أولى بالدراسة ولماذا ندرسها وبأى كيفية ؟ .

لكى تستطيع حتى أن تختار أيا من هذه الموضوعات لابد أن يوجد لديك تصور عام عن المجتمع الذى توجد فيه ، أى لابد أن يكون فى ذهنك هدف ما لهذه الدراسة ، ولابد أن تكون لديك طريقة ما لدراسة ما تختاره من موضوعات وفوق هذا كله لابد أن تكون على علم بجهود من سبقوك الى التفكير فى ذلك وما توصلوا اليه من نتائج ، وما وقعوا فيه من أخطاء حتى تستطيع تجنبها . أى أنك لا تستطيع أن تبدأ أبدا من نقطة الصفر ، والا فانك لن تضيف له جديدا أبدا . والعلم بصفة عامة ذو طبيعة تراكمية Accumulative بمعنى أن كل دارس يضيف له شيئا جديدا اعتمادا على معرفته بما توصل اليه من سبقوه . وهذه المعرفة توجد دائما فى الكتب ليس على شكل حشد هائل من المعلومات المتفرقة ولكن على شكل استنتاجات عامة ونظريات . وأى باحث جاد لابد أن يبدأ أولا بقراءة هذه المعرفة المتوفرة والا فانه سيتخبط فى بحثه ويجمع معلومات ليكتشف بعد ذلك أن غيره قد توصل الى جمعها أو أنها عديمة القيمة كما أنه قد يصل الى استنتاجات يتضح له أنه قد ثبت خطأها من زمن بعيد لأن الأسلوب المتبع فى دراستها كان خاطئا . مثال ذلك أنه لو حاول بعض منكم أن يدرس مشكلة مثل الجريمة دون أن يقرأ شيئا من النظريات عنها وعن المجتمع فانه قد يكون معرضا لخطر أن ينصرف جهده لجمع معلومات عن آباء وجدود أو شجرة عائلة المجرمين على فرض أن هذا السلوك وراثى وبعد فترة طويلة يكتشف أنه منذ زمن بعيد درس باحثون كثيرون هذا الفرض وصاغوا نظرية حوله (مثل نظرية لومبروزو) ثم أتى بعدهم باحثون آخرون أثبتوا أن المنهج الذى اتبعوه فى هذه الدراسة كان خاطئا من الناحية العلمية وأعادوا الدراسة مرة أخرى بمنهج جديد أثبت بما لا يدع مجالا للشك خطأ هذه النظرية تماما – وبالتالى لم تعد ما سميت بالنظرية البيولوجية فى تفسير السلوك المجرامى تعتبر نظرية علمية ، وكذلك ثبت خطأ النظرية الاجتماعية التى كانت تستند عليها ، وهى الدارونية الاجتماعية

أو النظرية البيولوجية أو العضوية في تفسير المجتمع (مثل نظرية هيربرت سبنسر) • معرفتك اذن بهذه النظريات تجنبك الوقوع في الخطأ الذي وقع فيه من سبقوك الى الدراسة وتوجهك الى اختيار متغيرات أو وقائع أخرى غير الوقائع البيولوجية لكي تربط بينها وبين السلوك الاجرامى ، مثل المتغيرات السيكولوجية ، والاقتصادية والاجتماعية ، والسياسية ... الخ • ولكن ما ينطبق على المتغيرات البيولوجية ينطبق أيضا على هذه المتغيرات الأخرى • فهناك من درسوا كل هذه المتغيرات وصاغوا نظريات حولها وهناك من فندوا هذه النظريات وتلك الدراسات وبينوا أوجه النقص والخطأ فيها • ولو أنك أغفلت الاطلاع عليها أيضا لوقعت مرة أخرى في نفس الخطأ •

ان الطالب الذى يدرس العلوم الفيزيائية والبيولوجية (فى كليات العلوم والهندسة والطب والصيدلة ... الخ) لا يبدأ أبدا بالدراسة المباشرة لواقع الظاهرات التى فى مجال تخصصه ، ولكنه يبدأ بدراسة النظريات المتعلقة بها • فطالب الطب لا يبدأ بدراسة الأمراض وعلاجها ، ولكنه يبدأ بدراسة نظرية الحياة فى علم البيولوجيا ويدرس وظائف الأعضاء ويدرس الكيمياء والفيزياء وتكوين وبناء الكائن الحى (فى التشريح) ... الخ ويمثل ذلك بالنسبة له الخلفية الفكرية والعلمية التى توجهه بعد ذلك فى كل دراساته وتطبيقاته العملية • صحيح أنهم يدرسون له فقط كل ما ثبتت صحته ولا يدرسون له ما كان يوجد من نظريات أو أفكار خاطئة منذ مئات السنين ، ولكنهم يدرسون له أيضا وجهات النظر المختلفة التى لم تحسم بعد فى علمهم المعاصر • فاذا ما وجدت الأدلة الكافية على صدق إحدى وجهات النظر أو التفسيرات فان التفسيرات الخاطئة لا تستبعد من الدراسة ولكنها تظل تذكر كتحذير من الوقوع فى خطأ تبنيها حتى تستبعد تدريجيا بمرور الوقت وبرسوخ التفسير الصحيح •

ولكن هذه العلوم كما نعلم استقرت منذ زمن بعيد أما العلوم الاجتماعية فانها بالمقارنة لها حديثة النشأة وهى مازالت فى مرحلة مشابهة لمرحلة نشأة العلوم الفيزيائية والبيولوجية والتى كان يسود بها الكثير من النظريات المتضاربة وكان على دارس هذه العلوم أن يدرس كل هذه (م ٤ - النظرية)

النظريات ويناقشها لكي يسهم في كشف الحقيقة ويثبت صدق أو خطأ كل منها •

الموقف الآن بالنسبة لعلم الاجتماع شبيه بالموقف بالنسبة للعلوم الفيزيائية والبيولوجية من قبل حوالي الخمسمائة عام : نظريات متعددة ومتضاربة وفي كثير من الأحيان تقدم كل منها تصورا عاما للمجتمع يختلف عن الأخرى وتركز كل منها على جوانب منه تختلف عن الجوانب التي تركز عليها غيرها وتقدم جميعها تفسيرات مختلفة لمنشأ الحياة الاجتماعية وجوهرها وتغيرها وعلاقة مكوناتها ببعضها البعض ، وتستخدم كل منها مفهومات تختلف عن الأخرى وتشير الى أسلوب أو منهج للبحث خاص بها • وحسيلة ذلك كله أن كيفية دراسة أي باحث للواقع الاجتماعي سوف تعتمد على النظرية التي يتبناها •

• من هنا تأتي أهمية دراسة كل من هذه النظريات ومناقشتها – وسوف تظل هذه الدراسة والمناقشة مستمرة ومفيدة حتى يتم جمع الأدلة الكافية على خطأ أو صواب كل منها أو على الأقل ما يحتويه كل منها من عناصر بحيث يتم في النهاية الوصول الى نظرية اجتماعية عامة واحدة قابلة للاضافة اليها واثرائها بكيفية تراكمية مثلما هو الحال بالنسبة للنظرية البيولوجية أو الفيزيائية •

اننا ندعو دائما الى استيعاب كل النظريات الاجتماعية بدون استثناء والى اعمال العقل فيها ومناقشتها ونقدها ؛ فيجب أن نتمتع دائما بالقدرة على التفتح الفكري على جميع الاتجاهات ، وليس هناك ما هو أخطر على علمنا وعلى مجتمعنا من الانغلاق على فكر واحد ومن أن نصبح أسرى قوالب جامدة ومن الزام أبنائنا باستظهار آراء نفرضها عليهم ونعطل بها ملكة التفكير والنقد عندهم •

الفصل الثالث

أسس تقييم النظرية الاجتماعية

يختلف الموقف النظرى فى العلوم الطبيعية عنه فى العلوم الاجتماعية بصفة عامة وفى علم الاجتماع بصفة خاصة ، وفى العلوم الطبيعية كعلم الحياة مثلا يوجد واقع بيولوجى له وجود موضوعى مستقل عن العالم الذى يبحثه (ظاهرات الحياة) من جهة ومن جهة أخرى توجد نظرية عامة تصور هذا الواقع فى جوهره وتضم القوانين التى تحكم تغيره وتطوره ، كما توجد نظريات نوعية أو فرعية تصور كل جانب من جوانب هذا الواقع على حدة (مثل نظريات وظائف الأعضاء أو التشريح أو الأجنة) ولكنها تستند على النظرية العامة وتستمد منها مسلماتها الأساسية . ولم يعد هناك تعدد فى النظريات العامة فى العلم الطبيعى الواحد بل أصبحت هناك نظرية واحدة ثبت صدقها بالأدلة الأمبيريقية وأصبحت مهمة العلماء تطويرها والاضافة اليها واستخدامها فى تفسير كافة الأحداث التى تدخل ضمن نطاقها . أما فى علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية فإنه على الرغم من وجود واقع اجتماعى له وجود موضوعى مستقل عن العالم الذى يبحثه (الظاهرات الاجتماعية) فإننا نجد نظريات عامة متعددة كل منها يقدم تصويرا لهذا الواقع يخالف ذلك الذى يقدمه غيرها . وبالتالي فإننا سنجد تفسيرات مختلفة لنفس الظاهرة الاجتماعية الواحدة ، وهنا يواجه أى دارس لهذه النظريات بموقف حتمى يتعين عليه فيه أن يقارن بين هذه النظريات المختلفة ويختار من بينها ما يرى أنها الأصلح أو أنها الأكثر اقناعا . إلا أن عملية المقارنة هذه تتطلب بالضرورة تقييما لكل منها على حدة ، فعلى أى أساس يتم هذا التقييم ؟

فى أحيان كثيرة يلجأ دارسو النظريات الاجتماعية الى تقييم هذه النظريات والمفاضلة بينها على أسس غير علمية ، ويتعاملون مع هذه

النظريات كما لو كانت سلعا أو أشياء مما تقابلهم فى حياتهم اليومية يعتمد اختيارهم لأحدها دون الأخرى على المزاج الشخصى أو مدى جاذبيتها الانفعالية . فبعضهم يتبنى نظرية ما لأنها الأكثر رواجاً أو انتشاراً فى ذلك الوقت مثلما يشتري سلعة ما لأنها « المودعة » أو لأن كل الناس المرموقين يشترونها . وبعضهم يتبنى نظرية أخرى لأن أشخاصاً معينين يثق فيهم ويحترمهم (كالاساتذة مثلاً) يتبنونها . والبعض الآخر يتبنى نظرية ثالثة لأنها تبدو بسيطة واضحة أو حتى لأنها تبدو عميقة غامضة يصعب على الآخرين فهمها ! (١) كما أن بعض دارسى النظريات الاجتماعية يتبنى نظرية ما لأنها ظهرت فى الغرب الذى يحبه لا فى الشرق الذى يكرهه أو العكس ! ولا يندر أن نقابل شخصاً ما له وزنه فى علم الاجتماع يقر لك صراحة أنه يرفض حتى مجرد قراءة نظرية معينة لأنها راسمالية أو لأنها اشتراكية أو لأنها أجنبية ومستوردة ولا يقبل الا نظرية محلية حتى ولو كانت قديمة وعفى عليها الزمن !

ولكن ... هل هكذا يجب أن تفاضل بين النظريات فى العلم ؟ هل قبل العلماء نظرية أينشتاين لأنها الأكثر رواجاً أو لأنها أكثر بساطة أو تعقيداً أو لأنها ظهرت فى أمريكا لا فى الهند ؟ وهل رفضها علماء فى أى مكان لأنها لم تنبع من بلادهم ؟ بالطبع لا ... لقد قبلت نظرية أينشتاين عن النسبية بعد أن تمت المقارنة بينها وبين النظرية السابقة عليها وتقييم كل منهما على أسس موضوعية واختبار صدق كل منهما ، وهكذا الحال بالنسبة لكل النظريات العلمية الأخرى . أن أحداً لم يعد يثير الآن بالنسبة للنظريات العلمية فى العلوم الطبيعية أسئلة كتلك التى يثيرها أحياناً المشتغلون بالعلوم الاجتماعية مثل هل تصلح هذه النظرية لتفسير واقعنا المحلى الذى يختلف عن الواقع الذى ظهرت لتفسيره ؟ لأن الجميع يدرك الآن أن هناك نظريات عامة تنطبق على الظاهرة الطبيعية أينما كانت وتضم القوانين العامة التى تحكمها ونظريات نوعية تنطبق على كل نوع من هذه الظواهر دون غيره . فالنظرية العامة عن الحياة

(١) انظر فى ذلك مؤلف رايت ميلز (للتصور السوسيولوجي) وبخاصة عند حديثه عن موقف دارسى النظريات الاجتماعية من نظرية تالكوت بارسونز .

تنطبق على كل الكائنات الحية بلا استثناء أينما كانت ووقتها كانت .
ولكن هناك قوانين نوعية لا تنطبق الا على النبات (مثل التمثيل
الكلوروفيللى) وقوانين أخرى لا تنطبق الا على الانسان وهكذا .
والمفروض أن ينطبق نفس الشيء على النظريات الاجتماعية . فلا بد
أن توجد نظرية عامة تنطبق على الظاهرة الاجتماعية بوجه عام وتقدم
تصورا عاما عنها ، ثم على ضوء هذا التصور العام توجد نظريات نوعية
تقدم تفسيرات خاصة لكل ظاهرة اجتماعية على حدة .

وعلى ذلك فان تقييمنا لأى نظرية اجتماعية عامة يجب أن يتحدد
على أسس علمية وموضوعية لا على أساس الأهواء الشخصية أو الأفكار
غير العلمية . كما أن قبولنا أو رفضنا لأى من هذه النظريات لابد أن يكون
بناء على دراسة مستفيضة لها ثم تطبيق الأسس العلمية للتقييم عليها .
ولكننا يجب أن نشير هنا الى ضرورة الاهتمام بالمبادئ العامة التى
ترتكز عليها النظرية أكثر من اهتمامنا بتفاصيلها عند تقييمنا لها ذلك
أن تفاصيل كل نظرية مستمدة من هذه المبادئ العامة . واغفال المبادئ
العامة للنظرية والاهتمام بتفاصيلها يؤدي الى التخطئ العشوائى فى
التقييم ، وهذا ما نجده فى الكثير من الدراسات النقدية للنظريات
الاجتماعية :

ان أول مهمة يجب أن تواجهها عند دراستنا لأى نظرية اجتماعية
هى أن نتعرف عليها ونستخلص المبادئ العامة أو الافتراضات أو
المسلمات الأساسية التى تدور حولها هذه النظرية . يلى ذلك اخضاع هذه
المبادئ أو المسلمات للفحص الدقيق ومناقشة مدى صدقها والتساؤل
عن الأدلة التى تؤكدتها أو تنفيها . ويساعدنا على الكشف عن صدق
أو زيف هذه المسلمات محاولة التعرف على التحيزات الايديولوجية
والسياسية التى تتضمنها النظرية من جهة وما تشير اليه النظرية من
اجراءات عملية من جهة أخرى . أى أنه يتعين علينا عند تقييمنا لأى
نظرية أن نثير أربعة تساؤلات أساسية نحاول الاجابة عليها :

١ - ما المبادئ أو المسلمات الأساسية التى تدور حولها النظرية
الاجتماعية ؟

٢ - ما الأدلة على صدق هذه المبادئ أو خطئها ؟

٣ - ما المضمون الايدلوجي والسياسي للنظرية وما مدى تأثيره على المبادئ العامة أو المسلمات الأساسية للنظرية ؟

٤ - ما الاجراءات العملية التي تشير اليها النظرية اذا سلمنا دون مناقشة بمسلماتها الأساسية ؟

ولكى أوضح العلاقة بين هذه التساؤلات الأربعة أضرب مثالا بالنظرية العنصرية التي روجت لها ألمانيا النازية وعلمائها عن تفوق الجنس الأري على غيره من الأجناس البشرية . أن هذه النظرية كانت تستند على مسلمة أساسية مؤداها أن هناك خصائص بيولوجية موروثة لدى كل جنس من الأجناس البشرية تحدد بشكل أبدي تفوقه أو تخلفه الحضاري ولا سبيل الى تغييرها ، وكان علماء البيولوجيا الألمان يحاولون تقديم أدلة زائفة على صدق هذه المسلمة ولكن البحوث البيولوجية أثبتت أن ليس هناك أي « مورثات genes » ترتبط بالتحضر أو التخلف مثلما توجد عورثات ترتبط بلون البشرة مثلا ، كما أن الدراسات التاريخية والحضارية المقارنة أثبتت أن كثيرا من الأجناس التي تعتبرها النظرية العنصرية متخلفة كانت لها حضارات أرقى بكثير جدا من حضارات تلك الأجناس التي تعتبرها النظرية أرقى من غيرها . (كانت الحضارة الفرعونية دليلا على زيف هذه الادعاءات ، في الوقت الذي كانت مصر الفرعونية تقيم حضارة راقية مازالت حتى الآن مصدرا لحضارات العالم كانت شعوب أوروبا تحيا حياة بدائية جدا) . وهكذا اتضح أن المسلمة الأساسية التي استندت عليها النظرية العنصرية عن الانسان تنفيها الأدلة الامبيريقية . فإذا ما حللنا هذه النظرية من ناحية مضمونها الايديولوجي لوجدنا أنها ذات مضمون استغلالي ، فهي لم تكن سوى محاولة لتبرير استعمار دول معينة لشعوب العالم عن طريق استغلال العلم والتستر وراءه . والاجراءات العملية التي تشير اليها هذه النظرية كانت ببساطة تسليم الشعوب والأقوام المستعمرة والمستغلة بالأمر الواقع وقبول الخضوع لسيطرة القوى الاستعمارية بوصفه قضاء وقدّر هذه الشعوب الذي لا مفر منه ولا سبيل الى تغييره طالما أن أساسه بيولوجي . أن هذه النظرية العنصرية لو

كانت قد قبلت دون مناقشة لأدت الى استمرار الاستعمار . ولكن مناقشة مسلماتها الأساسية وتحليل الأدلة على صدقها والبحث عن أدلة تنفيها مع الكشف عن مضمونها الايديولوجي وأهدافها العملية أدت الى رفضها تماما في الأوساط العلمية والشعبية والى استبدالها بنظرية علمية صحيحة مؤداها أن جميع أجناس العالم لا تختلف عن بعضها في استعداداتها البيولوجية وأن ما يوجد بينها من اختلافات حضارية يرجع الى ظروف تاريخية وبيئية يمكن تعديلها وتغييرها .

ولكن دعاة العنصرية والاستعمار والاستغلال لجأوا بعد اكتشاف زيف هذه النظرية من الناحية البيولوجية الى العلوم الاجتماعية وصاغوا نظريات مشابهة عن الوراثة الاجتماعية والحضارية حاولوا بها أن يوهبوا شعوب العالم أن هناك شعوبا متخلفة بالضرورة بحكم تراثها الحضاري والاجتماعي الذي يفرض عليها هذا التخلف كما قسموا الناس داخل المجتمع الواحد الى فئات متخلفة حضاريا وسيكولوجيا واجتماعيا وفئات متقدمة لها الحق في السيطرة على المتخلفين وتوجيه أمورهم وتاريخ العلوم الاجتماعية ملئ بهذه المسلمات ويكفي أن نشير الى نظريات الصفوة في علم الاجتماع والى نظريات الذكاء في علم النفس (مثل نظرية أيزنك في انجلترا وجنسن في الولايات المتحدة) . ولا بد لدارس النظرية الاجتماعية أن يخضعها للمناقشة والتحليل مستخدما نفس أسس التقييم التي استخدمت في مناقشة وتحليل النظرية البيولوجية العنصرية . وسوف نعرض فيما يلي لأسس التقييم هذه بالتفصيل (٢) .

(٢) استخلصنا أسس تقييم النظرية الاجتماعية من دراستنا لمجموعة من المؤلفات لعدد من العلماء المتخصصين في النظرية الاجتماعية ونقدمها مثل :

- (1) Wright Mills : Sociological Imagination.
- (2) C. Sjoberg : Methodology in Social Research.
- (3) Alvin Gouldner : The Coming Crisis of Western Sociology.
- (4) D. Kolfax and J. Roach : Radical Sociology.
- (5) Ian Taylor et al; Radical Criminology.
- (6) G. Osipov : Sociology.
- (7) V. Afansyev : Marxist philosophy.

(٨) س . ي . بربوف ، نقد علم الاجتماع للبورجوازي المعاصر .
انظر تفاصيل المراجع بقائمة المراجع بآخر الكتاب .

أولا : الافتراضات أو المسلمات الأساسية التي تدور حولها النظرية :
 ونعنى بالافتراضات أو المسلمات تلك الأفكار التي تعتبر محورا أساسيا تدور حوله النظرية وقد يخضعها صاحب النظرية للمناقشة ويقدم أدلة عليها أو قد يقدمها على أنها مسلمات لا تقبل الشك ، وقد تكون هذه الأفكار المحورية ظاهرة ومعبرا عنها بوضوح فى النظرية وبالتالي يسهل مناقشتها أو قد تكون كامنة أو خافية وبالتالي يصبح علينا أن نبذل جهدا فى استنتاجها من خلال النظرية واخضاعها للمناقشة . وقد أطلق ألفن جولدنر على هذه الافتراضات تسمية « الافتراضات الخلفية Background assumptions بينما أسماها جدعون جوبرج « الافتراضات الرئيسية Basic assumptions » وعادة ما تعكس هذه الافتراضات التوجيه الايديولوجى لصاحب النظرية وانهيازاته الاجتماعية . كما أن هذه الافتراضات التى تتضمنها النظرية سوف تؤثر على أى باحث يجرى دراسات عن أى ظاهرة اجتماعية . وقد سبق لنا الحديث عن العلاقة بين النظريات والبحث فى ميدان العلم .

يقرر جوبرج أن النظريات الاجتماعية المختلفة مثل البنائية - الوظيفية والتفاعل الرمزي والوضعية والماركسية تتضمن جميعها افتراضات معينة عن الواقع الاجتماعى وعن طبيعة الانسان وعن علاقة العالم بالمادة التى يدرسها وأن هذه الافتراضات ترتبط جميعها ببعضها البعض منطقيا الى حد ما .

ولما كان أى باحث فى ميدان الظاهرات الاجتماعية يتبع بالضرورة نظرية ما حتى ولو عن غير وعى ، فإن هذه النظرية بما تتضمنه من افتراضات أساسية حول تلك الموضوعات السابق ذكرها ستؤثر عليه فى جميع خطوات بحثه ، ابتداء من اختياره للمشكلة موضوع البحث واختياره لأدوات جمع البيانات حتى تفسيره للمادة التى سينجم عنها ما كان مجال دراسته .

وقد صنف جوبرج هذه الافتراضات الأساسية الى خمس فئات أساسية هي :

- ١ - افتراضات خاصة بطبيعة الواقع الاجتماعي .

Assumptions about social reality.

- ٢ - افتراضات خاصة بطبيعة الانسان وقدراته .

Assumptions about the nature of man and his potentiality.

- ٣ - افتراضات خاصة بعلاقة الباحث بالظواهر الاجتماعية التي

يلاحظها .

Assumptions concerning the observers relationsuips to observed social phenomena.

- ٤ - افتراضات خاصة بمستوى النظرية .

Assumptions Concerning the-level of theory.

- ٥ - افتراضات خاصة بالمتغيرات السببية أو التفسيرية .

Assumptions about causal or explanatory variables.

وفيما يلي شرح لكل نوع من هذه الافتراضات الأساسية التي، تحدد

مضمون النظرية الاجتماعية .

أولاً : الافتراضات الخاصة بطبيعة الواقع الاجتماعي :

تعتبر هذه الافتراضات من أهم موجهات النظرية الاجتماعية :

ويمكن مناقشة هذه الافتراضات على أساس عدة أبعاد فرعية :

- ١ - التغير أو الثبات في الواقع الاجتماعي .

- ٢ - التكامل أو الصراع .

- ٣ - المادية أو المثالية .

- ٤ - وحدة الملاحظة والتحليل الأساسية (الفرد أو الجماعة) .

(١) الافتراضات المتعلقة بالتغير أو الثبات في النظام الاجتماعي :

هناك بين علماء الاجتماع من يؤكدون أن الواقع الاجتماعي في

حالة تغير دائم وأن النظام الاجتماعي ليس ثابتاً ولكنه يكون دائماً في

حالة تكوين .

وفى مقابل هذا الافتراض نجد فريقا آخر من علماء الاجتماع يرون أن الواقع الاجتماعى فى حالة ثبات واستقرار . وهذا الاتجاه الأخير هو السائد فى علم الاجتماع المعاصر فى الغرب .

ويرتبط بهذا الافتراض المتعلق بالتغير أو الثبات افتراضات متعارضة فيما يختص بقدرة الانسان على السيطرة على بيئته . فأصحاب الاتجاه الأول (الثبات) يرون أن الانسان لا يفعل أكثر من أن يستجيب للنظام القائم (أى يتلاءم معه) أما أصحاب الاتجاه الثانى (التغير) فيسلمون أن فى وسع الانسان أن يغير دائما من بيئته .

(ب) الافتراضات المتعلقة بالتكامل أو الصراع :

يرى أصحاب النظريات التى تفترض مسبقا أو تسلم بفكرة التكامل من أمثال تالكوت بارسونز أن الانسان يسعى بطبعه الى الاتساق والتعاون وأنه يتجنب التوتر والصراع . ووجهة النظر هذه تتناقض تماما مع وجهة نظر علماء آخرين من أمثال كارل ماركس وزيميل ، الذين افترضوا أن الانسان فى حالة صراع دائم مع بعضه البعض ومن المؤكد أن وجهة النظر الأخيرة هذه سوف تؤدى بالباحث الى تحليل النظام الاجتماعى بطريقة مختلفة تماما عن تلك التى يتبناها علماء الاجتماع الذين يؤكدون على التكامل والتعاون . كما أن الباحث فى هذه الحالة سوف يتبنى فى الغالب المنطق الجدلى فى تحليلاته وسوف يهمل تماما فكرة التوازن على عكس أصحاب الافتراضات التكاملية .

(ج) الافتراضات المتعلقة بالمادية أو المثالية :

على الرغم من أن العلماء الفيزيائيين (علماء الطبيعة) يعتمدون كلية على افتراض الأساس المادى للواقع فإن العلماء الاجتماعيين مازالوا يجدون صعوبة فى التسليم بأن العالم المادى هو الواقع النهائى . وقد كان الماركسيون هم الذين قدموا التفسير المادى للواقع .

وهناك جدل شديد بين علماء الاجتماع حول هذا الموضوع ، ولكن يجب أن نشير هنا الى أن بعض علماء الاجتماع قد يسلمون بالأساس المادى للواقع الاجتماعى ولكنهم لا يسلمون بفكرة الصراع . كما أن معنى

الأساس المادى يختلف من عالم لآخر . فعلماء الاجتماع فى ميدان الايكولوجيا البشرية يعتبرون الأساس المادى هو التكنولوجيا والبيئة والسكان ، بينما يعتبر علماء الاجتماع الماركسيون أن هذا الأساس يتمثل بصفة رئيسية فى القوى الانتاجية وعلاقات الانتاج فى المجتمع .

وهناك فريق آخر من علماء الاجتماع يتبنون فكرة الثنائية (أى المادية والثالية فى آن واحد) مثل علماء الاجتماع الظواهراتيين أو الفينومينولوجيين ومنهم الفرد شوتز ، حيث يرون أن الواقع ليس هو العالم المادى أو نسق المفاهيم لدى الفرد ولكنه الرابطة بين الإثنين .

(د) الافتراضات الخاصة بالوحدة الأساسية للدراسة - الفرد أو المجموعة :

مازال هناك خلاف أساسى بين علماء الاجتماع حول هذه النقطة ويتمثل الخلاف فى ذلك الجدل الدائر بين هومانز وبارسنز . فهومانز يرفض فكرة المجموعة أو النسق الاجتماعى كوحدة أساسية للتحليل ، ويتفق معه فى ذلك كثير من العلماء فهم يعتقدون أن الكل (أو المجموعة) ليست أكثر من مجرد مجموع أجزائها . بينما يرى الآخرون ، ومن بينهم بارسنز أن الكل هو وحدة الدراسة وأنه يختلف عن مجرد مجموع الأجزاء .

ويمكننا أن نضيف الى ذلك موقف الماركسيين المادى الجدلى الذين يختلفون عن هذين الفريقين من حيث أنهم يرون العلاقة الجدلية بين الكل والجزء كما يؤكدون فى نفس الوقت على الأساس المادى والتاريخى للواقع الاجتماعى .

ثانيا : الافتراضات بطبيعة الانسان وقدراته :

يرتبط هذا الافتراض الأساسى ارتباطا وثيقا بالافتراض الخاص بطبيعة الواقع الاجتماعى .

فهناك من العلماء الاجتماعيين من افترض أن الانسان وأفعاله غير منطقية فالذين يتبعون الفكر الفرويدى مثلا يعتقدون أن الانسان قد خلق مجتمعا يعمل دائما على كبت حوافزه البيولوجية ، فقد رأى فرويد أن

الانسان تدفعه دوافع وحوافز خفية لا يمكن فهمها الا اذا تعمقنا لشعوره . وعلى هذا فان المقابلات التي كان يجريها فرويد في دراساته كانت تعتمد على افتراض أن الانسان في جوهره غير عقلاني أو غير منطقي . ولكن فرويد من جهة أخرى قد حازل بوصفه عالما أن يفرض طابعا عقلانيا على أفعال الانسان غير العقلانية (أى قدم تحليلا عقلانيا لذلك) .

وهناك فريق آخر من العلماء يخالف هذا الرأي ويرفض التسليم بهذه الفكرة الفرويدية ويرى أن الانسان كائن عقلاني . وقد سلم « تالكوت بارسونز » بذلك في كتابه « بناء الفعل الاجتماعى » ولكنه عاد فتأثر بفكر فرويد عن الطبيعة اللاعقلانية للانسان فى كتاباته اللاحقة .

كما أن هناك من بين العلماء الاجتماعيين من يسلمون بفكرة توماس هوبر الفيلسوف الانجليزى التي مؤداها أن الانسان شرير بطبعه وأنه يهدف دائما الى تحقيق مصلحته على حساب الآخرين ، بينما يسلم غيرهم بأن الانسان يرغب دائما فى التضحية بمصالحه من أجل الصالح العام (مثل سوروكين) .

وأخيرا نجد من بين علماء الاجتماع أولئك المتشائمون وأولئك المتفائلون فيما يتعلق بقدرة الانسان على تحسين وتطوير ذاته وبيئته . فالوضعيون مثلا لا يسلمون بأن الانسان يستطيع التحكم فى بيئته ، بينما يرى أصحاب نظرية التفاعل الرمضى (مثل بلومروميد) أن الانسان قادر على تحسين ذاته والماركسيون يحاولون التوفيق بين فكرة حتمية السلوك الانسانى من جهة وبين قدرة الانسان على اعادة تشكيل بيئة من خلال الجهود الثورية من جهة أخرى .

ثالثا : الافتراضات الخاصة بعلاقات العالم بالظواهرات الاجتماعية التي يدرسها :

يضع كل عالم اجتماعى بعض الافتراضات التي تكون عادة ضمنية فيما يتعلق بعلاقة الباحث بالواقع الاجتماعى . فهناك فريق من علماء الاجتماع يفترضون أن القائم باللاحظة قادر على أن يعزل نفسه عما يلاحظه وأنه يستطيع أن يجرى ملاحظاته مستقلا عن الواقع الذى يدرسه

وهذا الاتجاه هو الذى يتبناه المنطقيون لكن هناك فريقا آخر يرى أن القائم بالملاحظة يؤثر فى الواقع الاجتماعى ويتأثر به بدوره • وهناك فريق ثالث يرى أن القائم بالملاحظة (أى الباحث) يؤثر ويتأثر بالنظام الاجتماعى الذى يدرسه ولكنه يستطيع عن طريق جعل هذه العلاقة المتبادلة تتخذ طابعا موضوعيا أن يمارس درجة من السيطرة على هذه العلاقة وبالتالي يستطيع أن يحقق درجة عالية من الموضوعية التى يسلم الامبيريقيون بها ولكنهم لا يستطيعون تحقيقها ومن المؤكد أن هذه الافتراضات سوف تؤثر هى الأخرى على كل خطوات البحث الاجتماعى ، فالباحث الذى يرى امكانية عزل نفسه عن الظاهرة سوف يهمل دراسة نفسه كمتغير فى الظاهرة التى يدرسها أما الباحث الذى يسلم بعكس ذلك فإنه سيجعل نفسه موضوعا للدراسة أثناء دراسته لأى ظاهرة •

رابعا : الافتراضات المتعلقة بمستوى النظرية :

مازلنا نجد فى ميادين علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الانسان جدلا واسعا حول ما اذا كان يجب على العالم أن يستخدم فى بحثه فروضا بسيطة او يستخدم انساقا نظرية مجردة او كبيرة او يلجأ الى النظريات متوسطة المدى •

ويرتبط مستوى النظرية الذى يستخدمه العالم بتصوره لنمو المعرفة الانسانية فالباحثون الذين يتبعون الاتجاه الامبيريقى المحدود يعتبرون المعرفة شيئا يتراكم جزءا فوق جزء وأن عناصر هذه المعرفة سوف تتجمع على المدى البعيد فوق بعضها البعض لكى تكون النظرية ، وفى مقابل ذلك الاتجاه نرى علماء آخرين مثل سوروكن الذى يقرر فى كتابه « الديناميات الاجتماعية والثقافية » أن المعرفة لا يمكن أن تتجمع الا عن طريق اطار نظرى كبير ومن خلال هذا الاطار تمتزج عناصر المعرفة مع بعضها البعض فى كل متكامل له معنى •

وهناك فريق ثالث يمثل « روبرت مرتون » يتخذ موقفا وسطا بين الاتجاهين يرى أن على الباحث أن يسترشد بنظرية متوسطة المدى ، أى بنظرية عن كل نوع من الظواهرات على حدة وليس مجرد فروض متفرقة كما يرى الامبيريقيون ولا نظرية ضخمة كما يرى سوروكن وبارسونز •

ويختلف الماركسيون عن هؤلاء جميعا فى وجهة نظرهم عن طبيعة المعرفة فهم يرون أن الخبرة الحسية هى أساس كل المعرفة الانسانية بالواقع وأن الانسان من تحليله لخبرته هذه تحليلا عقليا يستطيع أن يصل الى جوهر وحقيقة الأشياء التى يلاحظها ويصوغ معرفته هذه على شكل قوانين ونظريات عامة توجهه وترشده لجمع مزيد من الوقائع عن العالم المحيط به ، وكلما توفرت له وقائع جديدة استطاع أن يعدل من هذه النظرية ويطور فيها ، ويرى الماركسيون أن النظرية العلمية عن المجتمع لا يجب أن تكون مادية فحسب ولكن لابد أن تكون تاريخية أيضا .

كما أنهم يرون أن النظرية التى تضم القوانين العامة ترشد العالم دائما الى اكتشاف القوانين الخاصة المتعلقة بظواهرات معينة وتؤدى هذه القوانين الخاصة بدورها الى اكتشاف قوانين عامة تؤدى بدورها الى تعديل القوانين القائمة . وبذلك كله يسترشد العالم بنظرية أعم عن طبيعة الفكر أو الوجود وهى بالنسبة لهم المادية الجدلية . وهناك دائما علاقة جدلية بين النظرية والواقع .

خامسا : الافتراضات المتعلقة بالمتغيرات السببية أو التفسيرية :

تعكس طبيعة المتغيرات التى يستخدمها الباحث فى تفسيره للظواهرات التى يدرسها افتراضاته الأساسية عن طبيعة الواقع الاجتماعى ومستوى التنظير أى أنها ترتبط ارتباطا وثيقا بكل المتغيرات السابق الحديث عنها .

وتعتمد صياغة الباحث للمتغير أو المتغيرات التفسيرية على ميدان بحثه بالطبع ، سواء كان هذا الميدان أنساق الشخصية أو الأنساق الاجتماعية أو الأنساق الثقافية وكذلك العلاقات المفترضة بين أنماط الظواهرات الاجتماعية .

ولكن ميدان دراسته ذاته يعكس الى حد بعيد مفهوم العالم عن الطبيعة الأساسية للواقع الاجتماعى . فالماديون سوف يفسرون التغير الاجتماعى على أساس متغيرات مثل وسائل الانتاج بينما يفسر المثاليون ذلك على أساس متغيرات أخرى مثل القيم أو الأفكار .

ويستخدم علماء الاجتماع فى العادة واحدا أو أكثر من المتغيرات الآتية كمتغيرات مستقلة (تفسيرية) :

١ - المتغير التاريخى :

يفترض كثير من العلماء الاجتماعيين وخاصة علماء الأنثروبولوجيا أن كل ثقافة لها قوانينها الخاصة وعلى ذلك فإنه لا يمكننا فهم أنماط الأنساق الثقافية إلا إذا اعتبرناها وحدة كلية لها امتدادها الزمنى . وهذا الافتراض الذى يؤكد على اعتماد الحاضر على الماضى يفرض على الباحث الأسلوب التاريخى فى البحث والى حد ما يفرض عليه أيضا أن يتبنى أطارا نظريا تطوريا لكى يفهم الحاضر ويتنبأ بالمستقبل .

٢ - المتغير الاقتصادى أو التكنولوجى :

يفترض كثير من العلماء الاجتماعيين أن العوامل الاقتصادية والتكنولوجية هى التى تحدد كافة الظواهر الاجتماعية ولذلك فإننا نرى كثيرا منهم يتخذون من الثورة الصناعية متغيرا أساسيا يفسرون به التغير المستمر فى أبنية المجتمعات . ويعتقد بعض الكتاب أن العامل الاقتصادى متمايز من الناحية التحليلية عن العامل التكنولوجى ويؤكد بعضهم على متغير أو آخر من الاثنين .

ومن جهة أخرى يرى الماركسيون أن أساليب الانتاج تتضمن كلا من العوامل التكنولوجية والاقتصادية ولكنهم يعطون أهمية أكبر للعوامل الاقتصادية ولكن يجب أن نضع فى اعتبارنا أن العوامل الاقتصادية والتكنولوجية يمكن أن تعتبر ذات أساس مادى كما هو الحال فى النظرية الماركسية أو ذات أساس مثالى كما هو الحال فى النظريات المثالية . فالمثاليون يميلون الى النظر الى التكنولوجيا بوصفها نسقا من الأفكار والمعرفة التى يمكن بواسطتها التعامل مع الموضوعات المادية .

٣ - متغير القيم الثقافية :

يميل معظم العلماء الاجتماعيين الى افتراض أن هذا المتغير هو أهم المتغيرات التى يمكن بواسطته تفسير الفروق بين المجتمعات ، فقد اعتمد ماكس فيبر على نسق القيم والمعتقدات بوصفه نسقا تفسيريا فى تفسيره

للعلاقات بين الدين والنسق الاقتصادي فى مختلف قطاعات العالم الاجتماعى .

ويفعل تالكوت بارسنز نفس الشيء فى دراسته للظواهر الاجتماعية .
وبذلك يقف موقفًا مخالفًا تمامًا لموقف العلماء الاجتماعيين الذين يعطون الأولوية للعوامل المادية .

٤ - متغير القوة الاجتماعية :

يعتقد كثير من العلماء الاجتماعيين وبخاصة علماء الاجتماع المؤثرين « بموسكا » و « باريتو » و « ميشلز » أن القوة الاجتماعية يمكن أن تستخدم كمتغير يفسر التغيرات البنائية التى تطرأ على الانساق وقد استخدم ماركس القوة كمتغير تفسيرى لكى يدعم بوجهة نظره عن أهمية وسائل الإنتاج ، كما استخدمه فيبر لكى يدعم به وجهة نظره عن أهمية القيم الثقافية .

٥ - متغيرات تفسيرية أخرى :

وهناك متغيرات أخرى كثيرة يستخدمها علماء الاجتماع وخاصة الامبيريقون منهم لتفسير الظواهر الاجتماعية التى يدرسونها مثل حجم السكان والحضرية والسن والنوع والأسرة والبيروقراطية و الخ ويختلف علماء الاجتماع فيما بينهم فيما يتعلق باستخدامهم لهذه المتغيرات حسب درجة العمومية أو التخصيص فى مستوى التنظير الذى يستخدمون هذه المتغيرات على ضوءه .

هذه هى فئات الافتراضات الأساسية التى قدمها جودون جوبرج بوصفها من أهم المحددات النظرية لكل خطوات البحث الاجتماعى . ويجب أن نشير هنا مرة أخرى الى الترابط بين جميع الافتراضات بعضها البعض فى نسق متكامل يشكل فى النهاية الاطار النظرى للباحث . فإذا كان الباحث مادياً جدلياً مثلاً فإنه سيبدأ بالتسليم بأن أساس الواقع الاجتماعى مادى وأن هذا الواقع فى حالة تغير مستمر وأن التغيرات الكمية تؤدى الى تغيرات كيفية وأن هذا الواقع يتضمن دائماً صراعاً بين الأضداد ، وهذا الصراع هو القوة المحركة للتاريخ حيث ينجم عنه كيف جديد يدخل

فى صراع مع ضده لينجم عن ذلك كيف آخر وهكذا . كما أنه سوف يعتبر وحدة الدراسة الأساسية والمتغير التفسيري الرئيسى هو التكوين الاقتصادى الاجتماعى (اقطاعى - رأسمالى - اشتراكى مثلا) وسوف يركز بصفة أساسية أيضا على دراسة كافة الظواهر الاجتماعية من منظور تاريخى دون أن يجعل الفرد أبدا وحدة الدراسة الأساسية أو المتغير التفسيرى كما أنه سيجعل الحالات النفسية والقيمية والثقافية متغيرات تابعة وليست متغيرات مستقلة .

كذلك سوف يفترض منذ البداية أن الانسان قادر على تغير واقعه الاجتماعى أو بعبارة أخرى على دفع عجلة التغير الى الامام فى اتجاه التطور الاجتماعى حسب القوانين المادية التاريخية وذلك عن طريق فهمه لهذه القوانين وعن طريق عمله الثورى وسوف يفترض هذا الباحث المادى الجدلى أيضا أن الباحث يستطيع أن يؤثر على الظاهرة موضوع الدراسة حتى اثناء دراسته لها فالباحث والظاهرة يدخلان سويا فى علاقة جدلية بالضرورة وسوف يسترشد هذا الباحث فى كل خطوات بحثه بنظرية عامة عن الكون والمجتمع ويستمد من النظرية فروضه الجزئية التى يخضعها للدراسة .

ويختلف ذلك الباحث بالطبع عن باحث آخر وضعى يسلم بافتراضات مخالفة تماما لتلك التى يسلم بها المادى الجدلى . فالباحث الوضعى سوف يبدأ بالتسليم بأن أساس الواقع الاجتماعى فكرى أو قيمى أى مثالى ، حتى لو اتخذ محورا لدراسته بعض المتغيرات التى تبدو مادية مثل التكنولوجيا أو الاقتصاد فانه سيضيف عليها مضمونا فكريا بوصفها نسقا من الأفكار أو المعتقدات وليس بوصفها أشياء مادية كما أنه سيميل الى النظر الى الواقع الاجتماعى على أنه فى حالة من السكون والتكامل والاستقرار وسيجعل وحدة دراسته التى يركز عليها الفرد أو المجموعة الصغيرة . كما أنه سيميل الى افتراض أن الباحث منفصل تماما عن الظاهرة التى يدرسها وأنه لابد أن يكون محايدا تماما عند دراسته لها (وذلك ما تعرض للكثير من النقد على أساس أنه مناف للواقع) ، ولن (م ه - النظرية)

يستخدم الباحث الوضعى نظرية عامة يسترشد بها فى دراسته أو بتعبير أدق لن يعترف بأنه يسترشد بنظرية عامة بل سيدعى أنه يهدف فقط الى مجرد الوصول الى فروض جزئية يمكن التحقق من صدقها بالتجريب وأن النظرية تمثل بالنسبة له نهاية المطاف وسيهمل مثل ذلك الباحث المتغيرات التاريخية والمادية ويهتم بمتغيرات جزئية أو فرعية ذات طبيعة مثالية .

ثانيا : المضمون الأيديولوجى للنظرية :

على عكس ما يدعيه علماء الاجتماع المثاليون لا تخلو نظرية اجتماعية من مضمون أيديولوجى كما سبق أن أوضحنا . وإذا ما عدنا الى الافتراضات الأساسية السابق الحديث عنها والى ما سبق أن شرحناه عن العلاقة بين النظرية والأيديولوجيا لوجدنا أن كلا من الافتراضات التى تتضمنها النظرية ذات بعد أيديولوجى واضح .

وسوف نناقش هذا المضمون الأيديولوجى عند عرضنا للنظريات المختلفة ولكن يجب أن يكون فى أذهاننا ونحن ندرس هذه النظريات بعض الأسئلة التى تدلنا على هذا البعد الأيديولوجى مثل :

١ - ما المجموعات الاجتماعية التى يدافع صاحب النظرية بطريقة صريحة أو ضمنية عن مصالحها ؟

٢ - ما المجموعات التى يؤكد صاحب النظرية أنها صاحبة الحق فى السيطرة على المجتمع ؟

٣ - أى نظام اجتماعى - اقتصادى يصوره صاحب النظرية على أنه النظام الأمثل للبشرية ؟

٤ - ما الجوانب التى يركز عليها صاحب النظرية اهتمامه ويبرزها وما الجوانب التى يتغافل عنها أو يتجاهلها فى الحياة الاجتماعية ؟ ولمصلحة من فى المجتمع يتم هذا الإبراز أو التجاهل ؟

ثالثا : الأدلة الواقعية على صدق الاستنتاجات النظرية :

سبق أن ذكرنا أن النظرية التى لا تستند على وقائع أو أدلة مستمدة من الواقع لا تزيد عن كونها مجرد تأملات عقلية غير علمية ولذلك فإن أى

أحكام أو استنتاجات تتضمنها النظرية يجب لكى نقبلها أن تكون مدعومة بالأدلة .

فإذا أصدر صاحب نظرية ما (مثل باريتو أو موسكا) حكما بأن الحكام يمثلون صفوة المجتمع وأنهم يكونون مزودين بخصائص ومهارات فطرية أو موروثية تؤهلهم لحكم بقية أفراد المجتمع ، أو أن هناك أجناسا بشرية أرقى من غيرها وبالتالي فمن حقها أن تسيطر على غيرها ، وجعل هذا الحكم محورا لنظريته فإننا لا بد أن نتساءل هنا عن الأدلة الواقعية على ذلك . وأن نفتش عن أدلة أخرى تؤكد أو تنفى هذا الاستنتاج .

ويمكننا فى هذا المثال أن نهدم هذا الحكم والنظرية المرتبطة به كلها إذا ما استطعنا أن نثبت أن الصفوة الحاكمة لا تتميز عن غيرها من بقية مجموعات المجتمع الا فى سيطرتها على مصادر الثروة فى المجتمع وأنه إذا انتقلت هذه السيطرة الى مجموعة أخرى ظل يفترض لفترات طويلة طبقا لهذه النظرية أنه تنقصها هذه المهارات (مثل الطبقة العاملة) فإننا فى هذه الحالة نستطيع أن نرفض النظرية بأسرها لأنها تستند على أدلة صادقة .

وكذلك الحال بالنسبة لأحكام أخرى أقيمت عليها النظريات الجغرافية مثل نظرية « مونتسكيه » الذى قرر أن سكان المناطق الباردة يختلفون بالضرورة عن سكان المناطق الحارة فى عقائدهم وخصائصهم النفسية ونظمهم الاجتماعية وأن الطقس والبيئة يلعبان الدور الحاسم فى تحديد شكل المجتمع .

لقد اتضح من المقارنات الواقعية بين مختلف المجتمعات أن هذا الحكم يفتقر الى الأدلة الواقعية بل أن هناك كثيرا من الأدلة التى تنفيه .

رابعاً : الإجراءات العملية التى تشير اليها النظرية :

يجب علينا عند قراءتنا لأى نظرية أن نحاول دائماً أن نستنتج منها الإجراءات التى توجهنا اليها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، ولو عدنا الى مثال النظريات الجغرافية لنترجمها الى إجراءات عملية لوجدنا أنها تعنى مباشرة ، أن سكان المناطق الحارة سوف يظلون على ما هم عليه

من صفات مهما حاولوا تغييرها فيما أن الطقس ثابت فان حالة هذه المجتمعات لا بد أن تكون أيضا ثابتة وبالتالي فلا أمل لديهم في التفكير في أن يصبحوا مثل سكان المناطق الباردة . كما أن نظرية الصفوة توحى لنا أيضا بأن على جميع الناس أن يخضعوا لهذه الصفوة لأنها هي الأقدر على الحكم وتسيير دفة المجتمع ، والعلماء الذين يفترضون أن المجتمع في حالة اتزان وتكامل وينفون فكرة الصراع فيه إنما يدعون الناس الى المحافظة على حالة الاتزان المفترضة هذه ويحذرونهم من الثورة أو التمرد على أى أوضاع جائزة قائمة لأن من شأن ذلك الاضرار بكيان المجتمع .

والعلماء الذين يفترضون أن قدرات الانسان على تغيير واقعه الاجتماعى محدودة يدعون الناس الى قبول الواقع الاجتماعى كما هو عليه والى أن يرضى كل انسان بقدره ونصيبه وألا يسعى الى تغيير هذا الواقع .

تلخيص :

يتعين علينا عند دراستنا النظرية الاجتماعية أن نتبع الخطوات التالية :

أولا : قراءة وفهم واستيعاب هذه النظرية بكافة أبعادها .

ثانيا : استخلاص المسلمات الأساسية التى تركز عليها كل تفاصيل النظرية .

ثالثا : اثاره التساؤلات الآتية والحصول على اجابات عليها من النظرية ذاتها .

١ - كيف تصور النظرية الواقع الاجتماعى بشكل عام ؟

هل تؤكد أن أساس هذا الواقع مثنالى (القيم والأفكار والمعتقدات الخ) أم تؤكد أن أساسه مادي (كيفية انتاج أفراد المجتمع لمستلزمات معيشتهم وكيفية توزيع عائد هذا الانتاج ونوعية العلاقات المترتبة على ذلك) ؟

– هل تؤكد أن الواقع الاجتماعى فى حالة ثبات وتوازن ، أم تؤكد أنه فى حالة صيرورة وتغير دائمين ؟

– هل تؤكد أن التغير ضرورى لاستمرار المجتمع أم تؤكد أنه مغل ببقاء المجتمع ومهدد لاستمراريته ؟

– هل تؤكد أن المجتمع تسوده دائما (ويجب أن تسوده حالة من التكامل والاتفاق الاجتماعى بين أفرادہ بغض النظر عما بينهم من اختلافات وبغض النظر عن طبيعة النظام الاجتماعى الاقتصادى أم أن هناك فيه حالة من الصراع بين المجموعات لاختلاف مصالح كل منها داخل النظم الاجتماعية التى تخلق التفاوت بين المجموعات .

– هل تؤكد على أن وحدة دراسة الواقع الاجتماعى هى الفرد أم المجموعة أم المجتمع الكبير ؟

٢ – كيف تصور النظرية طبيعة الانسان :

– هل تصور الانسان على أنه قادر دائما على تغيير واقعه الاجتماعى أم تصوره على أنه محكوم بهذا الواقع وليس عليه الا ان يتلاءم معه .

– هل تصور الانسان على أنه كائن منطقى عقلانى أم على أنه غير عقلانى ؟

– هل تصور الانسان على أنه انانى بطبعه أم على أنه اجتماعى ؟

٣ – كيف تصور النظرية علاقة العالم بالظواهر الاجتماعية التى يدرسها ؟

– هل تسلم بأن العالم جزء من الظواهر التى يدرسها يؤثر فيها ويتأثر بها فى نفس الوقت أم تسلم بأنه منعزل عنها .

– هل تسلم بأن هدف العلم الاجتماعى دراسة الظاهرة من أجل تغييرها وتطويرها أم من أجل الابقاء عليها والحفاظ على وضعها ؟

- ٤ - ما مدى الشمول فى النظرية ؟
- هل تقدم تصورا عاما عن المجتمع الانسانى بأسره ؟
- هل تقدم تصورا عاما عن نوع معين من المجتمعات ؟
- هل تقتصر على تقديم تصور عن أنواع معينة من الظواهر ؟
- ٥ - ما هى نوعية المتغيرات التى تعتمد عليها النظرية فى تفسير الظواهر الاجتماعية المختلفة ؟
- هل هى متغيرات تاريخية ؟
- هل هى متغيرات مادية (اقتصادية مثلا) .
- هل هى متغيرات مثالية (الأفكار والقيم) .
- هل هى متغيرات جغرافية وطبيعية ؟
- ٦ - هل تميز النظرية بين القوانين العامة (أو الأحكام العامة) التى تنطبق على المجتمع الانسانى ككل وبين القوانين النوعية التى تنطبق على كل نوع من أنواع المجتمعات وكل مرحلة من مراحل تطورها أم تقوم بالتعميم من نوع واحد على الانسانية ككل ؟
- ٧ - ما المضمون الايديولوجى للنظرية ؟
- ما النظام الاجتماعى الاقتصادى الذى تصوره النظرية على أنه النظام الأمثل للبشرية ؟
- ما المجموعات الاجتماعية التى تدافع النظرية بطريقة صريحة أو ضمنية عن مصالحها ؟
- ما المجموعات التى تؤكد النظرية أنها صاحبة الحق فى السيطرة على المجتمع ؟
- ما الجوانب التى تبرزها النظرية وما الجوانب التى تتغافل عنها أو تتجاهلها فى الحياة الاجتماعية ؟

– ما موقف صاحب النظرية السياسى وما الأدلة على انتماءاته وولاءاته الاجتماعية ؟

٨ – ما الأدلة الواقعية على صدق المسلمات والاستنتاجات التى تتضمنها النظرية ؟

– هل هناك أدلة تاريخية على صدقها وما هى ؟

– هل هناك أدلة من علوم أخرى تؤكدتها ؟

– هل اتبع المنهج العلمى فى الوصول الى هذه الأدلة ؟

– هل تدعونا النظرية للتفتيش عن الأدلة ومناقشتها أم تقدم لنا أفكارا باعتبارها حقائق لا تقبل المناقشة ؟

– هل الأدلة التى تقدمها النظرية على صدق مقولة ما كافية وهل توجد أدلة مناقضة ؟

٩ – ما الاجراءات العملية التى تشير اليها النظرية اذا استرشدنا بها فى التطبيق أو فى رسم السياسات الاجتماعية ؟ هل تشير علينا بالحفاظ على الوضع القائم فى المجتمع وعلى نوعية العلاقات القائمة بين المجموعات الاجتماعية فى المجتمع الواحد وبين المجتمعات (المتقدمة والمتخلفة مثلا) دون أحداث تغييرات فى البناء الاجتماعى أم تدعونا الى تغيير هذا الواقع وتطويره ؟ هل تدعونا الى أن نرسم سياساتنا الاجتماعية بحيث نعمل على جعل الانسان يتكيف ويتلاءم مع الواقع الذى تصوره على أنه ثابت ، أم تدعونا الى تغيير الواقع ليتلاءم وحاجات الانسان .
بعبارة أخرى هل الاجراءات التى تدعونا اليها النظرية ذات طبيعة محافظة Conservative أى تهدف الى ابقاء الوضع على ما هو عليه أم هى اصلاحية ليبرالية Liberal تدعونا الى أحداث تغييرات ثانوية طفيفة أم أنها ثورية هدفها خلق أوضاع جديدة تماما ومتطورة ؟

ان اجابتنا على هذه التساؤلات بعد استيعابنا لأى نظرية اجتماعية ندرسها هى التى تساعدنا على اتخاذ موقف محدد منها ، وفى رأينا أن هذه التساؤلات تمثل المعايير العلمية ، وقد أثارها علماء اجتماع يتصفون

بسعة الافق والقدرة على التفكير النقدي الايجابى وساعدتهم على أن يقدموا اسهامات مفيدة لعلم الاجتماع فحظوا بتقدير واحترام المشتغلين بهذا العلم ، ومن أمثلة هؤلاء العلماء : « رايت ميلز » وجدعون جوبرج وآلفن جولدنر وزايتلين وروبين بلاكبورن .

كلمة أخيرة أود أن أذكرها بهذا الصدد ، ان دراستنا للنظرية الاجتماعية بصفة خاصة ولعلم الاجتماع بصفة عامة يجب أن تكون موجهة بهدف أساسى هو مستقبل مجتمعا . فهل الاجراءات العملية التى تشير اليها النظرية الاجتماعية تدعونا الى تغيير واقع هذا المجتمع وتطويره للحاق بركب التقدم أم انها تصرف انتباهنا عن الهدف وتكرس حالة التخلف والتبعية التى تعاني منها مجتمعات العالم الثالث . هل النظرية الاجتماعية اذا طبقنا عليها المعايير العلمية الصحيحة لتقييم نظرية علمية فعلا أم انها لاتزيد عن كونها سلاحا أيديولوجيا يتخفى وراء ستار العلم ؟

الباب الثاني

النظريات الكلاسيكية ونقدها

الفصل الرابع : أوجست كونت

الفصل الخامس : اميل دوركايم

الفصل السادس : ماكس فيبر

الفصل السابع : فلفريدو باريتو

الفصل الثامن : كارل ماركس

الفصل الرابع

وضعية كونت وسكونية المجتمع

قليلون هم الذين ما زالوا ينكرون أو ربما لا يعلمون الموقف السياسي لأوجست كونت وتحيزاته التطبيقية الأيديولوجية وارتباط ذلك الموقف الأيديولوجي له بما صاغه من نظرية عامة عن المجتمع الانساني . ولكن كثيرون هم الذين ما زالوا غير قادرين على ادراك أن أفكار كونت الأيديولوجية التي لبسها لباس العلم الاجتماعى ما زالت هي ذاتها التي تشكل لب وجوهر علم الاجتماع التقليدى فى الغرب مهما اتخذت من أساليب وصور نظرية متنوعة قد تجعلها تبدو للنظرة السطحية مغايرة لأفكار كونت . وسوف نحاول فى هذا الفصل ابراز موقف كونت الأيديولوجى وانعكاساته على نظريته بما تضمنته من مسلمات أساسية وما تشير اليه من اجراءات تطبيقية ؟ ثم تكشف فى الفصول التالية عن تطابق مسلمات كونت النظرية مع مسلمات غيره من علماء الاجتماع الكلاسيكيين ومع مسلمات علماء الاجتماع التقليديين المحدثين فى الغرب .

الموقف الأيديولوجى لأوجست كونت :

ان كل من تعرض من المؤلفين فى النظرية الاجتماعية لأوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) لم يستطع ، حتى ولو أراد ، أن يتجنب الإشارة لموقف كونت الأيديولوجى ذلك أنه كان من الصراحة والوضوح بحيث لم تخل أى من كتاباته من دليل عليه .

ان اهتمام كونت بالنظرية الاجتماعية ، بل ان اختراعه اسم « علم الاجتماع » ، قد نبع من دوافع سياسية أكثر منها علمية أو فكرة بحثية . وفى ذلك يقول نيقولا تيماشيف :

« لقد روع كونت بالآثار الهدامة للثورة الفرنسية . شأنه في ذلك شأن كثير من فلاسفة هذه المرحلة ، وبخاصة الفلاسفة الاجتماعيين أمثال بونال وجوزيف دي ميستر ، كما روعته الفوضى التي ترقبت على تقويض الجماعات الاجتماعية الوسيطة بين الأسرة والدولة بالقوة ، ولذلك كان اصلاح المجتمع هو شغل كونت الشاغل منذ البداية ، وكان ذلك هو الهدف الرئيسى فى حياته . ولما كان العلم الجدير بذلك غير متاح وغير قائم ، فقد كرس جهوده لخلقه (١) . »

علم الاجتماع اذن كان بالنسبة لكونت هو الركيزة التي يجب تطويرها والاعتماد عليها لاصلاح المجتمع ، ففى أى اتجاه كان كونت يريد الاصلاح وما دور علم الاجتماع فى ذلك ؟ يمكننا أن نستدل على نوايا كونت من خطاب كتبه الى نيقولا قيصر روسيا قال فيه :

« ان الثورة الجماعية للمفكرين المحدثين ضد كل أشكال السلطة السابقة قد خلقت بالتدريج لدى كل فرد ميلا معتادا لعصيان العقل للقلب مما يؤدى الى القضاء على كل نظام انسانى . وهكذا فان الغرب بأسره يتجه نحو الشيوعية الهمجية التي تسحق فيها الحرية الحقيقية تحت وطأة المساواة المهينة والمخزية » (٢) . »

وقد أرفق كونت بهذا الخطاب نسخة من كتابه « الفلسفة الوضعية » وأيد فى خطابه ديكتاتورية الحاكم وعبر عن اقتناعه بأن أسلوب الحكم الديكتاتورى هو المناسب للقيام باصلاحات تنقل روسيا الى المجتمع الوضعى . »

ولم تكن الشيوعية التي يخشاها كونت هى مجرد النظام الاجتماعى الذى تنادى به الماركسية أو الفكر الاشتراكى ولكن كل شىء وكل فكر تحررى بوجوازي . ففلسفة التنوير اعتبرت شيوعية ونظام الاصلاح المالى البورجوازي اعتبر شيوعيا ودفاع الشخص عن نفسه مستخدما عصا اذا

(١) نيقولا تيماشيف . مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥ .

(٢) Stern, Bernard J. Histortcal Sociolog (New York), Citadel press. 1959). p. 196.

هوجم ببندقية نظر اليه على أنه من شرور الشيوعية ، والنظام البرلماني الديمقراطي نظر اليه على أنه مساواة مهينة ومخزية . لقد انضم كونت الى زعماء الثورة المضادة للثورة الشعبية في فرنسا وسخر نفسه في خدمتهم .

لقد عارض كونت كما يقرر مؤرخ علم الاجتماع الامريكي برنارد سترن Bernard Stern النظام البرلماني وهلل للانقلاب الذي قاده الديكتاتور لويس بونابارت . وقد أعلن كونت سعادته بالنظام الديكتاتوري بقوله : « ان جمهوريتنا قد انتقلت من المرحلة البرلمانية التي لا تناسب الانجلترا في المرحلة الانتقالية التي تمر بها ، الى المرحلة الديكتاتورية ، وهي التي تمثل النظام الأوحده المناسب لفرنسا مع العلم بأنه نظام مناسب أيضا لغيرها من البلدان الكاثوليكية كما نرى في اسبانيا . لقد تخلينا عن أوهام الدستورية وليس هناك من سبيل آخر للقضاء على الثورة سوى اقامة تحالف فعال بين النظام والتقدم » (٣) .

ولم يكن كونت معاديا للاشتراكية والديمقراطية فحسب ولكنه كان أيضا شديد العداء لأبسط حقوق العمال في اقامة روابط أو نقابات أو منظمات سياسية تدافع عن حقوقهم وتحقق العدالة الاجتماعية ، ودعا الى اعادة البناء الروحي للطبقة العاملة Spiritual Construction حتى يمكن اعادة بناء المجتمع ، ولذلك رأى أن التربية هي الوسيلة الأساسية للإصلاح الاجتماعي .

لقد أيد كونت اقامة النظم الديكتاتورية وقمع أي حركات راديكالية ولكنه قرر في نفس الوقت أن التربية يجب أن تكون الوسيلة الأساسية لإصلاح المجتمع ، فالاستمالة في رأيه خير من العنف لأنه كان يدرك أن العنف من جانب السلطة سوف يولد عنفا لدى الجماهير وفي ذلك يقول كونت : « ان الهدف الجوهرى للسياسة العملية يجب أن يكون تجنب الثورات العنيفة التي تنشأ عن العقبات التي توجد في طريق تقدم الحضارة واختزال هذه الثورات الى مجرد حركات أخلاقية » . ورسم كونت

الطريق لتجنب الثورات العنيفة بقوله : « يجب أن نعرف بأخبر درجة من الدقة الاتجاه الفعلى للحضارة حتى نستطيع أن نجعل سلوكنا السياسى متفقا معه وحتى يمكن تجنب الصدام مع الطبقات الحاكمة ومنع أى خطر يمكن أن يلحق بنظام الملكية الخاصة » .

وقد اتخذت كونت موقفا عدائيا من الايديولوجيات الثلاث الرئيسية السائدة فى عصره وهى الليبرالية والاشتراكية والشيوعية ، وبذل كل جهده للحد من انتشارها « فقد رفض منذ البداية الليبرالية الفلسفية بكل متضمناتها ومقتضياتها السياسية والاقتصادية رغم أن المظاهر الاقتصادية لهذه الحركة كانت تنادى بضرورة رفع القيود والحواجز المفروضة على الحياة الاقتصادية لاتاحة الفرصة لظهور الحوافز الفردية التى تساعد على النجاح . كذلك وقف موقف المعارضة السافرة الصريحة من الشيوعية التى كان يعتبرها ايديولوجية لا أخلاقية ، ودخل فى حوار عنيف مع الاشتراكية انتهى به الى رفضها لأنها تقف موقف العداء من المجتمع البورجوازى وتحاول تغييره عن طريق الثورة وليس عن طريق التوعية أو عن طريق التغير التدريجى البطيء . وهذا معناه فى آخر الأمر أن أوجست كونت يرى أن المجتمع الإنسانى يعيش على تنظيم أكثر مما يعيش على الايديولوجيات وأن أفضل صورة للحياة الاقتصادية والسياسية هى بالتالى الرأسمالية وبالذات الرأسمالية الأوربية(٤) .

وعلى الرغم من أن أوجست كونت قد دعا الى انشاء علم جديد لدراسة المجتمع اسماء علم الاجتماع الا أنه كان طوال حياته وفى كل مؤلفاته رجلا أخلاق وداعية ايديولوجية أكثر منه عالما ، بل ان بعض المؤلفين اعتبروه مدعيا للنسوة وأنه اعتبر نفسه نبيا للإنسانية يبشر بدين جديد هو الوضعية . وقد وصفه دانكان ميتشل فى قاموس علم الاجتماع بقوله : « فيلسوف ورجل أخلاق وعالم اجتماع فرنسى »(٥) . وصور

(٤) أحمد أبو زيد . العلوم الانسانية والصراع الايديولوجى . مجلة عالم الفكر - المجلد

الثانى - المجلد الثانى ١٩٧١ . ص ٢٥٠ .

(٥) Duncan Michel; A Dictionary of Sociology. Routledge and Kegan Paul. London. 1968.

كونت علماء الاجتماع بصورة القساوسة أو قساوسة الدين الجديد للبشرية ووضع ترتيبا هرميا لهم يشبه التدرج فى الكنيسة الرومانية ، بل انه تعدى هذا كله الى حد تسمية أيام السنة بأسماء قديسين وضعيين وحدث ذلك بعد أصابته بالاضطراب العصبى الشديد فى سن الثامنة والعشرين .

ومن الثابت تماما أن أفكار كونت النظرية التى حاول أن يصبغها بالصبغة العلمية لم تنفصل أبدا عن أفكاره العملية أو الاجراءات التى كان يريد أن تتبع فى المجتمع « لقد كانت النظرية ترتبط عنده دائما أبدا بالفعل أو باجراءات اجتماعية ، لقد كان ، مثل غيره من أنبياء باريس ، شخصا ملتزما تماما يعرف جيدا ما يريد أن يكون عليه المستقبل ويرسم صورة هذا المستقبل بأكبر قدر ممكن من التفاصيل الدقيقة » (٦) .

ومع هذا فإن علم اجتماع كونت أو ما أسماه علم الاجتماع الخالص Pure Sociology (١) هو الذى أصبح علم الاجتماع الأكاديمى أو علم الاجتماع السائد فى الجامعات فى أوروبا الغربية والذى وصل الى قمة تطوره التنظيمى فى الولايات المتحدة الأمريكية (٧) . وسوف يتبين لنا عند عرضنا لأقوى الاتجاهات النظرية الحديثة فى علم الاجتماع ، وبخاصة الوظيفية ، التشابه الشديد بينها وبين أفكار كونت الأساسية .

ولكن كيف ترجم كونت آراءه السياسية وموقفه الايديولوجى المنحاز تماما الديكتاتورية والرأسمالية المستبدة الى نظرية اجتماعية يدعم بها هذه الآراء ويبرر بها النظام الذى ارتأى أنه أصلح نظام للبشرية ؟

أولا : المنهج والفلسفة الوضعية Positive philosophy :

أن أول من استخدم لفظ الوضعية هو هنرى كونت سان سيمون Henri Conte de Saint Simon وكان يعنى به استخدام الطريقة

Robert W. Friedrichs : A. Sociology of Sociology. The (٦) Free Press. New York. 1970. pp. 79 - 71.

Alvin Gouldner. The Coming Crisis of Western Sociology. (٧) Heinemann. London, 1971, p. III.

العلمية وتطبيقها على الفلسفة ، وقد تبني أوجست كونت هذا اللفظ وصاغ حوله نظرية فلسفية اجتماعية عامة انتشرت على نطاق واسع في بلدان العالم الغربي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين .

وقد رأى كونت أن الوضعية تمثل الأساس الذي يجب أن ترتكز عليه كل محاولات التنظيم الاجتماعي للقضاء على الفوضى الاجتماعية (التي تتمثل في الحركات النقدية) التي كانت توجد في أوروبا في عصره من وجهة نظره . ولفظ الوضعية Positivism يعنى الايجابية أو اتخاذ موقف ايجابي مما هو قائم في المجتمع وليس موقفا نقديا أو رفضا أو سلبا لهذه الأوضاع القائمة كما يفعل المفكرون النقادون . وهنا نرى أول ترجمة لايديولوجية كونت الى مبادئ نظرية . فهو بتبنيه الفلسفة الوضعية أو الايجابية قد أقر مبدأ النظر الى الواقع الاجتماعي القائم نظرة ايجابية وقبوله على ما هو عليه واستبعد منذ البداية أي محاولة لنقده أو تغييره . وهذا الواقع هو التنظيم الاجتماعي الراسمالي القائم على الملكية الخاصة وعلى الحكم المطلق (٨) .

وقد رفض كونت أن ترتبط النظرية الاجتماعية بأي فلسفة نقدية أو سلبية ، كما رفض أن يولى أي اهتمام للاقتصاد السياسي كأساس لفهم المجتمع ، ورأى أن أي معارضة للحقائق الاجتماعية الواقعة يجب أن تمحى من المناقشة الفلسفية . وقد خالف كونت فلاسفة عصر التنوير الفرنسيين الذين كانوا يقيسون العمل الانساني أو الفاعلية الانسانية بمقياس حقيقة تعلو على النظام الاجتماعي القائم أي بتنظيم اجتماعي لا يوجد بوصفه واقعا بل يوجد بوصفه هدفا والذين رأوا أن الناس يمكنهم تغيير أشكال الحياة الحالية التي يعيشون عليها . وبدلا من ذلك رأى كونت أن النظام الاجتماعي القائم هو وحده الذي يمثل الحقيقة وأن وظيفة علمه الجديد هي مجرد تسجيل حقائق هذا النظام وبذلك كانت نظرية

كونت الوضعية منذ نشأتها دفاعا ايديولوجيا عن مجتمع الطبقة الوسطى كما كانت تحمل بذور تبرير فلسفى للنزعة التسلطية وعودة لالغاء العقل والتشهير به (٩) وأكد كونت بفلسفته الوضعية فكرة عجز الانسان عن تغيير عالمه الاجتماعى وذلك بسلب ملكة النقد عنده وجعله أسير الواقع الذى يعيشه واصراره على حرمانه من اعمال عقله وتصور واقع آخر مستقبلى يقيس عليه واقعه الحاضر .

ويرى هربرت ماركيز الفيلسوف الأمريكى أن وضعية كونت تشترك مع فلسفات الثورة المضادة لعصر التنوير فى عنصر أساسى هو رفض القول بأن الانسان قادر على تغيير نظمه الاجتماعية واعادة تشكيلها وفقا لارادته العاقلة . ومن أبرز فلاسفة الثورة المضادة بونال Bonaled وديمستر De Maistre . فقد أراد بونال أن يثبت أن الانسان لا يستطيع أن يضيف تركيبا معيناً على المجتمع الدينى أو السياسى ، تماما كما لا يستطيع أن يعطى الجسم وزنا أو المادة امتدادا ورأى أن تدخل الانسان لا يودى الا الى منع المجتمع من بلوغ تركيبه الطبيعى . كما أراد ديمستر أن يبين أن العقل الانسانى لا يزيد سعادة الدول أو الأفراد شيئا وأن هذا العقل لا جدوى منه على الاطلاق ومن الواجب قمع أى روح ثورية بنشر تعاليم أخرى تقول أن للمجتمع نظاما طبيعيا ثابتا ينبغى أن تخضع له ارادة الانسان (١٠) .

لقد روج كونت فى فلسفته الوضعية لفكرة القوانين الثابتة التى تحكم الظواهر الاجتماعية تماما مثلما تحكم الظواهر الطبيعية والبيولوجية .

ونحن نؤكد على حقيقة أن وظيفة الفلسفة بوجه عام هى الكشف عن القوانين العامة والثابتة نسبيا التى تحكم الكون وأن وظيفة العلم الاجتماعى هى الكشف عن القوانين العامة والثابتة نسبيا التى تحكم المجتمع .

(٩) هربرت ماركيز . العقل والثروة . ترجمة فؤاد زكريا . الهيئة المصرية للكتاب للتأليف والنشر . القاهرة ، ١٩٧٠ ص ٣٢٧ - ٣٢٩ .
(١٠) المرجع السابق ص ٣٣٠ .

ولكننا فى نفس الوقت نرى أن كونت قد خلط عن قصد بين ثبات القوانين والظواهرات التى تحكمها القوانين وقدم مفهوما غير علمى على الإطلاق للقانون . فالقانون العلمى فى أساسه قاعدة للتغير وليس للثبات فى الظاهرة التى يتناولها . ولولا تغير الظواهرات لما كانت هناك بنا حاجة لأى قوانين . فقانون تمدد المعادن مثلا قانون ثابت ، ولكن ليس معنى ذلك أن حالة المعادن ثابتة ، وهذا القانون ليس سوى قاعدة لكيفية تغير حالة المعادن بتغير الظروف التى تؤثر عليها (مثل درجة الحرارة) . والحقيقة أن هذا القانون هو وسيلتنا فى التحكم والسيطرة على الظاهرة التى يحكمها وتغييرها وفقا لارادة الانسان . أما كونت فقد استغل اعجاب الناس بالقوانين الطبيعية وجهلهم بها فى نفس الوقت فى إيهامهم بأن هناك قوانين ثابتة للمجتمع مما يعنى أن المجتمع ثابت وبالتالي ليس علينا إلا الاستسلام للواقع الذى نعيشه مهما كنا غير راضين عنه ، وبدلا من أن نغير منه علينا أن نغير من أنفسنا لنتلاءم معه ، وهذا التغير يمكن أن يحدث عن طريق التربية الأخلاقية . وبذلك خرج كونت كلية على الروح العلمية التى ادعى أنه يدعو إليها ، بل أن الأمر وصل به فى أواخر أيامه الى اللاعقلانية الكاملة الميتافيزيقية والى أن تتحول فلسفة كونت الوضعية الى مذهب دينى يشتمل على عبادة واسعة النطاق لأسماء ورموز وعلامات .

وقد ذكر كونت فى مؤلفيه الأساسيين ؛ دروس فى الفلسفة الوضعية (١٨٢٠ - ١٨٤٢) ومذهب فى السياسة الوضعية (١٨٥١ - ١٨٥٤) صراحة وفى أكثر من موضع أن فلسفته الوضعية هى السلاح الوحيد القادر على محاربة القوة الفوضوية وهى وحدها التى يمكن أن تنجح فى امتصاص النظرية الثورية الشائنة . « والحق أنه ندر أن تجد فى الماضى فلسفة تطالب بمثل هذا الإلحاح وبمثل هذه الصراحة بأن تستخدم فى حفظ السلطة القائمة ، وحماية المصالح الموجودة من كل هجوم ثورى » (١١) .

ان فلسفة كونت الوضعية التى أقام عليها علم اجتماعه كانت شديدة الوضوح فى دفاعها عن الوضع الاجتماعى القائم وفى تبريرها لمشروعية سيطرة القوى الاجتماعية الرأسمالية على المجتمع ، وربما كان هذا سببا من أهم الأسباب التى أدت بالعلماء الاجتماعيين فيما بعد الى التخلي عنها وتقديم صور بديلة لها تعتمد على نفس مسلماتها ولكن تخفى الارتباطات القوية بين النواحي الايديولوجية والنواحي المنهجية منها وهذا ما نشاهده فيما يعرف بالاتجاه الأمبريقى الحديث فى علم الاجتماع — ذلك الاتجاه الذى يزعم أصحابه أنهم محايدون تماما من الناحية الايديولوجية ولكنهم فى نفس الوقت يتبعون مبادئ كونت فى دراستهم للمجتمع وأهمها التأكيد على الأهمية القصوى للملاحظة الوقائع وتسجيلها والابتعاد عن التأمل والتفكير فيها . « وقد أراد كونت من احلاله للملاحظة محل التأمل تأكيد النظام بدلا من الخروج عليه وهو بذلك قد نقل مصدر اليقين من الذات المفكرة الى الذات المدركة حسيا وفى هذا المجال تمدنا الملاحظة العلمية باليقين ، وتراجع الوظائف التلقائية للفكر ، على حين ان وظائفه السلبية المتلقية تصبح لها مكانة الصدارة (١٢) .

وفلسفة كونت الوضعية بالغائها للذات المفكرة ودعوتها المنهجية الى أن يكون موضوع الفلسفة والعلم الاجتماعى هو الواقع القائم بحيث يصبح مجال الملاحظة الحسية يتنافى فى رأينا تماما مع كل دروس التاريخ ومبادئ العلم ، فالحضارة الانسانية بأسرها ما كانت لتتقدم وتتطور لولا اعتماد الانسان على ذاته المفكرة القادرة على تصور مستقبل أو وضع آت لا وجود له بعد والسعى الى تغيير الواقع القائم ليتطابق مع الصورة المستقبلية . لقد تصور الانسان مثلاً أنه قادر على تحدى الجاذبية الأرضية والتحليق فى الفضاء كالطيور فى وقت لم يكن يمكنه فيه ذلك . وظل هذا الحلم يراوده وظل يبحث ويدرس ويجرب حتى استطاع أن يجيله الى واقع فعلى ، وتصور الانسان أنه قادر على بلوغ القمر حتى حول هذا الحلم الى واقع ، ولو أن الانسان قد ظل أسير ملاحظاته الحسية

للواقع الطبيعى ولم يتخيل واقعا آخر مغايرا له ، أى لو لم يكن لديه مقياس آخر يقيس عليه واقعه لما حقق أى تقدم علمى أو حضارى بل لانقرض الجنس البشرى مثلما انقرضت حيوانات أخرى كثيرة لا تملك القدرة على التصور والتخيل . وما حدث بالنسبة للواقع الطبيعى حدث أيضا بالنسبة للواقع الاجتماعى . ان النظام الاجتماعى الذى يدافع كونه عنه ويطالب العلم بالاقتصاد على دراسته وملاحظته ويحرم على المفكرين تصور نظام آخر غيره هو نفسه قد جاء نتيجة تصوره قبل أن يكون له وجود ونتيجة كفاح مرير وتضحيات بالغة من أجل تحقيقه ، فلماذا اذن تتوقف قدرة العلم والانسان على تصور المستقبل وعلى تغيير الواقع عنده ؟ لقد أصبح من الثابت أن أوجست كونت وغيره من الوضعيين قد أرادوا للانسان ذلك لأنهم (كانوا يريدون أن تظل السيادة فى المجتمع للرأسمالية الصناعية ولذلك فإنهم وضعوا فلسفتهم أو علمهم فى خدمتها ورأوا أن الوظيفة الأساسية للمعرفة العلمية هى المساعدة على تطوير الرأسمالية الصناعية والحفاظ على نظام الملكية الخاصة) (١٣) .

ثانيا : علم اجتماع كونت وسكونية المجتمع :

حدد أوجست كونت موضوع علم الاجتماع « أو الفيزياء الاجتماعية ، كما كان يسميه من قبل بأنه دراسة الظواهر الاجتماعية بنفس الأسلوب الذى تدرس به الظواهر الفلكية والطبيعية والبيولوجية على اعتبار أن هذه الظواهر تخضع كلها لقوانين طبيعية ثابتة . ولكن الظواهر الاجتماعية عند كونت لم تكن تعدو الظواهر الفكرية أو العقلية فى المجتمع . وعرف علم الاجتماع فى مؤلفه « الفلسفة الوضعية » بأنه دراسة ظواهر العقل الانسانى والأفعال الانسانية الناتجة عنه . وبذلك أخرج كونت الواقع المادى الاجتماعى من نطاق دراسة علم الاجتماع . والأفكار بالنسبة لكونت هى التى تحكم العالم وتجعله منظما أو هى التى تحيله الى حالة من الفوضى والحالة الفكرية هى التى توجه وتحدد كل

ما عداها من صور الحياة الاجتماعية . ورأى كونت أن جوهر العملية التاريخية هو تطور الفكر . وبناء على ذلك قدم ما أسماه بقانون المراحل الثلاث The law of the three Stages (١٤) ومؤدى هذا القانون أن العقل الإنسانى يمر بمراحل ثلاث : المرحلة الأولى وهى ما أسماها بالمرحلة اللاهوتية Theological وهى تلك التى يفسر فيها العقل الظاهرات عن طريق نسبتها الى قوى أو كائنات غير منظورة لها خصائص الانسان . والمرحلة الثانية هى ما أسماها بالمرحلة الميتافيزيقية Métaphysical وهى تلك التى يفسر فيها العقل الظاهرات عن طريق قوى مجردة مثل الطبيعة . والمرحلة الثالثة هى ما أسماها بالمرحلة الوضعية positive وهى التى يقنع فيها الانسان بملاحظة الظاهرات واستخلاص الروابط التى توجد بين بعضها سواء فى وقت معين أو مع مرور الوقت .

وقد أقام كونت مجموعة من الارتباطات - خلال مناقشته المطولة لنمو طبيعة الانسانية ، وهى أكثر المجتمعات تقدما - بين المراحل العقلية الأساسية ومراحل تقدم الحياة المادية للانسان ونموها ، وأشكال الوحدات الاجتماعية ، وأنماط النظام الاجتماعى ، والمشاعر الغالية أو السائدة ، ويمكن وضع هذه الارتباطات على النحو التالى (١٥) .

المرحلة العقلية	المرحلة المادية	نموذج الوحدات الاجتماعية	نموذج النظام	نموذج المشاعر
١ اللاهوتية	العسكرية	الأسرة	منزلى	المحبة والانتماء
٢ الميتافيزيقية	التشريعية	الدولة	جمعى	الاحترام والتوقير
٣ الوضعية	الصناعية	الانسانية	عالمى	الاحسان والخير

Raymond Aron. Main Currents in Sociological Thought. (١٤)
Penguin Books : England. 1965. p. 65 - 68.

(١٥) نيقولا تيماشيف : نظرية علم الاجتماع ، مرجع سبق ذكره ص ٤٢٠ .

وهكذا نرى أن افتراض كونت عن طبيعة الواقع الاجتماعى افتراض مثالى idealist بمعنى أنه يرى أن الفكر أو الحالة العقلية هى التى تحدد ماعداها من كافة صور الحياة الاجتماعية ، فالفكر اللاهوتى يجعل النظام العسكرى هو السائد ويجعل من الأسرة نموذجا للوحدة الاجتماعية ويحدد نوعية المشاعر وإذا تأملنا الجدول السابق لوجدنا أنه يخلو تماما من أى اشارة الى طبيعة الحياة الاجتماعية الانتاجية كما وجدنا خلطا كبيرا فى المفاهيمات • فالمرحلة الصناعية التى صاحبت الوضعية سبقتها مرحلة تشريعية ومرحلة عسكرية ، وكأن كونت يجعل من المرحلة الصناعية أيضا مرحلة سياسية بينما لا يبين ارتباط المرحلة التشريعية أو العسكرية بأى نوع من أنواع النشاط الانتاجى •

والمرحلة الوضعية عند كونت هى نهاية المطاف فى تاريخ البشرية وهى تتصف بكل ما هو خير وجميل ففيها العلم والصناعة والانسانية والعالمية والاحسان والخير ولا يخفى هنا أيضا تقدير كونت للماضى الذى كان يتصف بالاحترام والتوقير والمحبة والتعلق •

لقد تحول تاريخ البشرية جمعاء عند كونت الى تاريخ افكار ومشاعر ثم اصيب هذا التاريخ بالجمود والتوقف عند القرن التاسع عشر ولم يعد أمام الانسانية هدف تصبو اليه الا المحافظة على ما وصلت اليه والتحسين منه ، فليس فى الامكان ابداع مما كان •

وقد سلم كونت بأن مجتمعات البشرية لم تسر فى نفس هذا الخط من التقدم بنفس الدرجة ولكن حدث تفاوت فيما بينها فى بلوغ المرحلة الوضعية أو الصناعية والدول الأوربية هى التى وصلت الى هذه المرحلة ، وفسر ذلك تفسيراً عنصرياً إذ أنه قد افترض أن الأجناس البشرية تتفاوت فيما بينها من البناحية العقلية وأن الجنس الأبيض هو أرقاها ولهذا فقد سبق غيره من الأجناس فى الوصول الى المرحلة الوضعية •

« ولقد كان تفسير كونت للتاريخ على أساس مضاد للمادية عاملاً على تيسير مهمته • فهو قد احتفظ بفكرة عصر التنوير القائلة بأن التقدم هو قبل كل شئ تقدم عقلى ، وهو النمو المستمر للمعرفة الوضعية ، غير أنه أفرغ فكرة عصر التنوير هذه من مضمونها المادى بقدر ما استطاع ،

وبذلك التزم بالوعد الذى قطعته على نفسه ، وهو أن يستعيز بحركة عقلية ضخمة عن القلاقل السياسية العقيمة . . . ففكرة التقدم عند كونت تستبعد الثورة ، والتغيير الكلى لنسق الظروف الموجودة . ولا يعدو النمو التاريخى الا تطورا متوافقا للنظام الاجتماعى فى ظل قوانين طبيعية ثابتة ، (١٦) .

وقد أطلق كونت على دراسته لتتابع هذه المراحل التاريخية تسمية الديناميكا الاجتماعية أو علم الاجتماع الديناميكي فى مقابل علم الاجتماع الاستاتيكي أو السكونى الذى يدرس قوانين النظام فى المجتمع وشروط وجود المجتمع . وهذان العلمان يشكلان سويا علم الاجتماع عند كونت ولا انفصال بينهما . وهكذا يبدو أن كونت يهدف الى دراسة كل قوانين الحركة والسكون فى المجتمع . ولكن الحقيقة أن الدراسة الديناميكية عند كونت هى الأخرى دراسة للثبات والسكون . وهنا تتضح مسلمات أخرى أو افتراض آخر عن تصور كونت لطبيعة الواقع الاجتماعى هى مسلمات الثبات فى مقابل التغيير .

وتتكشف حقيقة أن الدراسة الديناميكية للمجتمع عند كونت إنما هى دراسة للثبات والسكون من حديثه عن العلاقة بين الديناميكا والاستاتيكا الاجتماعية . وفى ذلك يقول هربرت ماركيز :

« أن علم الاجتماع عند كونت هو فى أساسه دراسة سكونية للمجتمع » وذلك نتيجة لسيادة تصور النظام ، ولكنه أيضا دراسة حركية أو ديناميكية للمجتمع بفضل وجود تصور التقدم . وقد شرح كونت العلاقة بين التصورين الأساسيين مرات كثيرة . فالنظام هو الشرط الأساسى للتقدم وكل تقدم يتجه آخر الأمر الى دعم النظام . . . ان التقدم فى حد ذاته نظام ، يعنى أنه ليس ثورة بل تطور (١٧) .

ومجال النظام الاجتماعى هو الاستاتيكا الاجتماعية أو السكون الاجتماعى Social Statics وقد صور كونت المجتمع على أنه كل عضوى

(١٦) هربرت ماركيز : العقل والثورة ، مرجع سابق ، ص ٣٣٧ .

(١٧) للعقل والثورة - مرجع سابق ص ٣٣٦ .

يمكن تحليله الى ثلاثة عناصر : الفرد والأسرة والمجتمع . وقد تأثر كونت عند دراسته للفرد بعلم الفراسة Phrenology (ذلك العلم الزائف الذى يقوم على التسليم بأن خصائص الناس يمكن التعرف عليها من ملامحهم) وتبنى مفهوم عالم الفراسة جال Gaal عن أن السلوك الاجتماعى محتوم بيولوجيا وبالتالي فهو وراثى ، وكل جنس من الأجناس البشرية يتصرف طبقا لتركيبه البيولوجى (لاحظ هنا افتراض كونت الأساسى عن طبيعة الانسان من حيث أنها ثابتة لا تتغير لأنها محتومة بيولوجيا ولاحظ أيضا ما بهذا الافتراض من عنصرية) . وبناء على ذلك رأى كونت أن جوهر المجتمع هو الطبيعة البشرية المحتومة بيولوجيا (أى الثابتة) .

وافترض كونت أن الأسرة هي الوحدة الاجتماعية الأساسية وأن كل الأشكال الاجتماعية الأخرى كالقبائل أو الأمم ، تنشأ عنها . ورأى أن الجنس البشرى بأسره إنما يمكن النظر اليه على أنه تطور تدريجى لأسرة واحدة . ولا يجب أن تفوتنا هنا الطبيعة المحافظة لهذا الافتراض ، فالأسرة عند كونت وعند غيره من المحافظين هي أساسا مؤسسة للضبط الاجتماعى نشأت أساسا لاشباع غريزة بيولوجية هي الجنس بشكل منظم وحسب قواعد معينة . وارتبطت نظرة كونت المحافظة للطبيعة الانسانية بوجه عام بنظرية المحافظة أيضا الى المرأة ، فعبر عن اعتقاده بأن الأسرة فى عصره قد أصيبت بالتدهور وتمنى أن يشهد المستقبل أسرا تقوم على الدونية الطبيعية للمرأة ، فبهذه الكيفية فقط يمكن الحفاظ على المرأة فى حالة من الطفولة الأبدية (١٨) .

أما وحدة التحليل الحقيقية فى علم اجتماع كونت فهي المجتمع والمجتمع أعلى من الفرد ، والمجتمع يضم كل الأجناس البشرية وبخاصة الجنس الأبيض . ويعتمد بناء المجتمع وتعبده وتكامله على تقسيم العمل (وهو الخاصية المميزة للمجتمع الرأسمالى موضوع اهتمام كونت) . ولكن نظرا لأن تقسيم العمل هذا عندما يتزايد يصبح نقطة ضعف فى

(١٨) الفلسفة للوضعية نقلا عن :

Don Martindale. Nature and Types of Sociological Theory. Routledge and Kegan Paul, London, 1961 p. 63.

المجتمع بدلا من أن يكون مصدرا لقوته فلا بد من الحفاظ على فكرة الكل الواحد على الشعور بالترايط العام بين أجزائه . وأهم الخصائص التي يمكن أن تحقق ذلك في المجتمع الخاصة الأساسية به المتعلقة بالخضوع للحكومة . فلا بد أن يخضع الفرد لمن هم أعلى منه . وهذا الخضوع هو أساس الميل الطبيعي نحو الحكومة التي وجدت بفعل صلاحية بعض الناس بحكم تكوينهم الطبيعي للحكم والسيطرة . وقد أعجب كونت أشد الاعجاب بنظام الطبقات المغلقة في الهند لأنها كانت تمثل بالنسبة له النموذج الأمثل للنظام (١٩) .

هنا تتضح سلسلة أساسية أخرى عند كونت هي سلسلة عجز الانسان عن تغيير عالمه الاجتماعي وضرورة استسلامه لهذا الواقع . فطالما أن الطبيعة البيولوجية هي التي تحدد خصائص الفرد ، وطالما أن الأسرة ترتبط بهذه الطبيعة البيولوجية ، ربما أن المجتمع الانساني كله تطور عن الأسرة إذن فالمجتمع شيء ثابت جامد يخضع لقوانين بيولوجية وهو أقوى من الفرد وليس على الفرد الا الاستسلام له ، أي الاستسلام الكامل للسلطة لأنها المهية بيولوجيا للحكم . ولا يجب أن يفوتنا هنا خطورة مارتيه كونت على ذلك من استنتاجات عن الشعوب . فالجنس الأبيض مهيا بيولوجيا أيضا للسيادة وللحكم وعلى بقية الأجناس أن تخضع له . ان تسليمنا بافتراضات كونت الأساسية عن الطبيعة الانسانية وعن طبيعة الحياة الاجتماعية دون مناقشة وتحليل لابد أن يقودنا الى التسليم باستنتاجاته عن طبيعة الشعوب وبالتالي الى الاستسلام للاستعمار بأشكاله المختلفة والتبعية له . والواقع أن معظم النظريات الاجتماعية المعاصرة في الغرب مستمدة من أفكار كونت وفلسفته الوضعية ومن المؤسف أن كثيرا من علماء الاجتماع في بلدان العالم الثالث بما في ذلك العربي لا يدققون بما فيه الكفاية في مضمونها الايديولوجي وافتراضاتها الأساسية مما يجعلهم يروجون لها فيقعون ، ربما عن غير قصد ، في حبالها الايديولوجية ويساعدون على تدعيم وتثبيت التخلف والتبعية في بلادنا .

والديناميكا الاجتماعية عند كونت كما سبق أن ذكرنا تتحول في نهاية الأمر الى سكون أو ثبات . ومثلما أفرغ كونت الحياة الاجتماعية من مضمونها المادى واختزلها الى مجرد حالات فكرية تنبع من استعدادات بيولوجية أفرغ مفهوم التغير والتقدم من مضمونه الثورى الذى اكتسبه فى فلسفة التنوير النقدية واختزله الى مجرد عملية نمو حتمى الى لا دخل للإنسان فيه . فالبشرية قد انتقلت من المرحلة اللاهوتية الى الميتافيزيقية حتى الوضعية (الرأسمالية الصناعية العلمية) وهذه الأخيرة ستتمو نموا طبيعيا اذا قمنا بحمايتها من الثورات ومن الفكر التخريبي النقدى واذا عملنا على استقرار النظام وعلى نشر مبادئ الاستسلام والطاعة بين الناس . وفى ذلك يقول كونت :

« ما أجمل أن نطيع عندما يمكننا الاستمتاع ... بالسعادة التى يجلبها اعفاء القادة الحكماء الجديرين لنا من المسئولية الملحة المتعلقة بالبحث عن اتجاه عام لسلوكنا » (٢٠) .

ويعلق ماركيز على ذلك بقوله ان السعادة بهذا المعنى أى بمعنى الاحتماء بذراع قوية هى من أخص مميزات المجتمعات الفاشية فى وقتنا الحالى .

ان أهمية أوجست كونت لنا فى دراستنا للنظرية الاجتماعية لا ترجع الى الناحية التاريخية من اهتمامنا فى هذه الدراسة بقدر ما ترجع الى حقيقة أن أفكاره وافتراضاته الأساسية مازالت تمثل المنبع الرئيسى لمعظم تيارات علم الاجتماع المعاصر ، على الرغم من أن كثيرا من علماء الاجتماع المعاصرين يقللون من أهميته الآن ومن أن منهم من لا يشير اليه بل ويعتبر أن دوركايم هو المؤسس الحقيقى لعلم الاجتماع وليس كونت ويرجع ذلك فى رأينا الى أن الارتباط بين مبادئ كونت المنهجية والنظرية من جهة وبين مبادئه الايديولوجية كان سافرا ومفضوحا بدرجة كبيرة جعلت المحافظين المحدثين ينفرون منه ويستبدلون نظريته

(٢٠) درويس فى الفلسفة الوضعية نقلا عن هربرت ماركيزوز . مرجع سبق ذكره .

بأخرى يكتفى فيها هذا الارتباط ، كما أن طبيعة تطور المجتمع الغربى منذ أيام كونت قد تطلب هذا التعديل فى التعبير عن افتراضات كونت الأساسية بحيث توضع فى صيغة يمكن أن تكون أكثر تقبلا من الناس تماما مثلما اضطر الاستعمار الى اجراء تعديلات فى صورته التقليدية (الاستعمار العسكرى) واستبدل بها صورا أخرى أكثر خفاء وأكثر تقبلا (السيطرة الاقتصادية والسياسية والفكرية) .

الفصل الخامس

اميل دوركايم والتضامن الاجتماعى

الموقف الايديولوجى لاميل دوركايم :

فى بداية حديثنا عن اميل دوركايم (١٨٥٨ - ١٩١٧) يجب ان نذكر انه احتل مكانة بارزة فى فرنسا فى اواخر القرن التاسع عشر وحتى وفاته فى عام ١٩١٧ سواء فى الأوساط الأكاديمية او الادارية او السياسية كما يجب ان نذكر أيضا ان نظرياته وآراءه عن المجتمع بصفة عامة وعن التربية والأخلاق والسياسة بصفة خاصة قد لقيت رواجا كبيرا فى الأوساط البورجوازية والحكومية الفرنسية فى ذلك الوقت ، فقد تولى اميل دور كايم رئاسة هيئة تحرير الحوليات السوسيولوجية L'anné Sociologique (أهم المجلات الاجتماعية فى فرنسا) منذ عام ١٨٩٨ حتى الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ ، كما انه قد شغل مركزا هاما جدا فى المؤسسات التربوية التى تسيطر عليها الدولة فى فرنسا وأدى به مركزه هذا الى ان يتحكم الى حد كبير فى اختيار العلماء والأساتذة الذين يعينون فى معاهد التعليم العالى (١) .

ويجب ان نذكر أيضا انه على الرغم من أن اميل دوركايم كان على معرفة ودراية واسعة بالكتابات الاشتراكية التى ظهرت فى فرنسا بل وفى أوروبا بصفة عامة منذ الثورة الصناعية إلا أنه قد اتخذ موقفا محددا وواضحا من الأفكار الاشتراكية حيث هاجمها ، وتعتبر أعماله ومؤلفاته جميعا محاولة لتقديم بديل للاشتراكية بل ان علم الاجتماع الذى قدمه

(١) Herman and Julia Sewendinger. The Sociologist of the Chair. Basic Books. New York. 1974. p. 255.

دوركاييم كما يقول ريموند آرون ليس سوى بديل للاشتراكية (٢) .

ويمكننا أن نستدل على موقف اميل دور كايم من كل من الفكر الرأسمالي البرجوازي والفكر الاشتراكي من مجموعة من المؤلفات التي نشرت بعد وفاته وكان قد ألقاها على شكل مجموعة من المحاضرات تدور كلها حول فكرة الاشتراكية ومهاجمة المبادئ التي تنهض عليها . ومن هذه المقالات مقالة بعنوان *le Socialism* أو الاشتراكية ومقالة أخرى نشرت لأول مرة في عام ١٩٥٠ بعنوان *Lecons de Soclogie* أي دروس في علم الاجتماع . ولقد رفض دور كايم رفضاً قاطعاً فكرة إعادة توزيع الثروة أو تحقيق أي نوع من التكافؤ في الملكية أو إلغاء الملكية الخاصة ، ورأى أن سبب المشكلات في المجتمع الحديث أي المجتمع الرأسمالي الذي كان يعيش فيه ليس سبباً اقتصادياً بقدر ما هو سبب أخلاقي ، وبالتالي فإن الصراع بين العمال وبين أصحاب الأعمال ليس سوى دليل على تفكك المجتمع أو على حدوث حالة من اللامعيارية *Anomie* في ذلك المجتمع ، والذي يجب عمله هو مجرد تصحيح هذا الوضع ولا يتأتى ذلك إطلاقاً عن طريق إعادة توزيع الثروة أو تعديل النظام الاقتصادي ، ولكن ذلك يمكن أن يحدث من خلال تحقيق ما أسماه بالاجتماع أو الاتفاق الجمعي *consensus* ، ويمكن أن يتم ذلك عن طريق التربية .

وعارض دور كايم التفسير الماركسي للتاريخ على أساس أنه يمثل سلسلة أو حلقة من الصراعات الطبقيّة بين من يملكون وبين من لا يملكون . ويمكننا أن نلاحظ هنا وجه شبه كبير بين آراء دور كايم وآراء أوجست كونت . وفي مقابل دعوة أصحاب الفكر الاشتراكي إلى العدالة الاجتماعية وإلى تضامن الطبقات المغلوبة على أمرها والمقهورة وثورتها على الظلم الواقع عليها من الطبقات المستغلة ، دعا اميل دوركايم إلى التضامن الاجتماعي أو التماسك الاجتماعي ، فكان فيلسوف حركة سميت « بالتضامن الاجتماعي » *Solidarism* في فرنسا كانت تدعو إلى

أن يتضامن كل المواطنين في الجمهورية الفرنسية من أجل تحقيق الخير للجميع . ورأى أميل دور كايم أن النظام الاجتماعي يحتاج إلى شيء ضروري لأبد أن يتوافر لدى المواطنين وذلك الشيء هو الرضا بما قسم لهم فيجب على كل الناس أن يقنعوا بما لديهم ، ولكي يقنعوا بذلك لأبد من أن تقدم لهم أساليب التربية المختلفة الأدلة على أنه ليس لهم الحق في أن يطلبوا أكثر مما لديهم ، ولذلك فإنه من الضروري أن توجد سلطة قوية في المجتمع يعترف بها الناس تسن القوانين التي تلزمهم بأن يقنعوا بحالتهم الراهنة ولا يجب إطلاقاً أن يترك الأفراد لكي يتطلعوا إلى أشياء ليست من حقهم(٣) .

ولكن الدولة في رأي دور كايم لم تعد قادرة على القيام بمثل هذه الوظيفة لأنها أصبحت بعيدة جداً عن الأفراد كما أن الأسرة أيضاً أصبحت محددة جداً في نطاقها وفقدت الكثير من وظائفها وخاصة الوظائف الاقتصادية ولم تعد هي الأخرى قادرة على هذه التربية الأخلاقية للأفراد . وعلى ذلك فإنه لا الدولة ولا الأسرة بل حتى ولا الكنيسة أو المؤسسات الدينية أصبحت قادرة على أن تسيطر على الأفراد وتحقق التماسك أو التضامن الاجتماعي ، ولكن التي تستطيع أن تحقق ذلك هي المجموعات المهنية أو بعبارة أخرى المؤسسات أو الشركات الكبيرة التي يجب أن تصبح وسيطاً بين الأفراد من جهة وبين الدولة من جهة أخرى ، والتي يجب أن تزود بالسلطات الاجتماعية والأخلاقية اللازمة لإعادة النظام الذي بدوره يتفكك المجتمع ويصبح الناس جميعاً ضحايا لرغباتهم الأنانية غير المحدودة « وهنا يأتي دور علم الاجتماع لكي يقدم حلاً علمياً للمشكلة الاجتماعية ، ذلك أن علم الاجتماع سيصبح هنا الموجه والمرشد للسياسة الاجتماعية والقادر على تحقيق الاستقرار الاجتماعي ، والتماسك الاجتماعي ، المطلوبين لاستمرار المجتمع .

هذه هي أيديولوجية أميل دور كايم كما عبر عنها في أفكاره عن الاشتراكية وعن التعليم ولكن هذه الأفكار الأساسية والرئيسية هي ذاتها

التي صاغ حولها كل نظريته الاجتماعية . بعبارة أخرى نستطيع أن نقول أن اميل دور كايم شأنه شأن أوجست كونت وغيره من علماء الاجتماع الوضعيين قد بدأ فى الواقع بالتسليم بمشروعية النظام الاجتماعى الاقتصادى القائم فى مجتمعه ورأى أنه هو الأنسب والأصلح للبشرية جمعاء . ولكى تكتسب هذه الفكرة قوة فى الاقناع فانه قد صاغ حولها نظريات بالغة التعقيد استخدم فيها كثيراً من المفاهيم وأضفى عليها صفة العلمية ، ليس هذا فحسب بل انه أقام حولها علماً بأسره كما سيتضح لنا من تحليلنا فيما بعد .

ثانياً : علم اجتماع دور كايم :

لقد ألف اميل دور كايم أربع مؤلفات رئيسية أولها كتابه « تقسيم العمل الاجتماعى » الذى نشر عام ١٨٩٢ وثانيها « الانتحار » عام ١٩١٧ وثالثها قواعد المنهج فى علم الاجتماع ورابعها « الصور الأولية للحياة الدينية » الذى نشر عام ١٩١٢ . وفى هذه الكتب الأربعة يثبت اميل دور كايم وجهة نظره البسيطة فى أن أساس الحياة الاجتماعية ليس فى الاقتصاد كما يقول ماركس ولكن فى القيم الروحية ، وأن هدف المجتمع الذى يجب أن يتحقق هو الوصول الى حالة الاجماع Consensus وأن كل مظاهر الاضطراب أو التفكك أو المشكلات الاجتماعية مرجعها ليس العوامل أو الظروف الاقتصادية أو الاجتماعية ولكن انعدام الاجماع ، أى أن حل كل أزمات النظام الرأسمالى انما يتمثل فى تحقيق الاجماع على القيم بين جميع المواطنين .

وسوف نرى كيف تناول اميل دور كايم فى كتبه الأربعة هذا الموضوع الرئيسى بطرق مختلفة . ولكنها جميعها تصب فى نفس المصب فى نهاية الأمر .

لقد سلم اميل دور كايم مثل كونت بالوضعية كأساس للمعرفة السوسيولوجية ورأى أنه لابد أن يصبح علم الاجتماع علماً طبيعياً ورأى أنه على الرغم من اسهام علم الاجتماع فى الفكر الفلسفى الا أنه فى الوقت ذاته لا يمكن أن يعتمد على الفلسفة أو يستمد منهجه منها . فالوضعية هى أساس العلم وهى الفلسفة التى وضعت حداً للتأملات

العقيمة (من وجهة نظره) ويجب أن يهتم علم الاجتماع بالوقائع القابلة للملاحظات وأن يستخلص قضاياها العامة منها ، وقد كانت هذه الأفكار هي الأساس الذي ارتكزت عليه أعماله الأولى والتي عبر عنها في كتابه « قواعد المنهج في علم الاجتماع » (٤) .

الوقائع الاجتماعية :

وقد كانت وحدة التحليل الاجتماعي عند دور كايم هي الوقائع الاجتماعية والواقعة الاجتماعية هي كما يقول :

كل وسيلة أو كل أسلوب للتصرف Acting تمارس فرضا أو إجبارا خارجيا على الفرد أو كل وسيلة للتصرف تتصف بالعمومية في مجتمع ما ولكنها توجد في نفس الوقت مستقلة بذاتها .

ورأى دور كايم أن الوقائع الاجتماعية غير قابلة للملاحظة المباشرة ، وبالتالي لابد من دراستها بشكل غير مباشر عن طريق ملاحظة آثارها ؛ ومن هنا فإن الوقائع الاجتماعية تتصف بصفتين أساسيتين :

أنها خارجة عن الفرد وأنها ملزمة له أو ذات تأثير محدد لسلوكه .

وقد شرح دوركايم الصفة الأولى للوقائع الاجتماعية أي أنها خارجة عن الفرد بقوله .

« حين أقوم بالتزاماتي كأخ أو أب أو حين أوفى بتعاقداتي فأننى أقوم بواجبات لم أحدها أنا بنفسى أو لم تحددها أفعالى ولكنها محددة لى سلفا فى القانون وفى العرف وفى العادات الجمعية » .

وفضلا عن ذلك :

« فأنها حتى اذا ما اتفقت مع عواطفى وشعرت بها ذاتيا فان واقعها يظل موضوعيا ، ذلك أننى لم أخلقها ولكنى ورثتها من خلال

Emil Durkheim. Rules of Sociological Theory. Glencoe, (٤) III. Press. 1938.

عملية التربية (٥) •

وترجع الطبيعة الالزامية للوقائع الاجتماعية الى حقيقة أنها تفرض على الفرد بغض النظر عن رغباته •

والوقائع الاجتماعية في نظر دوركايم هي انعكاسات أو تعبيرات عن أخلاقيات الجماعة ، والأخلاقيات بالنسبة لدوركايم تشمل كل المدى المعياري ابتداء من القواعد البسيطة للسلوك الاجتماعي (الاتيكيت) حتى أكثر العادات الاجتماعية صرامة وشدة •

التضامن الآلي والتضامن العضوي :

لقد كان اهتمام دوركايم في كل مؤلفاته منصبا على دراسة العلاقة بين الأخلاقيات من حيث مصادرها وأشكالها وبين طبيعة الروابط الاجتماعية • ورأى دوركايم في كتابه « تقسيم العمل الاجتماعي » (٦) أن التنظيم الاجتماعي قد تطور من حالة التماسك (أو التضامن) الآلي الى حالة التماسك العضوي ولا يمكن ملاحظة أي من النوعين من التماسك ملاحظة مباشرة ولكن يمكن التعرف عليهما عن طريق مؤشرات معينة تتمثل في نوع الجزاءات التي توقع على مخالفى القواعد الأخلاقية •

والجزاءات في نظر دور كايم تنبعث من العقل أو الضمير الجمعى group mind أو من المعتقدات والمشاعر المشتركة بين المواطنين في نفس المجتمع ، فأى فعل يعتبر إجراميا حين يتعارض مع مبادئ الضمير الجمعى •

والتماسك الآلى mechanical solidarity يوجد في المجتمع الذى يتصف بأحاساس قوى وعام بالضمير الجمعى فأى فعل ضد شخص ما يعتبر فعلا مضادا لكل الناس فى المجتمع وفى مثل هذا المجتمع البدائى توقع الجزاءات بطريقة آلية أى دون تفكير ويسود مثل هذا المجتمع ما أسماه

(٥) Emil Durkheim. The Rules of Sociological Method. (New York, Free Press, 1964) p. 2.

(٦) Durkheim. The Division of labor in Society. Glencoe, Free Press. 1933.

دوركايم « بالقانون القمعى » • وفى هذا المجتمع البدائى نجد أن الناس متشابهون فى أفكارهم وفى وجهات نظرهم لما لديهم من قيم وخبرات مشتركة فانهم يصبحون جميعا كرجل واحد ولهم عقل واحد وبذلك يتحقق التماسك الاجتماعى بينهم ولكن هذا التماسك تماسك آلى أو طبيعى (٧) •

أما فى المجتمعات الحديثة (أى المجتمع الصناعى الرأسمالى) فإن الأمر يختلف عن ذلك تماما ، فأفراد المجتمع يختلفون فى كثير من النواحي مثل الخبرات التى يمرون بها وتنشئتهم الاجتماعية وتدريبهم أو بعبارة أخرى يختلفون نظرا لتقسيم العمل فيما بينهم ، ويسود فى هذا المجتمع ما يسمى بالتماسك العضوى Organic solidarity (وهذا التماسك العضوى يصاحب التقسيم المعقد فى العمل الذى تتصف به المجتمعات الصناعية ، فالتماسك فى هذه المجتمعات لا ينشأ عن التشابه بين الناس ولكنه على العكس من ذلك ينشأ نتيجة الاعتماد المتبادل بينهم فالشخص لا يصبح متخصصا فى شيء ما إلا اذا كان هناك آخرون متخصصون فى انتاج السلع وتقديم الخدمات التى يحتاجها ليتفرغ لتخصصه •

ويجب أن نلاحظ هنا أن اميل دوركايم ينظر الى المجتمع بأسره على أنه مجرد أساليب للتصرف أو بعبارة أخرى على أنه مجموعة من المعايير والقواعد الأخلاقية والقيم • وذلك ما لاحظناه فى تعريفه للوقائع الاجتماعية فالوقائع الاجتماعى بالنسبة له ليس واقعا ماديا على الإطلاق ولكنه واقع فكري وهذا الفكر هو المحدد لكل ما عداه من صور الحياة الاجتماعية كما أن دوركايم قد صور هذا الفكر على أنه شيء مستقل بذاته يمارس قهرا على أفراد المجتمع وليس عليهم أن يتبنوه والا فان المجتمع سوف يصاب بالتفكك والانحيار •

ولكن ما الذى يؤدى الى تحول المجتمع من حالة التماسك الآلى الى حالة التماسك العضوى ؟

(٧) يعنى دوركايم بالتضامن أو التماسك الاجتماعى مجموع المعتقدات والمشار العامة والمشاركة بين الأعضاء العاديين فى أى مجتمع • وهذه المعتقدات تشكل نسقا مستقلا له حياة خاصة به •

يجيب دوركايم على هذا السؤال بأن التماسك العضوى إنما هو نتاج لتقسيم العمل الأكثر تقدماً ولكن تقسيم العمل فى حد ذاته ليس كما كان يرى علماء الاقتصاد نتيجة لعوامل اقتصادية ولا نتيجة رغبة الأفراد فى أن يزدوا من طاقاتهم الانتاجية وفى أن يحسنوا الانتاج أو يحسنوا من أساليب حياتهم ولكن تقسيم العمل يرجع فى رأى دوركايم الى ما أسماه بالكثافة الدينامية أو الكثافة الأخلاقية *Dynamic or moral density* ويعنى دوركايم بالكثافة الدينامية أو الكثافة الأخلاقية تلك الحالة من التفاعل المكثف بين الناس والنتاج عن زيادة عدد الأفراد الذين تهيأ لهم فرص الاتصال بعضهم ببعض بدرجة تجعلهم قادرين على التفاعل مع بعضهم ، وبالتالي يمكننا القول حسب دوركايم أن التقدم فى عملية تقسيم العمل إنما يتناسب تناسباً طردياً مع الكثافة الدينامية أو الكثافة الأخلاقية .

ولكن الكثافة السكانية لا تؤدي بالضرورة الى كثافة دينامية أو أخلاقية أو الى تقسيم معقد للعمل ذلك أنها تؤدي الى هذه النتيجة فى حالة واحدة وهذه الحالة هى زيادة الصراع من أجل البقاء .

ويرى دوركايم أن مصدر تقسيم العمل المتقدم إنما يكمن فى القيم الثقافية التى يتضمنها الضمير الجمعى لأعضاء مجتمع ما قائم بالفعل . ويمكن التعرف على نوع التماسك الاجتماعى السائد فى مجتمع ما من خلال ملاحظة بعض الآثار التى تترتب عليه وبخاصة نوع الجزاءات السلبية أو القوانين التى تفرض على من يخالف أخلاقيات أو معايير الجماعة . وفى المجتمع الذى يسود فيه التماسك الآلى نجد أن القانون السائد فيه هو ما أسماه دوركايم بالقانون القمعى *Repressive* أو الانتقامى حيث توقع الجزاءات الشديدة على الشخص المخالف للأخلاقيات السائدة فى المجتمع .

أما فى المجتمع الذى يسود فيه التماسك العضوى فأننا نجد مؤشرات هذا التماسك تتمثل فيما أسماه بالقانون الاصلاحى *restitutive* أى أن الجزاءات التى توقع على المخالف لا تهدف الى الانتقام منه ولكنها

تهدف الى اعادة الحال الى ما كان عليه من قبل ، فمثلا يفرض عليه غرامة ما أو يطلب منه اصلاح ما أفسده أو ازالة الضرر الذى وقع منه على الأفراد الآخرين أو المجتمع .

وقد كان اهتمام اميل دوركايم منصبا على موضوع أساسى هو طبيعة التماسك الاجتماعى أو بعبارة أخرى حول سؤال مؤداه ما الذى يبقى الناس سويا فى المجتمع فى شكل منظم ؟

يتضح لنا من ذلك أن الوقائع الاجتماعية بالنسبة لاميل دوركايم كانت ببساطة هى التماسك الاجتماعى من جهة والجزاءات السلبية من جهة أخرى (ويجب أن نلاحظ هنا أن هذه الوقائع المادية هى الأخلاقيات أساسا وليست الوقائع المادية الملموسة) . وقد رأى دوركايم أنه يجب أن ننظر الى الوقائع الاجتماعية بوصفها أشياء .

ويعرف دوركايم الأشياء بأنها كل ما هو معطى وكل ما هو خاضع للملاحظة ، ويرى أن معالجة الظواهر الاجتماعية بوصفها أشياء يضىء على هذه المعالجة صفة العلم .

وقد شرح اميل دوركايم تأثير الوقائع الاجتماعية على السلوك الإنسانى فى دراسته عن « الانتحار » (٨) . وهذه الدراسة تمثل نموذجا للتحليل الاجتماعى طبقا لمنهجه الذى شرحه فى كتابه « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » . ولقد حاول دوركايم فى دراسته عن الانتحار أن يطبق مبداه المنهجى الذى مؤداه أن عالم الاجتماع يجب أن يبحث عن أسباب أى ظاهرة اجتماعية يدرسها فيما سبقها من وقائع اجتماعية وليس فى الحالات الشعورية للأفراد ، بعبارة أخرى يقول دوركايم أن الواقعة الاجتماعية يجب أن تفسر بغيرها من الوقائع الاجتماعية وليس بأى حالات سيكولوجية .

ان هذا المبدأ فى حد ذاته لا اعترض عليه فالتفسير الاجتماعى

يختلف عن غيره من التفسيرات فى أنه لابد أن يقدم أسبابا ذات أصل اجتماعى للظاهرة الاجتماعية التى ندرسها .

ولكن النقد الأساسى الذى يمكن أن يوجه هنا لاميل دوركايم هو ما يعنيه بالواقعة الاجتماعية . وقد سبق أن رأينا أن تعريفه للواقعة الاجتماعية إنما هو تعريف فكرى تماما . وما يريد دوركايم أن يقوله هو أننا يجب أن نفسر حالات السلوك بحالات الأخلاق أو بمعنى آخر أنه يجب أن نفسر الحالات الأخلاقية بحالات أخلاقية أخرى . فى هذه الحالة نجد أن تفسير اميل دوركايم ليس كما يدعى تفسير اجتماعيا ولكنه فى واقع الأمر تفسير أخلاقى فالمجتمع بالنسبة له ليس مجموعات حية من الأفراد يعيشون فى واقع مادى ويقومون بنشاط مشترك ولكن المجتمع عبارة عن مجموعة من المعايير ومن القيم ومن الأخلاقيات العامة المختلفة .

وهذا ما عبر عنه فى كتابه « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » حيث يقول :

« المجتمع ليس مجرد مجموع أفراد ، ولكنه نسق ينتج عن التفاعل بينهم وهذا النسق يمثل واقعا معينا له خصائصه الخاصة » .

وقد ركز دوركايم فى دراسته عن الانتحار على معدلات الانتحار وليس على الحالات الفردية للانتحار ورأى أن ما يجب علينا عمله بوصفنا علماء اجتماع ليس هو أن نقدم تفسيراً للانتحار فرد ما فى وقت معين وفى زمان معين ولكن يجب أن نهتم بأن نجيب على هذا السؤال :

لماذا يقوم عدد معين من الأفراد فى فترة زمنية معينة فى مجتمع معين بقتل أنفسهم أو بارتكاب فعل الانتحار ؟

ان وضع دوركايم لمشكلة الدراسة بهذه الكيفية يمثل فى الواقع اتجاها سوسيولوجيا حقيقيا يأخذنا بعيداً عن الاتجاهات السيكلوجية فى علم الاجتماع . ولكن مشكلة اميل دوركايم أنه حاول أن يفتش عن اجابات: لهذا السؤال فى المجال الأخلاقى فقط منفصلا تماما عن الواقع

الاجتماعى الذى تنشأ أو تظهر فيه هذه الأخلاقيات • ان المتغيرات التفسيرية التى تبناها دوركايم فى دراسته الاجتماعية بما فى ذلك الانتحار انما هى متغيرات مثالية أو متغيرات فكرية على حد تعبير جديون جورج • وقد توصل اميل دوركايم الى تنميط للانتحار • فقد وجد ان هناك ثلاثة أنماط للانتحار • ما اسماء بالانتحار الأنانى egoistic suicide والانتحار الغيرى Altruistic suicide والانتحار الناجم عن اللامعيارية أو الانتحار اللامعيارى Anomic suicide .

أما النوع الأول من الانتحار أى الانتحار الأنانى فانه يتناسب تناسباً عكسياً مع درجة التكامل فى المجموعة الاجتماعية التى ينتمى اليها الفرد • ويعنى اميل دوركايم أن القابلية للانتحار الأنانى عند الفرد تزداد حين تضعف التزاماته نحو الآخرين أو حين لا تكون للآخرين التزامات نحوه •

أما النوع الثانى من الانتحار وهو الانتحار الغيرى فانه ينجم عن روابط اجتماعية قوية تؤدى بالفرد الى أن يضحي بحياته فى سبيل المجموعة •

أما النوع الثالث من الانتحار أى الانتحار اللامعيارى فانه يحدث فى تلك الحالات التى يتهتك فيها النسيج الاجتماعى على حد تعبيره ، وبالتالى تنشأ حالة من اللامعيارية أو انعدام المعايير فى المجتمع • وحالة انعدام المعايير فى المجتمع أو حالة الاضطراب المعيارى ينجم عن أى خلل فى التوازن equilibrium سواء كان هذا الخلل فى التوازن مؤدياً الى نتائج ايجابية أو نتائج سلبية فإى تغيرات مفاجئة فى النظام الاجتماعى تؤدى الى حالة من اللامعيارية أو التفكك الاجتماعى فمثلاً الكساد الاقتصادى أو الرخاء الاقتصادى حالتان تمثلان تغيراً مفاجئاً فى النظام الاجتماعى يترتب عليها درجة من اللامعيارية تؤدى الى زيادة معدل الانتحار فى المجتمع (٩) •

(٩) Lewis Coser. Masters of sociological Thought. Harcourt Brace Jovanovich, Inc., New York 1977 pp. 154, 135.

وحيث يقول اميل دوركايم أن الكساد الاقتصادي يؤدي إلى اللامعيارية فإنه لا يعنى بذلك حالة الفقر التي تسود الكساد الاقتصادي ولكنه يعنى التغير في مواقف الناس . فهو يرى في الواقع أن الفقر في ذاته إنما يمثل حماية للأفراد من الانتحار ولكن التغير المفاجيء الذي يحدث في المجتمع هو الذي يؤدي إلى زيادة الانتحار .

ويتضح من ذلك بالطبع تأكيد دوركايم على فكرة النظام الاجتماعي وعلى فكرة التوازن الاجتماعي وهاتين الفكرتين هما من الأفكار الرئيسية والمحورية في النظريات الوضعية بل وحتى النظريات الغربية عموماً .

أهم معالم فكر دوركايم :

بعد هذا العرض الموجز للأفكار الأساسية التي قدمها اميل دوركايم في مؤلفاته المختلفة ننتقل إلى تحديد أهم معالم فكره وخاصة المسلمات الأساسية التي استند عليها في هذه النظرية وما تشير إليه النظرية من إجراءات عملية تطبيقية والمضمون الايديولوجي لها .

إن دوركايم قد بدأ بالتسليم بأن المجتمع عبارة عن نسق من الأخلاقيات لا يمكن ملاحظته مباشرة ولكن يمكننا أن نستدل عليه من بعض الآثار التي يمكن ملاحظتها ، بعبارة أخرى أرى أن أساس المجتمع هو أساس فكري أو أخلاقي لا نستطيع أن ندرسه مباشرة ولكن من خلال ما يفصح عنه من سلوك وأشياء قابلة للملاحظة . وقد ادعى دوركايم كما رأينا أنه يجب النظر إلى الوقائع الاجتماعية بوصفها أشياء قابلة للملاحظة ولا يعنى ذلك إطلاقاً كما رأينا من شرحنا لأفكاره أنه يركز على دراسة أشياء مادية ولكنه يريد أن يرقى بالأفكار إلى مستوى الأشياء القائمة بذاتها . كما سلم اميل دوركايم بأن أفراد المجتمع عليهم أن يخضعوا تماماً للضمير الجمعي وما يحتويه من مبادئ وقواعد أخلاقية وقد اتضح ذلك كما رأينا في وصفه للوقائع الاجتماعية بأنها ذات طبيعة الزامية واجبارية للأفراد .

ومن الواضح أيضاً أن دوركايم قد سلم بأن الإنسان جشع بطبعه وأنه دائماً يسعى إلى الحصول على المزيد ولا يقنع إطلاقاً وبالتالي فإنه

لابد من أن تكون هناك سلطة ما تمارس القهر والاجبار عليه بحيث يقنع بما قسم له . أما فيما يتعلق بالتغيرات التي يفسر بها اميل دوركايم الظواهر الاجتماعية المختلفة فقد رأينا أن هذه التغيرات هي أساسا متغيرات فكرية وأخلاقية وأنه قد استبعد تماما التغيرات التاريخية والمتغيرات المادية .

ولابد أن نذكر هنا أيضا الاجراءات العملية التي يمكن أن تترتب على نظرية اميل دوركايم . ان اميل دوركايم قد حاول أن يكون عالما موضوعيا محايدا ولكنه قد قرر بالفعل بأن علم الاجتماع لابد وأن يلعب دورا في تحسين أحوال المجتمع ، وقد كان دوركايم يأمل في أن يقدم برامج سياسية واجتماعية تعتمد على الدراسة الاجتماعية الموضوعية للمجتمع ، وقد سبق أن ذكرنا أن أهداف اميل دوركايم الأساسية من تقديمه لهذه النظرية هو أن يجعل علم الاجتماع بديلا للاشتراكية أي أن يجعل علم الاجتماع هو المرشد للسياسة ورجال الصناعة في توجيه المجتمع لتحقيق الاستقرار الاجتماعي وللحيلولة دون حدوث أي اضطرابات في النظام الاجتماعي القائم أي النظام الرأسمالي .

ويتضح من ذلك المضمون الايديولوجي لنظرية اميل دوركايم . فمن استعراضنا لأفكاره جميعا يتضح أن نظريته ذات طابع محافظ تماما لا يمكن أن يخطئه الانسان فيرى زائتلن مثلا أن هدف اميل دوركايم في الواقع كان الحفاظ على النظام الاجتماعي بأي ثمن وبأي طريقة وبأن دوركايم قد بذل قصارى جهده من أجل أن يسخر علم الاجتماع في تحقيق هذا الهدف . ونستشهد هنا بعبارة لدوركايم يقول فيها (١٠) .

« ان ما نحتاجه لكي نحقق الاستقرار في النظام الاجتماعي هو أن نجعل جماهير الناس قانعة بما قسم لهم . ولكن ما يجب عمله لكي نجعلهم قانعين بنصيبهم في الحياة هو أن نقنعهم بأنه ليس لهم الحق في أن يحصلوا على أكثر مما لديهم . ولكي نحقق ذلك فانه من

الضرورى تماما أن تكون هناك سلطة عليا يعترفون بها ترشدهم دائما الى الصواب » .

ويجدر بنا أن نذكر هنا فى ختام حديثنا عن اميل دوركايم أن الأفكار الأساسية التى عبر عنها لم تنته بوفاته ولكنها قد راجت كثيرا فى أوربا وفى الولايات المتحدة الأمريكية وصيغت حولها نظريات أخرى جديدة سواء كانت نظريات وضعية أو نظريات وظيفية . ومما هو جدير بالذكر أن واحدا من أشهر العلماء الأمريكيين وهو روبرت ميرتون قد صاغ نظريته اعتمادا على الأفكار الأساسية عند اميل دوركايم وكذلك الحال بالنسبة للكثيرين من علماء الاجتماع الأمريكيين (١١) .

ويذكر كالفن لارسون (١٢) أن فكر اميل دوركايم قد لقي راجا كبيرا فى الولايات المتحدة الأمريكية خاصة بعد فترة الكساد الاقتصادى التى سادت أمريكا فى الثلاثينيات والتى فتش علماء الاجتماع الأمريكيون بعدها عن تفسيرات اميل دوركايم لهذه الأزمة التى يمر بها المجتمع الأمريكى وحاولوا أن يستعينوا بما قدمه من حلول لكى يرضى الناس بأوضاعهم الاجتماعية المتدهورة فى تلك الفترة . بعبارة أخرى أعاد علماء الاجتماع الأمريكيون اكتشاف اميل دوركايم بعد فترة الكساد الاقتصادى فى الثلاثينيات واهتموا به اهتماما كبيرا بعد ذلك وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى وفى ذلك يقول أحد العلماء الأمريكيين وهو هينكل :

« ان الاهتمام بدوركايم فى الأربعينيات والخمسينيات قد اتسع نطاقه وبخاصة منذ عام ١٩٤٥ . وأصبح دوركايم شخصية محورية فى الكثير من المجالات العلمية المتخصصة » .

« ويمكننا أن نلاحظ تأثير اميل دوركايم فى تخصصات معينة مثل

(١١) Schwendinger. opt. cit., p.234.

(١٢) Calvien Larson, Major Themes in Sociological Theory.

New York, David Mc-Kay Company, 1973) p. 50.

علم اجتماع القيم وعلم اجتماع المعرفة وعلم الاجتماع الدينى وعلم الاجتماع الصناعى وعلم الاجتماع القانونى وعلم الاجتماع الجنائى وعلم اجتماع المجموعات الصغيرة والتنظيمات الاجتماعية والتغير الاجتماعى وأيضا السلوك الجمعى » .

« كما أن الكثيرين من علماء الاجتماع الغربيين المعاصرين يتبنون أفكار دوركايم ويقول عالم الاجتماع الأمريكى نسبت عن أميل دوركايم « انه هو عالم الاجتماع الحقيقى والكامل » .

الفصل السادس

ماكس فيبر والفعل الاجتماعي

الموقف الأيديولوجي لماكس فيبر :

تتسق نظريات ماكس فيبر (١٨٦٤ - ١٩٢٠) عن المجتمع بشكل واضح مع التزاماته السياسية والأيديولوجية . فقد أعلن ماكس فيبر سواء في مؤلفاته أو محاضراته العامة أو في النصائح التي كان يقدمها للسلطة في ألمانيا في وقته أنه من أشد المدافعين عن النظام الرأسمالي البرجوازي ، وأنه من الد أعداء الماركسية . وقد وصف ماكس فيبر بأنه ماركس البرجوازية أي أنه مثلما كان يدافع ماركس عن البروليتاريا أو الطبقة العاملة فإن ماكس فيبر هو المدافع المخلص عن البرجوازية الألمانية بالطبع والبرجوازية العالمية (١) .

وقد وصف ألبرت سالمون علم اجتماع ماكس فيبر بأنه بأسره كان حوارا طويلا ومكثفا مع شبح كارل ماركس (٢) .

والواقع أن ماكس فيبر ينتمي الى تلك المدرسة من علماء الاجتماع الذين ينبع اهتمامهم بالمجتمع من اهتمامهم بالمسائل العامة وبالسياسة . وفي ذلك يتشابه ماكس فيبر مع ميكيافلي مثلا . وكان ماكس فيبر يود أن يكون من رجال السياسة وأن يمارس السلطة ، وكان يحلم أن يكون رئيس دولة وليس مجرد زعيم حزب ، ولكن ماكس فيبر لم يكن سياسيا ولا رئيس دولة بل أن كل ما استطاع أن يحققه هو أن يكون مستشارا أو ناصحا للأمير .

(١) Raymond Aron Main Curenents in Sociological Thought. Penguin Books. England. 1967. p. 253.

(٢) See Albert Salmon's article, «German Sociology» in George Gurvitch and Wilbert E. Moore : Twentieth-Century Sociology (New York : The philosophical library, 1941). p. 566.

ان آراء ماكس فيبر السياسية التي ترجمها الى نظرية اجتماعية تدور جميعا حول أن النظام الرأسمالي وأن الملكية الخاصة لوسائل الانتاج والتنافس بين المنتجين على السوق انما هي أنسب شئ للانسان وأن هذا النظام انما يرتبط بالعقلانية ويمثل قمة التطور الانساني (٣) .

والرأسمالية بما ترتبط به من عقلانية هي مصير الانسان ولا جدوى بأي حال من الأحوال من الثورة على هذا النظام . وكان ماكس فيبر من الد أعداء الاشتراكية على الرغم من إعجابه بمؤلفات كارل ماركس . وكان يرى أن ما يتهدد الكرامة الانسانية انما هو فى الحقيقة النظام الاشتراكي بما سيرتبط به من استعباد للأفراد بواسطة الدولة الاشتراكية والمؤسسات البيروقراطية التي ترتبط بها . وعبر مرارا وتكرارا عن رأيه فى أن الاشتراكية سوف تؤدي الى ازدياد سيطرة الانسان على أخيه الانسان أو الى سيطرة المنظمات على الأفراد وإلى حرمان الفرد من حريته ويجب أن نلاحظ التطابق بين آراء ماكس فيبر التي عبر عنها فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وبين الدعاية التي مازالت توجهها الدول الرأسمالية ضد الاشتراكية .

ولم يكن ماكس فيبر مدافعا فقط عن النظام الرأسمالي ولكنه كان أيضا من أشد المدافعين عن الامبريالية أو الاستعمار . فقد انتقد فيبر مثلما فعل نيتشه الشعب الألماني لما يتصف به من ميل للطاعة السلبية وتقبل الحكومات التقليدية وقال أن هذه الصفات جميعها لا تليق بشعب لابد وأن يلعب دورا عالميا كبيرا وعبر بوضوح عن ضرورة أن يكون لألمانيا دور استعماري فى العالم وكذلك أوروبا الغربية (٤) .

لقد كان ماكس فيبر يتخذ كما قلنا موقف المدافع عن النظام الرأسمالي ويجد كل الأدلة لاثبات أنه أفضل النظم التي عرفتتها البشرية . ولكي يحقق هذا الهدف كان عليه أن يهاجم كلا من الفكر المحافظ السائد فى ألمانيا وأوروبا

Michael Harrington. The Wwilight of Capitalism (The (٣)
Macmillan Press, New York, 1977). pp. 15 - 17.

Aron : opt. cit., pp. 254 - 255.

(٤)

المرتبط بالاقطاع وأن يهاجم أيضا الفكر الاشتراكي الراديكالي الذي انتشر بفعل الحركات الاشتراكية في أوروبا . وقد عبر ماكس فيبر ربما أكثر من غيره من علماء الاجتماع الأوائل عن مواقفه الأيديولوجية والسياسية بوضوح كامل . فقد قرر مثلاً في إحدى محاضراته التي كان يلقيها في « فراي بورج » في عام ١٩٠٥ عن هذه الآراء بقوله :

« اننى عضو فى الطبقة البرجوازية وأنا أشعر بذلك وقد نشأت فى أحضان هذه الطبقة وتبنيت آراءها ومثلها العليا » (٥) .

وعلى الرغم من أن ماكس فيبر قد هاجم بشدة المفكرين المحافظين فى ألمانيا إلا أنه كان يشعر بالرعب من الأفكار الاشتراكية بصفة عامة ومن التحول الاشتراكي وكان يتخذ موقف العداء من الحزب الديمقراطي الاشتراكي فى ألمانيا . ولماكس فيبر عبارات واضحة تماماً تبين موقفه بما لا يدع مجالاً للشك . فقد قال : « اذا ألغيت الملكية الخاصة فإن بيروقراطية الدولة التى سيكون لها الحكم فى المجتمع » . وبينما نجد فى النظام الرأسمالى أن بيروقراطية الدولة وبيروقراطية الصناعة يمكنهما أن يقللا من الآثار السيئة لكل منهما فإنهما سوف يصبحان جسداً واحداً فى الدولة الاشتراكية بحيث تستعيد البيروقراطية الإنسان . ولن يكون للعامل أية حرية على الإطلاق . وقد حاول ماكس فيبر أن يؤيد فكرته هذه بالاستشهاد ببعض الأدلة التاريخية فقال مثلاً أنه حينما سادت بيروقراطية الدولة فى مصر وفى روما فإن ذلك قد أدى الى انهيار هاتين الحضارتين . ورأى ماكس فيبر أن تجنب انهيار الدولة الألمانية إنما يتمثل فى تشجيع البرجوازية على تحقيق مصالحها

ودعا ماكس فيبر الى أن تقوم ألمانيا بأنشطة استعمارية خارج حدودها وإلى تأكيد فكرة القومية الألمانية وقدم لذلك ثلاثة مبررات :

أولها أن تأكيد قومية ألمانيا وقيامها بالاستعمار خارج حدودها سوف

يسهل نمو الرأسمالية بها كما حدث فى إنجلترا . وذلك أنه سوف يؤدي الى تحرير الدول الأصغر فى أوروبا وثانيها تحقيق بعض الأمنى لها عن طريق تحقيق نوع من التوازن فى التوتر بين القوى الكبرى ، وثالثا لأن ذلك سوف يؤدي الى تدعيم الثقافة الألمانية ، وتحقيق تكاملها وحيويتها(٦) .

وقد رأى ماكس فيبر أن المجتمع الصناعى لابد أن يكون به صراع طبقى وأن تكون به ادارة بيروقراطية ، ولكنه هاجم بشدة فكرة أن تقوم أى طبقة أخرى غير الطبقة البرجوازية بالسيطرة على المجتمع ونصح هذه الطبقة بأن تدافع عن مصالحها وبأن تحتفظ بسيطرتها على المجتمع .

وسوف نلاحظ عند عرضنا لأفكار ماكس فيبر ذلك التطابق بين آرائه السياسية وايدىولوجيته وبين مسلماته الأساسية التى بنى عليها هذه الأفكار . وقد كان ماكس فيبر من أوائل المهاجمين للنظام الجديد فى روسيا حتى أنه اتهم زعماء الثورة الروسية بأنهم دكتاتوريون عسكريون وبأنهم يهدفون الى السيطرة على الدولة جميعها(٧) . ويجب أن نذكر هنا أن ماكس فيبر قد زار الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٠٤ وقد استقبل هناك استقبالا حافلا وأن آراءه وأفكاره قد لقيت رواجا كبيرا فى الولايات المتحدة الأمريكية واتخذت أساسا اعتمد عليه الكثير من علماء الاجتماع الأمريكين والفلاسفة ورجال السياسة لمهاجمة الأفكار الاشتراكية والمدافعة عن النظام الرأسمالى والاستعمارى ، ولكن كيف ترجم ماكس فيبر معتقداته السياسية والايدىولوجية الى نظرية عن المجتمع ؟ لقد حاول ماكس فيبر أن يقيم نظرية مخالفة تماما لنظرية كارل ماركس أى أن يقلب نظرية كارل ماركس رأسا على عقب . فبدلا من المسلمة الأساسية التى تنهض عليها النظرية الماركسية والتى مؤداها أن الواقع المادى الاقتصادى هو الذى يحدد الواقع الفكرى والسيكولوجى ، أراد ماكس فيبر أن يثبت أن الواقع السيكولوجى هو الذى يحدد الواقع الاقتصادى . فقد رأى أن

Ibid. p. 153.

Ibid. p. 155.

(٦)

(٧)

نشأة الرأسمالية كنظام اقتصادى اجتماعى انما هى نتاج لنشأة الروح الرأسمالية والتي هى بدورها نتيجة للديانة أو الأخلاق البروتستنتية (٨) .
وقد قدم ماكس فيبر نظريته كنقيض للمادية الماركسية حيث قرر أن العنصر الأساسى فى الحياة الاجتماعية (العامل المستقل) هو الأخلاق والدين بينما غيرهما من جوانب العملية التاريخية بما فى ذلك النظام الاقتصادى ليست سوى وظيفة للعامل المستقل .

علم الاجتماع والفعل الاجتماعى :

لقد عرف فيبر علم الاجتماع بأنه :

« ذلك العلم الذى يحاول الوصول الى فهم تفسيري للفعل الاجتماعى(*) من أجل التوصل الى تفسير علمى لمجرى هذا الفعل وآثاره » (٩) .

والفعل الاجتماعى حسب تعريف ماكس فيبر والذى يجب أن يكون موضوع دراسة علم الاجتماع هو أى سلوك انسانى يضاف عليه الفاعل معنى ذاتيا ، والفاعل حين يقوم بهذا الفعل الاجتماعى ، فانه يضع سلوك الآخرين دائما فى اعتباره ، ويكون فعله بالتالى موجها نحو الآخرين .

وقد اعتبر ماكس فيبر أن وحدة التحليل الأساسية للمجتمع هى « الشخص الفاعل ، acting person ويقول فى ذلك .

ان علم الاجتماع التفسيري يعتبر الفرد وفعله هو الوحدة الأساسية

(٨) Max Weber. The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism, Scribner, New York, 1958.

(*) للفهم التفسيري (Vestehen) عند فيبر هو الخطوة الأساسية نحو التوصل الى علاقات سببية بين الأشياء . وفهم المعنى الذاتى للنشاط الذى يأتية الفرد يصبح سهلا اذا تعاطف معه الباحث أو وضع نفسه مكان (Einfuehlung) .

(٩) Max Weber, Basic Concepts in Sociology (New York, The Citadel Press, 1964). p. 29.

أو « الذرة » فالفرد هو الشيء الوحيد الذى لديه سلوك له معنى . . .
 أما المفهومات الأخرى مثل الدولة أو الرابطة أو الاقطاع فانها تشير الى
 فئات معينة من التفاعل الانسانى . وعلى هذا فان مهمة علم الاجتماع
 هي اختزال مثل هذه المفهومات الى « فعل يمكن فهمه » أى الى أفعال
 الافراد المشتركين فى النشاط » (١٠) .

وقد أقام فيبر نظريته على أساس التمييز بين أربعة أنماط أساسية
 من الفعل الاجتماعى هي :

١ - الفعل العقلانى الذى يرتبط بهدف ما .

Purposeful or goal oriented rational action.

٢ - الفعل العقلانى الذى يرتبط بقيمة ما .

Value-oriented rational action.

٣ - الفعل الوجدانى أو العاطفى . Emotional or affective action.

٤ - الفعل التقليدى . Traditional action.

والفعل العقلانى الذى يرتبط بهدف ما يتصف بأن الفاعل فيه يدرك
 بوضوح هدفا معينا يريد تحقيقه وتكون لديه أساليب مناسبة لتحقيق هذا
 الهدف . ومثال هذا النوع من الأفعال ما يقوم به المهندس الذى يصمم بناء
 معينا أو الشخص المضارب فى سوق الأوراق المالية الذى يهتدف الى
 تحقيق مكسب مالى أو القائد الحربى الذى يريد أن يحقق نصرا ما .
 أفعال هؤلاء جميعا أمثلة على الأفعال العقلانية التى ترتبط بتحقيق هدف
 معين .

أما الفعل العقلانى الذى يرتبط بقيمة ما فهو ذلك الفعل الذى لا يهدف
 الى تحقيق هدف خارجى معين بالنسبة للفرد بقدر ما يهدف الى التمسك
 بقيمة معينة لها أهمية عظمى عند الفرد . ومثال ذلك الفعل ما يقرره

(١٠) Hans Girth and C. Wright Mills (eds.) From Max Weber :
 Essays in Sociology (New York, Oxford University Press, 1946 p. 55.

قبطان السفينة من ألا يدعها تفرق وحدها بل يفرق معها أو حين يشترك فرد ما في مباراة يعلم أنه سيقتل فيها أما ما يسميه ماكس فينر الفعل الوجداني أو العاطفي فهو ذلك الفعل الذي ينجم عن حالة عاطفية أو نفسية مباشرة للفرد مثال ذلك حين تصفع الأم طفلها لأنه أتى سلوكا سيئا أو حين يضرب أحد لاعبي الكرة زميلا له في المباراة . هذه الأفعال أفعال وجدانية وليست أفعالا عقلانية لأنها ليست موجهة إلى هدف ولا مرتبطة بقيمة معينة ولكنها عبارة عن ردود أفعال عاطفية للفاعل الذي يجد نفسه في ظروف معينة .

أما الفعل التقليدي فانه ذلك الفعل الذي تمليه التقاليد ، والعادات الجمعية والمعتقدات . والفاعل في هذه الحالة لا يأتي فعله من أجل تحقيق هدف ما أو من أجل تمسكه بقيمة معينة أو لأنه مثار انفعاليا ولكن فعله يكون مجرد اطاعة لأفكار تم له اكتسابها من خلال عملية التطبيع الاجتماعي (١١) .

الأنماط المثالية : Ideal Types

تعتمد كل نظرية ماكس فيبر كما قلنا على هذا التصنيف للفعل الاجتماعي أو على ذلك التمييز Typology . والتتمييط له أهمية خاصة في نظرية ماكس فيبر فقد رأى فيبر أنه لكي نستطيع تحليل الظواهر الاجتماعية ، وهي موضوع علم الاجتماع لابد أن تكون لدينا أداة نقوم بالتحليل على أساسها تسهل لنا عملية المقارنة بين هذه الظواهر وبعضها البعض . وهذه الأداة هي ما أسماه فيبر بالنماذج أو الأنماط المثالية الخالصة Pure-ideal types (١٢) .

فالأربعة أنواع من الأفعال الاجتماعية السابق الحديث عنها تمثل نماذج مثالية أو خالصة للفعل الاجتماعي بمعنى أنها لا توجد في الواقع

Raymond Aron, op. cit, pp. 185 - 192.

(١١)

Edward Shils and Henry Finch, (eds.), Max Weber. On the Methodology of the Social Sciences (New York, The Free Press 1949), p. 90.

(١٢)

بهذه الكيفية ولكنها مجرد تصورات عقلية مستمدة من الواقع فعلا ولكنها لا توجد فيه بهذه الكيفية . وقد انطلق فيير بعد تصنيفه للفعل الاجتماعى الى تصنيف كافة الظاهرات فى المجال الاجتماعى . فقد صنف بناء على تلك مثلا أنماط السلطة أو السيطرة فرأى أن هناك سيطرة أو سلطة عقلانية وسلطة تقليدية وسلطة كاريزماتية .

كما أن تصنيفه للمجتمعات ، وكذلك تصوره لمراحل التطور التاريخى للمجتمعات الغربية قد اعتمد أيضا على تصنيفه للفعل الاجتماعى ، فالصفة الرئيسية للعالم الذى عاش فيه ماكس فيير كما يقول هى صفة العقلانية أو الأفعال العقلانية التى ترتبط بتحقيق الأهداف ، والمشروعات الاقتصادية ، فى النظام الرأسمالى هى مشروعات عقلانية كما أن سيطرة الدولة على المجتمع تكون أيضا سيطرة عقلانية عن طريق البيروقراطية .

والواقع أن اهتمام ماكس فيير قد انصب على أول نمط من أنماط الفعل الاجتماعى الأربعة أى الفعل الاجتماعى العقلانى الموجه نحو تحقيق أهداف محدودة لأن هذا النمط من الفعل الاجتماعى هو الذى يرتبط بذلك النموذج المثالى أو الخالص من نماذج المجتمع ويعنى به نموذج الرأسمالية الغربية المعاصرة (١٣) .

وقد أثار فيير سؤالين هامين بالنسبة للرأسمالية :

أولهما : ما هى الخصائص المميزة لتلك الظاهرة الاقتصادية الاجتماعية المسماة بالرأسمالية التى توجد فى الغرب ؟

ثانيهما : كيف ظهر هذا النموذج أو هذا النمط من المجتمعات ؟

وقد رأى فيير أن الرأسمالية قد ظهرت فى أزمان مختلفة فى تاريخ العالم وفى مناطق مختلفة منه ولكن أشكالها قد اختلفت عن الشكل الحديث للرأسمالية التى توجد فى العالم الغربى .

ولكى يصل ماكس فيبر الى تحديد الخصائص الاساسية للنمط الرأسمالى المعاصر فانه قد أجرى دراسات متعددة عن القانون وتاريخه وعن نظم الادارة ونظم الزعامة والحكم والنظم الدينية واستطاع من ذلك كله أن يستخلص اجابات عن السؤالين اللذين اثارهما كما سبق أن ذكرنا .

ان أهم خاصية للرأسمالية الحديثة هي طابعها العقلانى ويتضح ذلك الطابع العقلانى حين نقارن نمط التنظيم الادارى الذى يرتبط بها بغيره من للتنظيمات الادارية التى كانت سائدة فى انجلترا وفى فرنسا خلال عصر الاقطاع . وقد قام فيبر بتحليل انماط القانون والادارة المختلفة . وقرر فيبر أن المجتمعات الانسانية قد عرفت جميعها نمطا ما من السلطة . ذلك أنه فى أى مجموعة من المجموعات لابد أن يكون هناك فرد أو افراد يصدرون الأوامر ولابد أن يكون هناك آخرون يطيعون هذه الأوامر والذين يصدرون الأوامر يتوقعون أن تطاع أوامرهم .

والسبب فى ذلك أن الذين يصدرون الأوامر والذين يطيعونها يشتركون سويا فى معتقدات معينة أو بعبارة أخرى يعتقدون بأن السلطة لها طابع شرعى ولكن أساس هذه الشرعية قد يختلف من حالة لأخرى فهناك كما قال فيبر ثلاثة نماذج مثالية أو أنماط خالصة من السلطة يمكننا أن نميزها تبعا لشرعيتها هي .

١ - الشرعية العقلانية وهي تلك التى تعبر عن الاعتقاد فى مشروعية أنماط القواعد المعيارية وحق أولئك الذين تحددهم هذه القواعد فى ممارسة السلطة وإصدار الأوامر .

٢ - المشروعية التقليدية وهي التى تعتمد على الاعتقاد فى قدسية التقاليد الراسخة وفى حق أولئك الذين يتولون السلطة فى ممارستها .

٣ - المشروعية الكارزمية (وقد سميت بذلك الاسم الذى اشتق من الكلمة اليونانية التى تعنى العظمة والموهبة) وتعتمد هذه المشروعية الكارزمية على ولائ الناس أو الاتباع لفرد معين يتمتع بامتياز وقدرات

نادرة وخصائص شخصية كالبطولة أو العظمة ينبغي أن تتوافر لغيره .
ومثل هذا القائد أو الزعيم يلقي الطاعة من الأتباع لأنهم يعتقدون أن أى
أنماط معيارية أو أى أوامر يصدرها إنما هى أشياء مقدسة .

وقد أشار فيبر الى أن الطاعة فى الحالة الأولى (أى فى حالة
المشروعية العقلانية) ترجع الى النظام القانونى القائم والذي يتصف
بالصفة الشخصية . بينما ترجع فى الحالتين الثانية والثالثة الى صفات
شخصية .

والمشروعية العقلانية هى نمط فريد من السلطة ظهر فى الحضارة
الغربية وحدها وقد أشار فيبر الى أن أيا من النماذج المثالية أو الخالصة
لا توجد فى شكل خالص فى أى فترة تاريخية ولكن ما وجد فى أى حالة
من الحالات أو فى أى فترة من الفترات التاريخية لم يكن سوى شىء قريب
من هذه النماذج العقلية الخالصة .

البيروقراطية (١٤) :

درس ماكس فيبر بالتفصيل العلاقة بين الأنساق الاجتماعية
والاقتصادية وبين أن هذه الأنساق كانت تتجه باستمرار الى العقلانية .
وقد قرر فيبر أن ذلك النمط من القانون العقلانى إنما هو ظاهرة حديثة
نوعا فى التاريخ الانسانى وأنه قد ارتبط أساسا بظهور الرأسمالية
الحديثة . والقانون العقلانى مثل الرأسمالية الحديثة نتاج للحضارة
الغربية الحديثة . وتساءل فيبر عن الرابطة بين الاثنين وقد حاول أن يجيب
على هذا السؤال عن طريق دراسته لتطور ما أسماه بالادارة
البيروقراطية .

وهنا نجد مرة ثانية اهتمام ماكس فيبر بعملية التمييز أو تصنيف
الظواهر الى أنماط معينة . وقد تحدث فيبر كثيرا عن نمط معين من
الادارة هو البيروقراطية ورأى أن البيروقراطية كنمط مثالى للادارة يرتكز

أساسا على السلطة القانونية العقلية التى تمثل أساس المشروع • ورأى أن البيروقراطية عبارة عن عملية مستمرة من أداء الوظائف الرسمية طبقا لقواعد ومعايير • فالأشخاص الذين يؤدون هذه الوظائف لهم مجالات محددة ويتمتعون بالسلطة الضرورية التى تساعدهم على أداء مهامهم وهذه السلطة موزعة بطريقة معينة بحيث تضمن نوعا من التدرج فى الوظائف الرسمية وبحيث نجد فى نهاية الأمر أن هناك مجموعة من الأشخاص الرسميين لهم مهام إشرافية على غيرهم من الأشخاص • ولكى يستطيع هؤلاء الأشخاص ممارسة السلطة فلا بد أن تتوافر لديهم بعض المؤهلات والخصائص • وليس من الضرورى أن يمتلك أولئك الذين يمارسون السلطة الادارية أى وسائل للانتاج كما ليس من الضرورى أن يستخدموا وظائفهم الادارية لتحقيق أى أغراض شخصية • والأفعال ذات الطبيعة الادارية مسجلة كتابة فى شكل لوائح أو قوانين مما يضمن صفة الاستمرارية للعملية الادارية •

والخصائص المميزة لحياة الأشخاص الرسميين فى النمط البيروقراطى من الادارة هى :

أنهم يتصرفون بطريقة لا شخصية تبعا للقواعد التى تحدد مجال عملهم وأنهم يشغلون هذه المناصب بالتعيين وليس بالانتخاب ويعتمد تعيينهم على توافر مواصفات معينة فيهم ، وعادة ما يحصلون على مناصبهم بعد اجتيازهم لاختبارات معينة • ويحصل هؤلاء البيروقراطيون على مرتبات بناء على جدول مرتبات معين ويحصلون على معاشات بعد عدد من السنوات التى يقضونها فى الخدمة • وعادة ما لا يكون هؤلاء الأشخاص أعمال أخرى •

وقد تشارن ماكس فيبر هذا النمط من التنظيم الادارى (أى البيروقراطية) بالتنظيم الادارى الذى يرتبط بشكل السلطة التقليدية • وفى التنظيم الادارى الذى يرتبط بالسلطة التقليدية لا تعتمد اطاعة الأفراد لبعضهم البعض على قواعد أو لوائح محددة وإنما يعتمد ذلك على نوعية الشخص الذى يشغل مركز السلطة التقليدية • وتحدد التقاليد أساليب

تصرف المسئول الإداري التقليدي في بعض الأحيان أو تترك له حرية التصرف الكاملة في أحيان أخرى وبالعكس ما هو موجود في النمط البيروقراطي من الإدارة نجد أن النمط التقليدي من الإدارة يعتمد على اختيار الأشخاص لممارسة هذه المهنة ليس بناء على خصائص محددة من قبل واختبارات معينة ولكن على أساس صلتهم بالرئيس أو القائد ولأنهم الشخصي له .

وهكذا ترى أن فيبر رأى أن الخاصية الرئيسية للراسمالية الغربية الحديثة هي العقلانية في كل من القانون والإدارة . كما رأى أن هذه العقلانية تعتمد على افتراضات أساسية معينة وعلى معتقدات أساسية يشترك فيها الأفراد في المجتمع الغربي وتلك المعتقدات هي ما أسماها المشروع القانوني العقلانية . ولكن هناك خصائص أخرى في الراسمالية كما عرفها الغرب تحدث عنها ماكس فيبر بالتفصيل .

الأخلاق البروتستنتية والروح الراسمالية :

إن أهم خصائص النمط الراسمالي الحديث الذي يوجد في الغرب هو ما أسماه فيبر بروح الراسمالية Spirit of Capitalism . والروح الراسمالية هي عبارة عن نسق الأخلاقيات أو الاتجاهات نحو الحياة وما يجب أن يفعله الإنسان فيها . وقد شرح ماكس فيبر فكرته عن روح الراسمالية بالتفصيل في مقاله الشهير « الأخلاق البروتستنتية وروح الراسمالية » (١٥) .

وقد حاول في هذا المقال أن يشرح أصول الراسمالية . ومن أهم خصائص الروح الراسمالية أو الاتجاهات الأخلاقية التي ترتبط بالروح الراسمالية الاعتقاد بأنه من الأشياء المفيدة أن ينفق الإنسان طاقاته من أجل الحصول على دخل أو من أجل جمع المال وأن يفعل ذلك حتى بعد أن تتوفر له احتياجاته الأساسية بمعنى آخر أن يصبح جمع المال هدفا في حد

ذاته أو أن يكون من أهم أهداف الانسان فى الحياة زيادة ثروته بغض النظر عن الأساليب المتبعة فى ذلك طالما كانت الأساليب تتصف بالكفاءة . وتتصف هذه الروح أيضا بالمرونة والابتكار . وبالطبع كان لدى الناس فى أزمنة وأماكن مختلفة مثل هذه القيم ولكنها لم تكن سائدة بينهم كما حدث فى القرنين الأخيرين فى أوروبا وأمريكا بحيث أصبحت هذه القيم ، أى قيم الربح وزيادة الثروة ، ذات أثر عظيم على الناس . وادعى ماكس فيبر أن هذه القيم أو هذه الروح تتصف بصفة العمومية فى العالم الحديث . ولكن هذه الروح أصبحت قوية جدا فى الغرب وذلك يستدعى تفسيراً علمياً . وأثار فيبر سؤالاً مؤداه كيف نشأت هذه الروح الرأسمالية أصلاً ؟

قرر فيبر أنه لا بد أن يكون هناك عامل ما ارتبط بظهور الروح الرأسمالية أو شجع على ظهورها ، وقرر أن هذا العامل كان هو قيام الحركة البروتستانتية ورأى أنه كانت هناك عناصر فى الأخلاق البروتستانتية شجعت على ظهور الروح الرأسمالية ، أولها وأهمها روح التقشف التى تتصف بها البروتستانتية والتى تشكل جانبا ضروريا من الروح الرأسمالية . وأيضا ذلك الاتجاه الدينى المستمد من تعاليم مارتن لوثر (١٦) . ومن عناصر هذه الأخلاق البروتستانتية أيضا ذلك التأكيد على تنظيم الحياة الشخصية للأشخاص المسيحيين وعلاقاتهم الاجتماعية . ومجموع هذه العناصر أدت الى خلق اتجاه عام فى الأخلاق البروتستانتية يؤكد على ضرورة أن يحيا الانسان حياته بطريقة منظمة ومرتبطة ونشطة وتتسم هذه الحياة بالسماة الشخصية وأهم شئ فى ذلك الاتجاه هو تأكيد الأخلاق البروتستانتية على الروح الفردية وعلى الاتجاهات الدنيوية . وقد حاول فيبر أن يدرس العلاقة بين الدين وبين غيره من جوانب الحياة الانسانية وخاصة الاقتصادية . ورأى أن هناك بعض الاتجاهات الدينية

(١٦) مارتن لوثر (١٧٤٣ - ١٥٤٦) ، زعيم حركة الإصلاح الدينى البروتستانتى فى ألمانيا .

يمكن أن تساعد على النشاط الاقتصادي بينما هناك اتجاهات دينية أخرى تمثل عقبة في طريق التقدم الاقتصادي (١٧) .

ويرى عالم الاجتماع الشهير ميتشل أن أهم اسهامات فيبر في علم الاجتماع هي محاولته تفسير ذلك النسق الاجتماعي الاقتصادي المعروف باسم الرأسمالية على أسس تاريخية واجتماعية عن طريق استخدام الدراسات المقارنة . وقد استخدم لتحقيق هذا الهدف عدة أساليب للتحليل أهمها مفهوم النموذج المثالي أو النموذج الخالص ويرى ميتشل أيضا أن فيبر كان يتمتع بالجرأة العقلية وبالالتزام السياسي وبالخصائص المهنية في عاداته وأسلوب تحليله (١٨) .

أهم معالم فكر ماكس فيبر :

يتضح لنا من عرضنا السابق أن فكر ماكس فيبر يتصف بالصفات الأساسية التالية :

أولا : الالتزام الأيديولوجي الواضح بالنظام الرأسمالي وتمجيده واعتباره النظام الأمثل للبشرية الذي يجب الحفاظ عليه وإدخال التحسينات والتعديلات به ، ويرتبط بذلك نزعة عنصرية واضحة تتمثل في الدعوة إلى سيطرة المانيا على غيرها من البلدان .

ثانيا : أصبح ماكس فيبر عالم اجتماع عن طريق اشتباكه في جدل طويل وعنيف مع شبح كارل ماركس كان هدفه اثبات خطأ أفكار ماركس الثورية وتحدي ادعاء ماركس بأن الاشتراكية أرقى من الرأسمالية من الناحية الانسانية والأخلاقية .

(١٧) يجب أن نلاحظ أن الكثير من الكتابات الحديثة عن الدول النامية أو المتخلفة تتبنى هذه الفكرة وترجع التخلف الاقتصادي والتكنولوجي لدول العالم الثالث بشكل عام والدول العربية بشكل خاص إلى أسباب دينية . ويمكن للقارئ الاطلاع على نموذج لمثل هذه الادعاءات الكاذبة في كتاب رافائيل بتاي - العقل العربي والذي يؤكد فيه أن سبب تخلف الدول العربية هو تمسكها بالدين الاسلامي الذي يحث على التمسك بالمعتقدات والتقاليد القديمة ويحول دون تبني الأفكار الحديثة أو يقف حائلا دون تحديث العالم العربي .

(١٨) Duncnan. Mitchall, A Hundred Years of Sociology. (١٨)
(Aladine Publishing Company, Chicago. 1971) pp. 84 - 101.

ثالثا : افترض ماكس فيبر أن أساس الواقع الاجتماعى سيكولوجى
فكرى وبالتالي فان موضوع علم الاجتماع يصبح دراسة أشكال هذا
الواقع السيكولوجى .

رابعا : وحدة التحليل الأساسية عند فيبر هى الشخص الفاعل
ولابد من اختزال كل المفاهيم الأخرى مثل الدولة أو الرابطة أو النظام
الاجتماعى الى فعل يمكن فهمه ، أى الى أفعال الأفراد المشتركين فى
النشاط .

خامسا : على الرغم من أن فيبر لم ينكر أهمية العوامل المادية فى
المجتمع الا أنه رأى أنها تابعة للعوامل الفكرية وليست أصلا لها .

سادسا : صور فيبر الانسان على أنه أسير واقعه الاجتماعى وأنه
ليس قادرا على تغييره وحذر من الثورة فالعمال قد يكسرون أغلالهم
بالثورة ولكنهم لن يكسبوا شيئا من ورائها .

سابعا : ان أنماط ماكس فيبر الخالصة أو المثالية عن السلطة وعن
الفعل الاجتماعى أنماط تصورية لا تستند على أدلة واقعية كما أن
افتراضاته عن الطبيعة المثالية للواقع الاجتماعى وبخاصة مقولته التى
مؤداها أن الرأسمالية نشأت عن الروح البروتستانتية لا تستند على أدلة
تاريخية امبريقية .

الفصل السابع

فلفريدو باريتو ونظرية الصفوة

الموقف الأيديولوجي لباريتو :

إذا كان ماكس فيبر قد لقب بكارل ماركس البورجوازية فان فلفريدو باريتو (١٨٤٨ - ١٩٢٣) قد لقب بكارل ماركس الفاشية (١) . وقد اشترك كل من فيبر وباريتو في محاولة هدم الأفكار الاشتراكية الماركسية وتقديم بديل عنها وتصدى كل منهما للدفاع عن النظام الرأسمالي وعن الطبقة الرأسمالية الحاكمة . ومثلما كان الالتزام الأيديولوجي لفيبر وغيره من رواد علم الاجتماع الغربي واضحا منذ البداية ومحددًا لنظرياتهم الاجتماعية فان التزام باريتو الأيديولوجي كان أيضا واضحا حتى قبل أن يكتب كلمة في علم الاجتماع وعندما كان يعمل مديرا لشركة للسكك الحديدية بايطاليا ومهندسا بمناجم استخراج الحديد . فقد كان التركيز باريتو عضو بارزا في المنتديات البورجوازية ومخالطا دائما للطبقة الأرستقراطية العالية . ورفض بشدة الأفكار الديمقراطية والجمهورية وعارض أى تقييد للتجارة أو الاقتصاد وأى تدخل من جانب الحكومة في الأعمال الخاصة . وتشكل كتابات باريتو محاولة طموحة ولكنها فاشلة لهدم وإدانة مبادئ فلسفة التنوير في القرن الثامن عشر والتاسع عشر . وتعتبر كتساباته المستفيضة هجوما سافرا على النظريات الليبرالية - الديمقراطية والاشتراكية والماركسية بصفة خاصة (٢) . وعبر باريتو

(١) أطلق عليه هذا اللقب العالم الأمريكي ويليام ماكديجال . انظر في ذلك :
Lewis Coser. Masters of Sociological Thought. (Harcourt Brace Jovanovich, Inc. New York, 1977) p. 123.
(٢) Irving M. Zeitlin, Ideology and the Development of Sociological Theory (Prentice Hall, Inc. New Jersey. 1968 p. 159.

خلال حياته مرارا وتكرارا عن احتقاره لمفاهيم التقدم والانسانية والديموقراطية وأطلق عليها تسمية « الديانات العلمية » التى رأى أنها عديمة القيمة مثلها مثل الديانات الأخرى (٣) . فالاشتراكية والديموقراطية والانسانية والمسيحية كلها أفكار غيبية وغير منطقية ويستخدمها البعض فقط من أجل خداع الآخرين لتحقيق أغراضهم الخاصة . ومفاهيم الوطنية والشرف والفضيلة لا أساس لها من الناحية الموضوعية ولا وجود لها وهى مجرد تعبيرات عن عواطف ذاتية .

وعداء باريتو للديمقراطية وللانسانية وللإشتراكية واتجاهه نحو الفاشية جاء بعد فترة اعتناقه للمبادئ الإصلاحية وفى ذلك يقبل زائتلين :

« عندما كان باريتو شابا يعيش فى فلورنسا كان يعارض العنف ويدعو الى السلم Pacitist وإلى المبادئ الانسانية وكان ليبراليا من ناحية النظرية الاقتصادية ، وفى عام ١٨٩١ كتب يقول : ان الحرب والسلم المسلح من أكثر ألوان الرفاهية تكلفة والتى تلجأ اليها الطبقة الحاكمة على حساب الأمة » وكان أيضا يعارض الاستعمار فكان يرى أن توتكين تكلف فرنسا كثيرا كما أن تونس لا تفيد إيطاليا الا من حيث أن الاحتفاظ بها يتيح بعض الوظائف الادارية لأبناء الطبقة البورجوازية . ولكن باريتو ؛ لسبب غير معروف ، اتخذ موقفا معاكسا تماما لذلك فيما بعد بحيث أصبح لاهم له سوى احتقار وكرهية الدعاوى الانسانية وتصوير الطبقة المحكومة على أنها ضعيفة والصفوة الحاكمة على أنها رمز القوة .

ويرى بوسكيه أنه على الرغم من هذا التغير فإن باريتو ظل عند رأيه عن شرور الحرب . ولكن هذا الرأى غير سليم لأن باريتو أخذ يمتدح استخدام الصفوة للقوة فى الصراع الطبقي وكذلك فى الصراع بين الدول وعند نهاية القرن التاسع عشر أصبح باريتو من أعداء الديمقراطية الانسانية (٤) .

(٣) نيقولا تيماشيف . النظرية فى علم الاجتماع . مرجع سبق ذكره . ص ٢٦١ .
Irving M. Zeitlin op. cit., pp. 161 - 162.

(٤)

ويرى كوزر أن كراهية باريتو للأفكار اليسارية التي تصل إلى حد المرض قد صبغت كل كتاباته وأن فقدانه للثقة في الانسانية ، وهو استعداد شخصي لديه ، قد تزايد بشكل ملحوظ عندما عاد من رحلة إلى باريس ليجد أن زوجته قد فرت مع الطباخ الذي كان يعمل لـديهما وحملت معها ثلاثين حقيبة بها ما كان يملك من أشياء ثمينة ، ومع ذلك لم يستطع أن يحصل على الطلاق منها لأن القانون الإيطالي لم يكن يبيح الطلاق (٥) .

وقد كانت هناك علاقة وثيقة بين باريتو وبين الفاشية في إيطاليا ، بل بينه وبين موسوليني شخصيا . فبعد تولي الديكتاتور الإيطالي موسوليني للسلطة منحه باريتو كل تأييده ، كما أن موسوليني كافأه على هذا التأييد للديكتاتورية والفاشية بأن منحه مقعدا في مجلس الشيوخ الإيطالي وكرمه في كثير من المناسبات كما دعاه للكتابة في المجلة الفاشية Gerachia التي كان يشرف عليها شخصيا . وقد طبق موسوليني البرنامج الذي دعا إليه باريتو ففضى على الليبرالية وعلى الحركة العمالية وفي نفس الوقت اتبع سياسة اقتصادية تقوم على منح كل الحريات للمشروعات الرأسمالية وتقيد تدخل الحكومة في الاقتصاد وكان موسوليني شديد الإعجاب بباريتو لدرجة أنه عندما كان في منفاه في سويسرا سجل اسمه لحضور مقرر من المقررات التي كان يدرسها باريتو في لوزان .

وقد أعلن كثيرون من المتحدثين باسم الفاشية أن كتابات باريتو كانت من المصادر الأساسية لأيديولوجيتهم . وقد وصف موسوليني نظرية باريتو عن الصفوة بأنها « أعظم النظريات السوسيولوجية في العصر الحديث » (٦) .

وقد ظلت آراء باريتو مصدرا رئيسيا يلجأ إليه الفلاسفة ورجال السياسة وعلماء الاجتماع ليبرروا به آراءهم المحافظة وليواجهوا به الأفكار الاشتراكية . ويقرر ألفن جولدنر عالم الاجتماع الشهير أن أساتذة

Lewis Coser. op. cit., p. 405.

Lewis A. Coser. op. cit., pp. 400 - 407.

(٥)

(٦)

الجامعات الأمريكية عندما شعروا بخطر تغلغل الفكر الماركسي في الجامعات الأمريكية في الثلاثينات من هذا القرن لجأوا الى علم الاجتماع الأوربي التقليدي ليستعينوا به في مهاجمة الأفكار الاشتراكية وكان من أهم مصادرهم كتابات باريتو ، فتكونت مجموعة من أساتذة جامعة هارفارد لهذا الغرض وأطلقت على نفسها مجموعة باريتو The Prèto Circle وقد ضمت هذه المجموعة تولكوت بارسونز وجورج هومانز وكرين ينتون وهندرسون ، ونظمت حلقات دراسة Seminar عن باريتو بدأت في خريف ١٩٢٢ وظلت تنعقد بانتظام حتى ١٩٢٤ وانضم اليها أيضا روبرت مرتون وهنري موراي وكلايد كلاكهون . وقد اتخذت مجموعة باريتو هذه موقفا سياسيا يمينيا محافظا متطرفا لا يعارض الشيوعية فحسب ولكن تعارض أيضا الاتجاهات الليبرالية الأمريكية المعتدلة . وكان من الواضح أن هذه المجموعة قد تكونت لأغراض سياسية وكانت تبحث عن تبرير نظري لهجومها على الماركسية (٧) .

هذا هو موقف باريتو الأيديولوجي فكيف عبر عنه في نظريته الاجتماعية ؟ .

علم الاجتماع عند باريتو :

لم يكتب باريتو في علم الاجتماع بصفة خاصة سوى مؤلف واحد هو « مقدمة عامة في علم الاجتماع » وهو مؤلف ضخم من مليون كلمة نشر عام ١٩١٦ (١) عندما كان باريتو في الثامنة والستين من عمره (باللغتين الفرنسية والاطالية. ولم يترجم الى الانجليزية الا في عام ١٩٣٥ حيث صدر بعنوان « العقل والمجتمع (٨) » ، أما قبل ذلك فقد نشر مجموعة من المقالات في السياسة والاقتصاد . ونشر كتابا بعنوان النظم الاشتراكية

Qouted from : Barbara S. Heyl, «The Harvard Pareto (٧) Circle», Journal of the History of Behavioral Sciences. IV No. 41. 1968. pp. 316 - 334, by Alvin Gouldner. The Coming Crisis of Western Sociology, p. 149.

Arthur levingston (ed.) Mind and Society 4 vols. (New (٨) York : Harcourt Brace 1935).

Les Systemes Socialistes عام ١٩٠٢ وكان عبارة عن تحليل نقدي للفكر الاشتراكي ولتدخل الحكومة في لاقتصاد .

وعد اهم باريتو نظريته الاجتماعية على أسس وضعيه اختر تطرقا من تلك التي اقام عليها كونت نظريته (الواقع أنه تأثر بحونت كثيرا على الرغم من عدم اعترافه بذلك) . ورأى أن علم الاجتماع لابد أن يصبح علما تجريبييا منطقيا يعتمد على الملاحظة والتجربة الى أقصى درجة بحيث يتجنب تماما أي استنتاجات أو تأملات تخرج عن نطاق الوقائع التي يلاحظها ، ولا يجب أن يحتوى علم الاجتماع على أي شيء سوى وصف الوقائع التي يلاحظها ، ولا يجب أن يحتوى علم الاجتماع على أي شيء سوى وصف الوقائع وكيفية انتظامها ولا يجب أن يسعى الى البحث عن علاقات سببية أو الى دراسة ظاهرات كيفية (٩) .

وهنا تبرز أولى المسلمات التي يركز عليها فكر باريتو بأسره والتي تحمل ايديولوجيته في نفس الوقت . فهو يسلم أن موضوع العلم هو الوقائع القائمة التي يجب أن يتخذ منها العالم موقفا ايجابيا لا موقفا نقديا أو سالبا وهو يلغى بذلك تماما الذات المفكرة عند العالم مثلما فعل كونت ويستبدل بها الذات المدركة . والوقائع التي يدرسها علم الاجتماع هي بالطبع وقائع النظام الاجتماعي القائم . كما أن باريتو بذلك انما ينفي تماما أهمية البعد التاريخي في فهم الظاهرات الاجتماعية ويرى أن تفسير الماضي يجب أن يكون من خلال الحاضر ، لا العكس ، أي تفسير الحاضر على ضوء الماضي (١٠) .

ولكن أي وقائع تلك التي يجب أن يركز علم الاجتماع على دراستها والتي يعتبرها باريتو أساس الحياة الاجتماعية ؟ انها بالطبع ليست الوقائع المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية - الاقتصادية كما يرى غريمه ماركس

(٩) Don Martindal. Nature and Types of Sociological Theory
Routledge and Kegan Paul. London. 1967. pp. 101 - 120.

(١٠) نيقولا تيماشيف . نظرية علم الاجتماع ص ٢٦٠ .

ولكنها الوقائع السيكلوجية • فالقوة الأساسية في المجتمع والتي تحدد كل السلوك الانساني في رأى باريتو هي العاطفة sentiment والعاطفة هي بمثابة غرائز أو ميول انسانية فطرية ذات طبيعة ثابتة لا تتغير • ولذلك أطلق عليها تسمية الثوابت Constants • ولكن هذه العواطف لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر ويمكن فقط الاستدلال عليها من خلال الأفعال التي يأتيها الافراد actions ومن خلال التبريرات التي يقدمونها لهذه الأفعال في صورة أفكار أو نظريات أو عقائد ويحاولون بها اضافة الطابع المنطقي على أفعالهم غير المنطقية • وإذا كانت العواطف ثابتة لا تتغير فان الأفعال والتبريرات التي يقدمها الناس لها تتخذ صوراً مختلفة • وعلى هذا فان المعتقدات والأيدولوجيات ليست سبباً في السلوك الانساني ولكنها مجرد تبرير له أو محاولة لجعله يبدو منطقياً ، وكل العقائد والأيدولوجيات والنظريات (مثل الدين والاشتراكية والانسانية والديموقراطية ٠٠٠ الخ) ليست سوى أساطير يبتدعها الناس لتبرير أفعالهم الناجمة عن عواطفهم الثابتة ولا يمكن اثبات صدقها واستخدامها الناس ليضيفوا بها الاحترام على أفعالهم غير المنطقية وتختلف هذه الأساطير من آن لآخر وبين قوم وقوم آخرين ولكنها جميعها تشترك في أنها تبرير لفعل واحد يعبر عن عاطفة واحدة • فالصيني والمسلم والكاثوليكي والكانتي والهيغلي والمادى جميعاً يمتنعون عن السرقة (فعل واحد) ولكن كلاً منهم يبرر سلوكه تبريراً مختلفاً، وهذا التبرير ليس السبب الحقيقي في امتناعهم عن السرقة ولكن السبب الرئيسي يكمن لديهم جميعاً في عاطفة انسانية واحدة مشتركة هي عاطفة احترام الذات •

والعواطف أو الغرائز الانسانية ذات الطابع الفطري والبيولوجي ليست موضوع علم الاجتماع ولكنها موضوع دراسة علم النفس ، ويجب على علم الاجتماع أن يبدأ بالتسليم بها كحقائق ثابتة • ويرتبط بهذه العواطف ثلاث عناصر أساسية هي التي تشكل موضوع اهتمام علم الاجتماع هي :

(١) الرواسب •

(ب) والأفعال •

(ج) والمشتقات (*) .

(أ) **الرواسب Residues** وهى عبارة عن اتجاهات نفسية ثابتة ترتبط ارتباطا وثيقا بالعواطف والغرائز وتقع فى مركز وسط بين العواطف والفعل الانسانى وأسماها بالرواسب لأنها ثابتة وغير متغيرة . ودراسة هذه الرواسب تمكننا من التعمق فى اسباب الأفعال الانسانية . ورأى باريتو أنه على مر تاريخ الغرب وجدت دائما ست فئات من الرواسب التى ترتبط ارتباطا وثيقا بغرائز انسانية أساسية معينة هى :

١ - غريزة الترابط **Instinct for Combination** وهى عبارة عن الميل الى اقامة علاقات بين الأفكار والأشياء واستخلاص استنتاجات من مبادئ معينة والميل الى التفسير . وهذه الغريزة هى التى جعلت الانسان انسانا وجعلت لديه أفعالا وتعبيرات ونظريات وتبريرات . وهذه الغريزة هى السبب فى التقدم الفكرى للانسان وفى تطور الذكاء والحضارة . وحين تكثر هذه الفئة من الرواسب فى مجتمع ما فانه يكون مجتمعا متقدما .

نلاحظ ان :

٢ - استمرارية الترابطات **Persistence of aggregates** ويعنى بذلك الميل الانسانى الى الحفاظ على الارتباطات التى أقامها الانسان بين الأشياء والأفكار ورفض التغير ، وهذا الميل الفطرى عكس غريزة الترابط السابق الحديث عنها . فبعد أن تتكون ارتباطات معينة بين الأشياء والأفكار تبدأ غريزة الاستمرارية عملها بدرجات مختلفة من القوة لكى تحول دون الفصل بين الأشياء التى تم الربط بينها . أى أنه اذا كانت الفئة الأولى

المراجع

(*) اعتمدنا فى عرضنا لأفكار باريتو على المراجع الأساسية التالية :

- (1) Don Martindale, Nature and Types of Sociological Theory.
- (2) Raymond Aron, Main Currents in Sociological Thought.
- (3) Irving Zeitlin : Ideology and Sociological Theory.
- (4) Lewis Coser : Masters of Sociological Thought.
- (5) Talcot Parsons, Vilfredo Pareto, in the International Encyclopedia of the Social Stiences.

وجميع هذه المراجع اعتمدت بصفة أساسية على مؤلف باريتو :
Treatise on General Sociology.

من الرواسب (الترابط) تؤدي مهمة التغيير فان هذه الفئة تؤدي مهمة
الثبات في المجتمع . .

٣ - الحاجة الى التعبير عن العواطف بأفعال خارجية (التعبير
عن الذات) The need of expressing sentiments by external acts.
مثال ذلك اللجوء الى طقوس معينة مثل التصفيق أو صيحات المرح
أو الغضب . . . الخ .

٤ - الرواسب التي ترتبط بغريزة تكوين مجتمعات والانتماء اليها
Sociability وترتبط هذه الفئة من الرواسب بالفئة الثانية الخاصة
باستمرارية التجمعات . وتتصل اتصالا وثيقا بالنظام discipline في
المجتمع . فجميع الناس لديهم ميل فطري لتكوين روابط أو تجمعات
وخاصة الروابط الاختيارية . وهذه الروابط (مثل فريق قومي لكرة القدم
أو حزب سياسي) تستثير عواطف تحافظ على استمرار بقائها .

كما أن جميع الناس لديهم ميل الى الوحدة في الشعور والتفكير
need for uniformity يجعلهم يعاقبون من يخرج على هذه الوحدة .
وهذا الميل الى الوحدة في الشعور والتفكير يوجد حتى لدى من يدعون
الى حرية العقيدة . ويعبر هذا الراسب عن نفسه في أسلوب الملبس
والتصرفات المختلفة الموحدة وترتبط به عواطف مثل الشفقة Pity والقسوة
cruelty والخوف المرضي من الجديد Neophobia .

٥ - راسب تكامل الشخصية Integrity of personality ويشير الى
الدافع نحو المحافظة على الذات وحمايتها من أي شيء يمكن أن يصيبها
بالاضطراب وهذا الراسب هو الذي يجعلنا نقاوم أي هجوم على ذاتنا
أو على المجموعة التي تنتمي اليها أو على المركز الاجتماعي الذي نحتله
أو على المجتمع الذي نعيش فيه .

٦ - راسب الجنس The sex residue وهو غريزة أساسية عند
الانسان وتهم عالم الاجتماع فقط من حيث ارتباطها بالفلسفات أو الديانات
التي تدعو الى الفضيلة الجنسية Virtuist religions .

(ب) الأفعال actions .

هى تلك التصرفات الظاهرة والمعلوسة concrete التى يمكننا ملاحظتها . وهذه الأفعال اما منطقية logical أو غير منطقية non logical وقد سلم باريتو منذ البداية أن غالبية أفعال الانسان غير منطقية . وقد عرف باريتو الأفعال المنطقية بأنها « تلك التى تستخدم أساليب مناسبة لأهدافها والتى تربط بين الأساليب والأهداف ربطا منطقيا » . وهذا النوع من الأفعال لا يتوفر الا فى المجال العلمى والاقتصادى أما ما عدا ذلك من المجالات فالغلبة للأفعال غير المنطقية ، فالانسان بطبعه لاعقلانى وتحركه قوى غير منطقية والأفعال غير المنطقية تنجم أساسا عن حالات سيكولوجية وعواطف ومشاعر لا شعورية ، ووظيفة علم النفس هى بحث هذه الحالات ووظيفة علم الاجتماع هى وصف الأفعال غير المنطقية وتصنيفها وربطها بالعواطف أو بالرواسب الثابتة المؤدية اليها وبالتبريرات الفكرية التى يقدمها الانسان لأفعاله غير المنطقية هذه . وليس من وظيفة علم الاجتماع دراسة الأفعال المنطقية . وعلى ذلك فحين يقرر باريتو أن هدف علم الاجتماع هو دراسة المجتمع الانسانى بوجه عام وتقديم نظرية عامة عن المجتمع فانه يعنى دراسة السلوك أو الفعل غير المنطقى ودوافعه وتبريراته وما يترتب على ذلك من تنظيمات اجتماعية .

(ج) المشتقات derivations :

إذا كان السلوك الانسانى فى معظمه سلوكا غير منطقى وغير عقلانى تحركه قوى ثابتة ذات طابع بيولوجى وفطرى هى الغرائز أو العواطف التى ترتبط بها الرواسب الست التى ذكرها باريتو فان هناك تبريرات فكرية غير ثابتة ومتغيرة يلجأ اليها الانسان ليكسب أفعاله غير المنطقية الصفة المنطقية وهذه التبريرات تتمثل فى الأديان والعقائد والأيدولوجيات والنظريات غير العلمية والقيم والمثل العليا . ويرى باريتو أنه من الخطأ أن نعتبر هذه الأشياء الأسطورية سببا فى السلوك الانسانى لأن الأسباب الحقيقية للسلوك تكمن فى العواطف والرواسب . مثال ذلك أن لدى الانسان رعبا حقيقيا من القتل وتلك عاطفة أو غريزة ثابتة لديه ولذلك فانه لا يقتل ، ومع هذا فانه يبرر عدم ارتكابه للقتل بأن يقول لنفسه

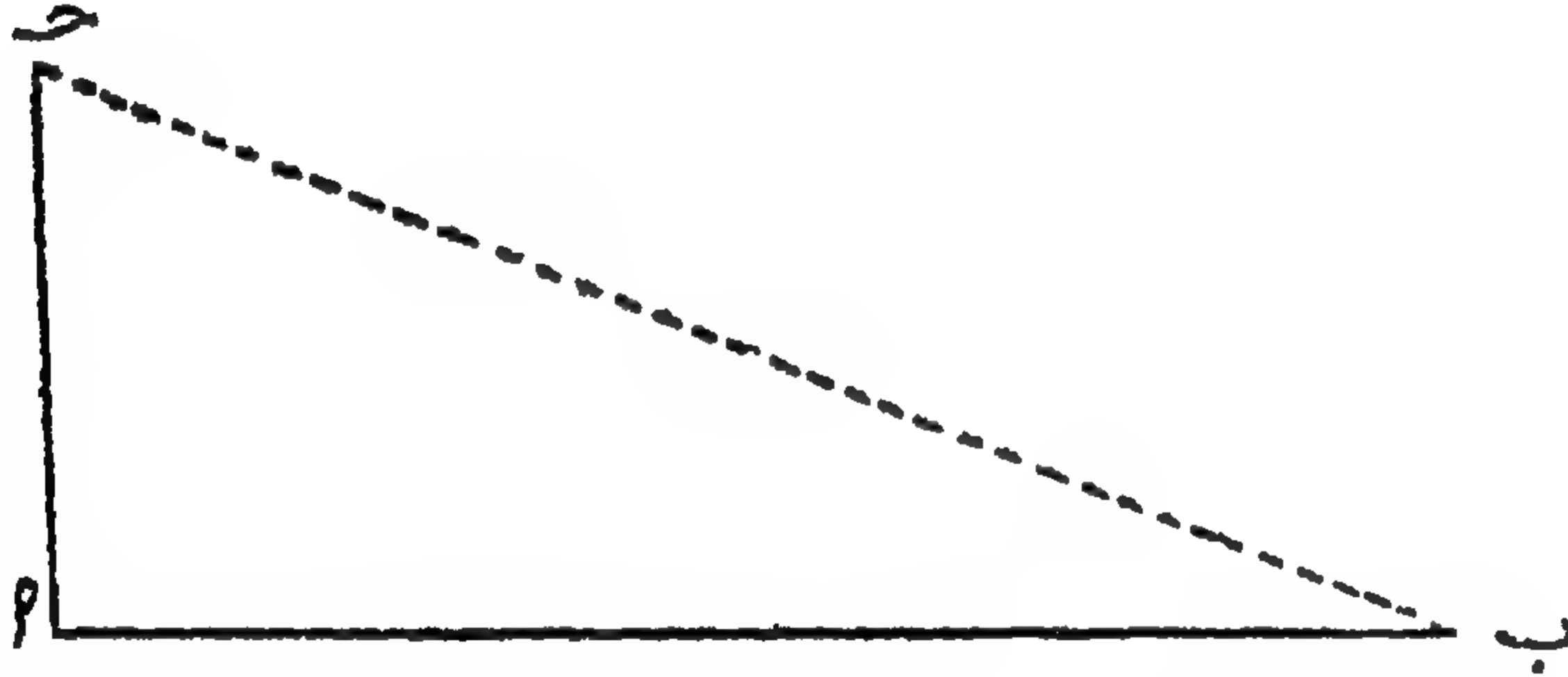
« ان الآلهة تعاقب القتل » ويتصور أن هذا هو السبب الذي يجعله يمتنع عن القتل . ومثل هذا القول ليس الا تبريرا لفعله غير المنطقي الذي تدفعه اليه غريزة أو عاطفة ثابتة لديه . ويختلف هذا التبرير من أن لآخر ومن مجتمع لآخر بينما العاطفة التي تجعل الانسان عاجزا عن القتل ثابتة . ولذلك اسمى باريتو مثل هذه التبريرات بالمشتقات لأنها متغيرة وغير ثابتة . فالآلهة التي يتوهم الانسان أنها تحرم القتل مختلفة ؛ فقد تكون في المسيحية أو في الأيديولوجية الانسانية أو في الماركسية . . . الخ . وعلى ذلك لا يجب علينا أن نصدق أو نثق في أى نظريات أو أيديولوجيات أو عقائد لأنها ليست سوى تبريرات لأفعال غير منطقية الدافع اليها عواطف وغرائز انسانية ثابتة ، ويضرب باريتو المثال التالي في مؤلفه الضخم « مقدمة عامة في علم الاجتماع » .

« ان السياسى الذى يروج لنظرية التماسك الاجتماعى انما يفعل ذلك فى الحقيقة لتحقيق رغبة أساسية لديه للحصول على المال أو القوة والامتيازات . . . ولكنه اذا قال للناس : آمنوا بالتماسك لأنكم اذا فعلتم فإن ذلك سيعنى حصولى على المال ، فإنه سوف يكون مثارا لضحك الناس ولن يحصل على أصوات تذكر . ولهذا فإنه لابد أن يغلف أطماعه بمبادئ يقبلها الناخبون . . . وعادة ما يلجأ الشخص الذى يريد استمالة الآخرين الى استمالة نفسه أولا ، وحتى اذا كان الذى يحركه فى البداية افكار متعلقة بمصالح شخصية فإنه يضل فى نهاية الأمر الى الاعتقاد بأن اهتمامه الحقيقى انما هو بمصالح الآخرين ورفاهيتهم » .

ويصنف باريتو المشتقات (أى الأساليب التي يلجأ اليها الناس ليخفوا بها حقيقة أفعالهم ويبرروها) الى عدة فئات هي : (١) مجرد التأكيد Simple affirmation أى ذكر حقائق واقعية أو متخيلة ، (٢) اللجوء للمسلطة authority أى للتفسير الكاذب للأحداث عن طريق الاستعانة بقوة وسحر الماضى والتقاليد والعادات أو الإرادة الالهية ، (٣) الاتفاق مع العواطف أو المبادئ accord with sentiments or principles ومنى المشتقات التي تحاول تبرير الأفعال غير المنطقية على أساس الحقيقة المفترضة بأنها من أجل صالح الآخرين ، (٤) الإبراهيم اللفظية

Verbal proots والتي تعنى استخدام ألفاظ لا تتفق مع الحقائق واستخدام التشبيه والبلاغة .

وقد رأى باريتو أن هذه المشتقات ليست سوى أسباب كاذبة يقدمها الناس لسلوكهم . فالحقيقة فى رأيه أن الناس لا يقومون فى البداية بصياغة أفكار ونظريات ثم يتصرفون تبعاً لما تمليه عليهم أفكارهم ونظرياتهم ولكن العكس هو الصحيح فالناس يتصرفون أولاً ثم يبحثون عن أفكار ونظريات تبرر تصرفاتهم . ولست هناك علاقة سببية بين الفكر التبريرى (المشتقات) والفعل action فكلاهما نتاج لغرائز أو عواطف أساسية ثابتة هى الرواسب residues . ويرمز باريتو للعاطفة الانسانية ، وهى المصدر الأساسى للفعل غير المنطقى بالرمز أ والنظريات التى يفسر الناس بها سلوكهم (المشتقات) بالرمز ب والفعل بالرمز ج ويقدم الرسم التالى لتوضيح العلاقة بين هذه العناصر الأساسية الثلاثة :



ويقصد باريتو القول بأنه على الرغم من أن هناك علاقة اعتمادية متبادلة بين أ ، ب ، ج (أى بين العواطف أو الرواسب والفعل والمشتقات) إلا أن أ تؤثر بشكل مستقل على كل من ب ، ج (أى أن العواطف هى السبب المباشر لكل من الفعل والمشتقات) أكثر من تأثير ب (أى المشتقات) على ج (أى الفعل) .

وقد أفرد باريتو جزءاً كبيراً من مجلده (مقدمة فى علم الاجتماع) لتحليل ما أسماه بالديانات العملية أى كل فلسفة عصر التنوير وخاصة النظريات الاشتراكية بوصفها أساطير لتبرير أفعال غير منطقية أى بوصفها مشتقات .

هذه هي عناصر التحليل الأساسية في نظرية باريتو : الرواسب
والمشدقات والفعل . وقد استخدم باريتو هذه العناصر في تحليل المجتمع
الإنساني ونظمه المختلفة .

ويتضح من عرضنا لهذه العناصر أن باريتو قد استند الى المسلمات
الآتية :

(أ) أن أساس الواقع الاجتماعي سيكولوجي وفطري وبيولوجي
(الفرائز والعواطف والرواسب) .

(ب) أن هذا الأساس السيكولوجي ثابت وأبدى وأن هناك فروقا
ثابتة بين الناس وبعضهم البعض سواء بوصفهم أفرادا في مجتمع واحد أو
بوصفهم مجتمعات مختلفة ، فكل من الناس يولد مزودا بدرجة معينة
من كل الرواسب الست التي تحدث عنها وحطه من هذه الرواسب هو
الذي يحدد مصيره .

(ج) أن الإنسان غير عقلاني وغير منطقي بطبعه .

(د) أن الفكر في المجتمع نجاج للفرائز وليس سوى تبرير لها .

وهذه المسلمات التي يقيم عليها باريتو نظريته لا تنهض عليها أي
أدلة إمبريقية ، بل أن الأدلة تنفيها في الحقيقة . وما حاول باريتو أن
يقدمه كأدلة على صدقها ليس سوى ، على حد تعبير زائتلين ، أمثلة
انتقاهما بطريقة عمدية من التاريخ ولا تزيد عن محاولة من جانبه لايضاح
فكرته illustration وهذه المسلمات ذات طبيعة ميتافيزيقية وتتناقض تماما
مع ما ادعاه باريتو من صفه العلمية (١١) .

ويؤكد كوزر أن هذه المسلمات التي استند عليها باريتو قد ساعدته
في تبرير أيديولوجية وموقفه السياسي الذي طغى على كل كتاباته .
وقد استخدم باريتو هذه المسلمات في تفسير الحركات الاجتماعية التي
يعارضها وفي تفسير التغير الاجتماعي وديناميات التاريخ (١٢) .

Zeitlin, op. cit., p. 160.

Coser. op. cit., p. 393.

(١١)

(١٢)

النسق الاجتماعي عند باريتو Social System :

بعد أن قدم باريتو تصوره عن الانسان ، ذلك المخلوق الغريب والقوى الخفية الفطرية التي تحركه (الغرائز) وما يرتبط بها من رواسب والتبريرات التي يخترعها ليبرز بها سلوكه غير المنطقي (المشتقات) انطلق ليشرح لنا كيف يسير المجتمع ويؤدي وظائفه بناء على تصوره ذلك على أساس الحياة الاجتماعية .

رأى باريتو أن المجتمع يمثل نسفا System مثل النسق الفيزيقي - الكيميائي ، أي أنه بعبارة عن كل يتكون من أجزاء أو عناصر يعتمد كل منها على الآخر بحيث أن أي تغير في أحد الأجزاء يؤدي الى تغيرات تكيفية في بقية الأجزاء . وعناصر النسق الاجتماعي في رأى باريتو هي الأفراد ومصالحهم ودوافعهم وعواطفهم والذي يحدد شكل النسق الاجتماعي في أي وقت عناصره الداخلية أي الرواسب والمشتقات التي ترتبط بالغرائز أو العواطف . ولكن هناك ظروف أخرى تؤثر على النسق الاجتماعي وتخرج عن نطاق المجتمع مثل البيئة الطبيعية والمجتمعات الأخرى ، ولكن تأثير هذه الظروف ليس بمثل قوة وتأثير العناصر للمجتمع الداخلية .

ان ثبات المجتمع أو تغيره أو فناءه يعتمد بصفة أساسية على نوعية الرواسب التي تسود فيه . هذه الرواسب ثابتة ولكن الأهمية النسبية لكل منها بالنسبة لمجتمع ما تتغير تغيرا طفيفا على مر الزمن . وأهم شيء مسئول عن التغير التاريخي هو التغير في القوة النسبية لكل من الرواسب من الفئة الأولى (أي غريزة التكامل) ومن الفئة الثانية (أي رواسب استمرارية التجمعات) والتغير في هاتين الفئتين من الرواسب قد يحدث بفعل تغيرات في البيئة الطبيعية تؤدي الى نوع من التكيف في الغرائز الأساسية وبعض التعديل فيها والرواسب هي التي تحدد مصير الناس والدول . وهذه الرواسب ليست موزعة بالتساوي بين الأفراد أو بين الطبقات الاجتماعية أو بين المجتمعات : فهناك أفراد يتمتعون برواسب قوية من الفئة الأولى (غريزة التكامل) وآخرون يتمتعون برواسب قوية من الفئة الثانية (استمرارية التجمعات) ، كما أن هناك مجتمعات بأسرها يسود فيها هذا النوع أو ذاك من الرواسب .

ويرتبط التفوق لدى الأفراد والجماعات فى المجتمع الواحد أو فى المجتمع بصفة عامة بقوة الرواسب من الفئتين الأولى والثانية ويرتبط التخلف والتبعية بضعف هذه الرواسب .

التمايز الاجتماعى والصفوة :

لابد أن يكون بالمجتمع تمايز اجتماعى نظرا لسمائز بين الأفراد والمجموعات فيما لديهم من غرائز فطرية بيولوجية يترتب عليه تمايز فى القوى العقلية والأخلاقية والفيزيائية والشخصية والذكاء والمهارة والقدرات . وعلى هذا فإن المجتمع ينقسم الى فئتين أو طبقتين من الأفراد : المتفوقون وغير المتفوقين (وهم الغالبية العظمى) وقد أطلق على الفئة الأولى اسم الصفوة elite وتضم هذه الفئة من لديهم الاستعدادات الفطرية للتفوق أى من تكون لديهم الرواسب من الفئة الأولى والثانية قوية الى حد كبير . وهذه الصفوة تتفوق فى جميع المجالات : فى مجال الدعاية أو السرقة أو القانون أو الطب ، وهى الفئة المؤهلة لحكم بقية الناس فى المجتمع . وتنقسم الصفوة الى قسمين : الصفوة الحاكمة governing elite أى أولئك الذين يلعبون دورا هاما فى الحكم والصفوة غير الحاكمة Non-governing elite . وهذان القسمان يشكلان سويا الطبقة العليا فى المجتمع . أما الطبقة الدنيا أو اللاصفوة Non-elite فليست موضوع اهتمام باريتو لأن تأثيرهم السياسى فى المجتمع يكون منعدما تماما لأن الرواسب من الفئتين الأولى والثانية لديهم ضعيفة ولا يمكن أن يصلوا أبدا الى الحكم ولا بد أن يظلوا محكومين وخاضعين للصفوة بقسميها .

وهكذا نرى أن التنظيم السياسى للمجتمع فى رأى باريتو يعتمد على كيفية توزيع الرواسب التى ترتبط بالغرائز أو العواطف الفطرية بين الناس فى المجتمع ليس هذا فحسب ولكن هذه الغرائز تحدد أيضا الحياة الفكرية فى المجتمع وأنساق المعتقدات والأمم من ذلك الحالة الاقتصادية للمجتمع . ويرتبط كل ذلك بالطبع بمسألة باريتو عن طبيعة الحياة الاجتماعية وأساسها . ونلاحظ هنا أن المتغير الرئيسى الذى يحدد كل ما عداه من متغيرات المجتمع هو المتغير البيولوجى الوراثى

الثابت • وقد لاحظ كثير من علماء الاجتماع انصلة الوثيقة بين باريتو وبين النازية والعنصرية والفاشية من حيث اعتمادهم جميعا على نفس هذه المسلمة التى تهدمها كل الأدلة العلمية ومن حيث محاولتهم جميعا اضعاف صفة العلمية على ادعاءاتهم الكاذبة ذات الأغراض الاستغلالية والسياسية الصارخة •

دورة الصفوة والتغير الاجتماعى :

ميز باريتو داخل الصفوة نوعين فقرر أن هناك نمطا أسماه المضارب (١٣) speculator وهو الذى تغلب لديه رواسب الفئة الأولى (غريزة التكامل) (ويشبه الثعلب كما يسميه ميكيا فيللى) ونمطا آخر أسماه المحافظ rentier (ويشبه الأسد كما يسميه ميكيا فيللى) وتغلب لديه رواسب الفئة الثانية (استمرارية التجمعات) والنمط الاول (المضارب) لديه استعداد فطرى للحركة على المستوى الاقتصادى ، فهو يستطيع الدخول فى مشروعات مالية كبيرة وأن ينشئ ويدمج الشركات ويعيد الدمج بينها ، وكذلك على المستوى السياسى حيث يستطيع أن يعقد الاتفاقيات السياسية وأن يكون قوى سياسية ويمزج بينها وأن يشيد امبراطوريات سياسية • والأشخاص الذين ينتمون الى هذا النمط قادرون على الابتكار وعلى تجربة الجديد وعلى الخروج على المألوف ، ولكنهم لا يدينون بالولاء لآى مبادئ أو فضائل •

وأما النمط الثانى ، أى المحافظ فانه يمثل القوى المحافظة اجتماعيا ، والأشخاص الذين ينتمون اليه لديهم مشاعر قوية بالولاء للأسرة والقبيلة والمدينة والأمة وتظهر لديهم النزعات الوطنية والدينية ولا يهابون استخدام القوة والعنف عندما يجدون ضرورة لذلك •

(١٣) ظهرت فى بعض الترجمات العربية ترجمة الكلمة speculator بالمفكر هذه الترجمة لا تسدل على المعنى الذى يقصده باريتو ولا تتفق مع السياق ، فالذى يعنيه باريتو الشخص المغامر الذى يشترك فى المضاربات التجارية ويستثمر أمواله فى أى مشاريع جديدة دون خوف أو لى يضارب فى المجال السياسى وهو على طرف النقيض من النمط الآخر أسماء باريتو Rentier ويعنى به الشخص غير المغامر الذى يتبع للتقاليد ويختار الأسلوب الأكثر أماناً سواء فى المجال الاقتصادى أو المجال السياسى وهو شخص محافظ •

وحين يسود النمط الأول (الثعلب - والمغامر) فى الصفوة الحاكمة فان المجتمع يمر بتغير سريع نسبيا ، بينما يكون التغير بطيئا حين يسود النمط الثانى (الأسد - المحافظ) فى الصفوة الحاكمة . ورأى باريتو أن هناك دورة للصفوة على مر التاريخ حيث يسود النمط الأول ويتولى الحكم فى فترة ما فيحدثون تغيرا فى المجتمع حتى يأتى الوقت الذى تصبح سيطرتهم على الحكم مهددة لتوازن المجتمع ويصابون أيضا بالضعف فيهمج عليهم الأسود المحافظون ويستولون على الحكم ويحققون الثبات والاستقرار مرة أخرى ، ولكن بعد فترة من الزمن يبدأ الثعلب المغامرون فى التغلغل فى الحكومة نظرا لما يتمتعون به من مهارات وكفاءات ثم يستولون على الحكم . وبذلك فان التاريخ يكرر نفسه دائما بحيث يشهد المجتمع نفس الدورة التى يحل فيها نمط المغامرين محل نمط المحافظين وهكذا .

وهذا التحول الدورى المستمر يرتبط دائما بالتوازن فى النسق الاجتماعى . وليس هناك جديد فى التاريخ وكل اعتقاد فى التقدم أو التطور ليس الا خزعبلات .

وقد حاول باريتو أن يقدم أمثلة من التاريخ القديم لاثبات صحة وجهة نظره ، ولكن أمثاله كانت مليئة بالمغالطات ولا تشكل دليلا منطقيا يمكن الاعتماد عليه .

وقد أفصح باريتو عن الاجراءات العملية لنظريته فى مجلده الضخم عن علم الاجتماع حيث قدم نصائح صريحة للطبقة الحاكمة تمكنها من السيطرة على الناس فى المجتمع . فهو يقول مثالا فى المجلد الثالث من الكتاب : من صالح المجتمع أن يقبل كل الأفراد الذين لا ينتمون للطبقة الحاكمة بتلقائية الأوضاع القائمة فى المجتمع وأن يحترموها ويحبوها ولا يخرجوا عليها . ونصح الصفوة بأن تستغل مشاعر الجماهير الجاهلة التى تعجز دائما عن أن تتعلم ، ويجب على هذه الصفوة أن تستغل الى أقصى درجة الخرافات التى تسود بين الجماهير الجاهلة ولكن يجب عليها فى نفس الوقت ألا تصدق هذه الخرافات وأن تجعل منها هدفا تسعى الى تحقيقه (مثل الدين أو العدالة أو الحرية الخ) لأنها ان فعلت ذلك فسوف

يكون فى ذلك دمارها ، بل يجب أن تستخدمها فقط فى استمالة الناس أى أن تجعلها وسيلة لا غاية (يلاحظ هنا تطابق آراء باريتو مع آراء ميكيا فيلى) .

ولكن على الصفوة الحاكمة أن تحول دون ادراك الجماهير لذلك . وهنا يكشف باريتو بنفسه زيف ادعائه بأن تفوق الصفوة وغيباء الجماهير شىء أبدي . فهو قد حذر من امكانية ادراك الجماهير لتضليل الصفوة الحاكمة لها ، وذلك يعنى أن هذه الجماهير قادرة على التعلم وعلى التفوق ولكن يجب على الصفوة الحاكمة أن تحافظ بكل الوسائل على جهل الجماهير وتخلفهم حتى تضمن دوام الحكم لها .

كذلك دعا باريتو الصفوة الحاكمة الى استخدام القوة والعنف كلما لزم الأمر وقرر أن عدم القدرة على استخدام العنف ليس فضيلة ولكنه من قبيل العنف . وقد جاءت الفاشية ترجمة عملية لآراء باريتو النظرية التى أثبت العلم زيفها كما أثبتت الشعوب أن مسلماته ليست سوى خرافات أريد بها تضليل الناس وقدمت هزيمة الفاشية دليلا ملموسا على فساد نصائح باريتو ما الحقته بالبشرية من دمار .

ومع ذلك فإن آراء باريتو مازالت مصدرا تلجأ اليه الرجعية المعاصرة لتستمد منه مبررات لفكرها ، وسوف نلاحظ أن كتابات بعض علماء الاجتماع المعاصرين تحتوى على مسلمات باريتو على الانسان والمجتمع والتوازن الاجتماعى والصفوة .

الفصل الثامن

كارل ماركس والمادية التاريخية

موقف ماركس الأيديولوجي :

أعلن كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) تحيزه الأيديولوجي بوضوح منذ البداية ، كما أنه بدلا من أن يحاول اخفاء الصلة بين موقفه الأيديولوجي وبين اتجاهه الفلسفي النظري عمل على أن يؤكد هذه الصلة ويبرزها بشكل صريح . ولم تنفصل مجهودات ماركس السياسية عن مجهوداته العلمية النظرية بل انه كان هناك دائما تلاحم بين الاثنين لدرجة أن « تاريخه الشخصي الذي يمكن اعتباره حتى عام ١٨٤٥ (أى حين كان فى السابعة والعشرين من عمره) سلسلة من الحلقات فى تاريخ فرد أصبح منذ هذا الوقت لا ينفصل عن التاريخ العام للاشتراكية فى أوروبا » (١) .

فقد أصبح ماركس ثوريا محترفا ، يكتب ويحاضر ويتأمر من أجل تحقيق الثورة على النظام الرأسمالى التى كان يعتقد انها آتية لا ريب فى ذلك .

وقد عبر ماركس عن اتجاهه الأيديولوجي منذ أن كان صبيا فى مرحلة المراهقة . فقد كتب مقالا قصيرا عندما كان فى السنة النهائية بالمدرسة الثانوية عنوانه « تأملات شاب عن اختيار مهنته » عبر فيه عن مبدأ ظل يسترشد به طوال حياته السياسية والفكرية حيث قال :

« ان المبدأ الذى يجب أن نسترشد به فى اختبارنا لمهنتنا يجب أن

Quoted by Lewis Coser in Masters of Sociological Thought (١)
(Harcourt Brace Jovanovich, Inc. New York 1977) p. 62 from
Berline, J. Karl Marx, His lif and Envioronment (New York,
Oxford, 1948. p. 146.

يكون رفاهية الانسانية ، وكمال أنفسنا ، ولا يجب أن يتطرق الى أذهاننا أن هاتين المصلحتين تتعارضان مع بعضهما البعض أو أن احدهما يمكن أن تقضى على الأخرى ، فالواقع أن طبيعة الانسان تمكنه من تحقيق كمال ذاته من خلال العمل على تحقيق كمال ورفاهية مجتمعه . والتاريخ يسمى أولئك الأشخاص الذين يعملون من أجل الانسانية أعظم الرجال الذين اكتسبوا صفات النبيل من خلال جهودهم فى سبيل الانسانية ، (٢) .

وفى عام ١٨٤٢ كتب ماركس سلسلة من المقالات السياسية فى مجلة Rheinische Zeitung الألمانية عن الظروف الاجتماعية وتناول فى هذه المقالات وصف بؤس الفلاحين الذين يزرعون الكروم فى (Moselle) والمعاملة القاسية التى كان يلقاها الفقراء لسرقة بعض الأخشاب من الغابات التى كانوا يعتقدون أنها ملكية عامة لهم فيها بعض الحقوق (٣) . كما هاجم ماركس الحكومة الروسية الرجعية فى مقالاته مما أدى بامبراطور روسيا فى ذلك الوقت الى الاتصال بالسفير الروسى شاكيا ماركس وكان من جراء ذلك اغلاق المجلة التى يكتب فيها ماركس فهاجر الى باريس حيث طردته الحكومة الفرنسية من فرنسا عام ١٨٥٤ بناء على شكوى الحكومة البروسية لمهاجمته لها فى سلسلة من مقالاته فهاجر الى بروكسل حيث اتصل بالمنظمات الاشتراكية وبخاصة الرابطة التربوية للعمال الألمان German Workers Educational Association والمنظمة الشيوعية The Communist League وفى عام ١٨٤٧ كتب ماركس بناء على تكليف من هذه المنظمة وثيقة تشرح أهدافها ومعتقداتها وهى التى عرفت باسم البيان الشيوعى The Communist Manifesto وكانت أول جملة فى هذا البيان « ان تاريخ كل المجتمعات هو تاريخ الصراع الطبقي » تمثل أهم الجوانب التى ميزت فكر كارل ماركس . وفى عام ١٨٤٨ اتجه ماركس الى ألمانيا بعد قيام الثورة فيها حيث رأس تحرير مجلة راديكالية جديدة

Quoted by Anthony Giddens in Capitalism and Modern Social Theory (Cambridge University Press London. 1971) p. I from Loyd D. Easton and Kurt Guddat : Writings of the Young Marx on Philosophy and Society, New York, 1967 pp. 40 - 50.

(٣) اعتمدنا فى هذا الجزء على المعلومات التى أوردها كور فى كتابه السابق الاشارة اليه .

تهاجم الرجعية والرأسمالية وتدافع عن حقوق الطبقة العاملة وبعد فشل الثورة عاد الى باريس ثم استقر به المقام في لندن منذ عام ١٨٤٩ حتى نهاية حياته حيث أصبح رئيسا للجمعية العمومية الدولية The International التي تكونت عام ١٨٦٣ وهي اتحاد دولي للعمال كان يهدف الى وضع نهاية النظام الاقتصادي الرأسمالي واستبداله بنظام آخر يقوم على الملكية العامة . وخلال هذا النشاط السياسي كان ماركس يعمل في مؤلفاته التي تعكس هذا النشاط وتدعمه في نفس الوقت .

وهكذا نرى أنه في مقابل انجياز كونت ودوركايم وفيبر وباريتو للطبقة العليا (البورجوازية) وتسخيرهم نظرياتهم لتبرير النظام الرأسمالي والدفاع عن البورجوازية انحاز كارل ماركس للطبقة العاملة وسخر نفسه ونظريته كما سنرى للدفاع عن هذه الطبقة ونقد ومهاجمة النظام الرأسمالي من أجل الاطاحة به واحلال النظام الاشتراكي محله . ومثلما كانت نقطة انطلاق كونت لتحقيق هدفه هي رفض فلسفة التنوير النقدية والسلبية على اعتبار أنها حققت هدفها بقيام الثورة البورجوازية والنظام الرأسمالي الصناعي وتبنى بدلا منها الفلسفة الوضعية الايجابية التي كانت نقطة انطلاق ماركس من فلسفة التنوير النقدية السلبية ولكنه قام بتطويرها على أسس مادية أولا مثالية .

ويرى بعض علماء الاجتماع أن علم الاجتماع الاكاديمي الغربي بأسره قد نشأ تحت تأثير ماركس وأنه ليس سوى سلاح ايديولوجي للبورجوازية لمواجهة الماركسية كسلاح ايديولوجي للاشتراكية ، ويذهب عالم الاجتماع الأمريكي زايكلين الى حد اعتبار أن أعمال فيبر وباريتو وموسكا وميشيلز ودوركايم ومانهايم حوارا مع شبح ماركس (٤) .

من أجل ذلك سنعرض النظرية الاجتماعية عند ماركس بتفصيل

(٤) انظر zei:lin (مرجع سابق) حيث نجد أنه في تقسيمه لأبواب كتابه يضع فيبر وباريتو وموسكا وميشيلز ودوركايم في باب عنوانه الحوار مع شبح ماركس the Debate with The Ghost of Marx.

أكثر مما سيجعل نظريته تشغل حيزا كبيرا نسبيا اذا قورن بكل من العلماء الكلاسيكيين الآخرين على حدة ولكنه شغل حيزا أقل منهم مجتمعين .

المادية التاريخية HISTORICAL MATERIALISM

تتكون الماركسية من شقين متكاملين . المادية الجدلية Dialectical Materialism والمادية التاريخية Historical Materialism والموضوع الأساسى للمادية الجدلية هو القضية الفلسفية الأساسية التى تدور حول علاقة الوعى بالوجود . وموقف الفلسفة الماركسية من هذه القضية محدد بوضوح فهى تسلم بأن المادة والوجود أساس الوعى أو الفكر . فالوجود هو الأولى والوعى هو الثانوى . وهى تسلم بالأساس المادى للعالم وبإمكانية فهمه ومعرفته - كما أنها تدرس هذا العالم المادى بوصفه فى حالة حركة وتطور مستمرين على أساس جدلى أو دياكتيكى . وتكشف المادية الجدلية عن أكثر القوانين التى تحكم تطور العالم المادى عمومية أى تلك القوانين التى تحكم كافة مجالات الواقع . فكل الموضوعات الحية وكذلك ظاهرات الحياة الاجتماعية والوعى تتطور على أساس قوانين الجدال الأساسية . وحدة صراع الأضداد ، وقانون التحول الكمى الى تغير كفى وقانون النفى . كما تدرس المادية الجدلية أيضا القوانين التى تحكم المعرفة Cognition بوصفها عملية والتى تعكس قوانين العالم الموضوعى (٥) .

أما المادية التاريخية فهى علم القوانين العامة التى تحكم تطور المجتمع وتكشف الطبيعة المادية الجدلية لتطور الحياة الاجتماعية . وهى عبارة عن تطبيق القوانين العامة للمادية الجدلية على نوع معين من ظاهرات الكون وهو الحياة الاجتماعية .

الاسس المنهجية للمادية التاريخية :

تسلم المادية التاريخية بأن القوانين العامة التى تحكم تطور المجتمع قوانين موضوعية ، أى أنها مستقلة عن وعى الانسان تماما مثل قوانين الطبيعة وهى أيضا قابلة للمعرفة ويمكن للانسان أن يستفيد منها فى نشاطه العملى . الا أن هناك مع ذلك فروقا جوهرية بين الحياة الاجتماعية وقوانين الطبيعة . فقوانين الطبيعة تصور عمل قوى تلقائية غير واعية . بينما تصور قوانين التطور الاجتماعى أفعال كائنات انسانية ذكية تحدد لنفسها أهدافا محددة وتعمل من أجل تحقيقها .

وقد رفض كارل ماركس النظر الى المجتمع على أنه مجرد تجمع الى للأفراد وعلى أنه يظهر ويتغير بطريقة عرضية ورأى أن التطور الاجتماعى انما هو عملية تحكمها قوانين معينة وأن مهمة العلم الاجتماعى الكشف عن القوانين الأساسية للتاريخ الاجتماعى وانتقد ماركس الفلاسفة والمفكرين الذين كانوا يتحدثون عن المجتمع بطريقة عامة ومجردة لفشلهم فى تقديم تعريف علمى له وفى تحليلهم لمراحل تطوره . وأرجع هذا الفشل لعدم قدرتهم على ادراك أساس الحياة الاجتماعية بشكل سليم وعدم قدرتهم على التمييز بين ما هو أساسى وما هو ثانوى فى المجتمع والمادية التاريخية (أو علم الاجتماع الماركسى) تهدف الى تحقيق فهم علمى للمجتمع على الأسس المنهجية التالية (٦) .

١ - عدم الاقتصار على وصف الظواهرات الاجتماعية وتجاوز ذلك الى تقديم تحليل علمى لها :

٢ - استخلاص الخصائص المشتركة فى مختلف المجتمعات التى تنتمى الى نفس المرحلة من التطور التاريخى .

٣ - التمييز بين القوانين العامة General Sociological Laws التى تحكم عددا من التكوينات الاجتماعية - الاقتصادية وبين القوانين النوعية Specific Laws التى تحكم كل تكوين اقتصادى اجتماعى على حدة ، والتى تحكم ظواهرات اجتماعية معينة (مثل اللغة) .

مفهوم كارل ماركس عن الانسان وطبيعة الحياة الاجتماعية :

رأى ماركس ، على عكس كونت ، أن الانسان متطور دائما وأن قدراته الكامنة والممكنة غير محدودة من حيث امكانية تطورها ، وإذا كان الانسان الآن لا يزيد عن كونه وحشا عاملا فان ذلك ليس أمرا حتميا ذلك انه يمكنه أن يحقق أعلى صورة من الكمال فى الخلق والابداع والفكر والفعل والانسان خالق ظروفه وهو نتاج لها فى نفس الوقت (٧) ورأى ماركس ضرورة التفرقة بين الحالة الراهنة للانسان وبين ما يمكن أن يكون عليه اذا تغيرت الظروف التى يعيش فيها .

ورأى ماركس أن تطور المجتمع انما هو نتاج للتفاعل المستمر بين الانسان والطبيعة من خلال العملية الانتاجية . فالانسان حسب قوله :

« قد بدأ فى تمييز نفسه عن الحيوان بمجرد أن بدأ ينتج أساليب الحفاظ على حياته (٨) فانتاج وسائل الحفاظ على الحياة (أى الطعام والسكن والملبس ... الخ) انما هو ضرورة تملئها الاحتياجات البيولوجية للكائنات الانسانية ، وعلاوة على ذلك فان هذه العملية الانتاجية هى المصدر البدع لظهور حاجات وقدرات جديدة لدى الانسان . وعلى ذلك فان النشاط الانتاجى هو أساس المجتمع على المستويين التاريخى والتحليلى . والانتاج هو أول فعل تاريخى ، وانتاج الحياة المادية شرط أساسى لكل التاريخ الانسانى ولا بد للناس أن يقوموا بهذه العملية الانتاجية يوميا بل كل ساعة لكى يحافظوا على حياتهم وكل فرد فى حياته اليومية يعيد فى الواقع انتاج وخلق المجتمع الذى يعيش فيه فى كل لحظة وهذه العملية أى عملية الخلق والابداع هى مصدر للثبات فى التنظيم الاجتماعى وأساس التغير المستمر فيه فى آن واحد .

وكل نوع من أشكال الانتاج يستلزم بالضرورة شكلا معينا من العلاقات الاجتماعية بين الأفراد الذين يشتركون فى العملية الانتاجية . وهذه الفكرة هى التى يركز عليها نقد ماركس للاقتصاد السياسى

Irving Zeitlin op. cit., p. 84.

(٧)

Karl Marx and Fredrick Engles : The German Ideology
London, 1965) p. 31.

والفلسفة النفعية بصفة عامة فقد قرر ماركس أن مفهوم الفرد المنعزل إنما هو تصور خيالي من جانب الفلاسفة البورجوازيين الفرديين .

وهذا المفهوم ، أى مفهوم الفرد المنعزل إنما يستخدم لكى يخفى الطابع الاجتماعى الذى يفصح عنه الانتاج دائما . ويرى ماركس أن علماء الاقتصاد السياسى وخاصة آدم سميث قد أغفلوا أو شوهوا فى الواقع عملية خلق الانسان لنفسه من خلال العملية الانتاجية وشوهوا التطور الاجتماعى الناجم عن ذلك .

ورأى ماركس أن أفراد الانسان لا ينتجون فقط بوصفهم أفرادا ولكن بوصفهم أعضاء فى شكل محدد من المجتمع . وعلى ذلك فإنه لا يوجد أى نوع من المجتمعات لا يقوم أساسا على شكل محدد من العلاقات الانتاجية .

ويقول كارل ماركس : « ان الناس خلال العملية الانتاجية لا يغيرون من الطبيعة فحسب بل يغيرون من بعضهم البعض . فهم يستطيعون الانتاج فقط نظرا لتعاونهم بشكل معين واعتماد نشاط كل منهم على الآخر » ، فلكى ينتج الناس لابد أن يدخلوا فى علاقات محددة مع بعضهم البعض وعن طريق هذه العلاقات يمكن أن يؤدى نشاطهم الى الانتاج وتغير الطبيعة .

ولكن لابد لكى يستطيع الانسان أن ينتج ولكى تنشأ حياة اجتماعية من توفر ظروف طبيعية معينة - هذه الظروف شروط ضرورية للحياة الاجتماعية ولكنها ليست ظروفًا كافية لقيامها .

الظروف الطبيعية لحياة المجتمع - البيئة الجغرافية (٩) :

ان المجتمع الانسانى جزء متمايز من الطبيعة . ولا يمكن باى حال فصله عن بقية الطبيعة وهو دائما فى حالة تفاعل معها . وهذا الجزء من الطبيعة الذى يتفاعل معه المجتمع بصفة دائمة ومباشرة ويتأثر بالمجتمع ويؤثر فيه فى آن واحد يسمى البيئة الجغرافية وتشمل الطقس والتربة

والأنهار والبحار والنبات والحيوان وتضاريس الأرض والمعادن . الخ
والبيئة الجغرافية شرط ضرورى لنشاط الانسان الانتاجى وبدون التفاعل
مع الطبيعة لا يمكن أن يكون هناك عمل ولا نشاط انتاجى .

والبيئة الجغرافية يمكن أن تمارس تأثيرا مزدوجا على تطور
المجتمع . فالظروف الطبيعية الملائمة (مثل توفر المعادن والغابات
والأشجار والطقس المناسب) تساعد على تطور المجتمع . ومن جهة
أخرى تؤثر الظروف الطبيعية المعاكسة تأثيرا ضارا على التطور
الاجتماعى . فعدم توفر المعادن مثلا يعوق النمو الصناعى ، كما أن
الطقس القاسى فى جفافه يعوق تطور الزراعة وهكذا . الا أنه لا يجب
المغالاة فى دور البيئة الجغرافية الى حد افترض أنها هى التى تعدد
التطور الاجتماعى فهناك بلاد تتطور اقتصاديا وسياسيا بنفس المعدل
على الرغم من أن بيئاتها الجغرافية مختلفة - كما أن هناك بلادا تشترك
فى نفس الظروف الجغرافية ومع هذا فإنها تختلف فى حالتها الاقتصادية
والسياسية . كما أن المجتمع قادر على تغيير هذه الظروف الجغرافية
والتأثير فيها ، وتعتمد درجة تأثير المجتمع على البيئة الجغرافية على
طبيعة النظام الاجتماعى ومستوى الانتاج والتكنولوجيا والعلم فيه .
وعلى هذا فإن البيئة الجغرافية ليست هى المحدد للتطور الاجتماعى على
الرغم من أنها شرط ضرورى للحياة الاجتماعية وكل ما تفعله هو أنها
تساعد على تطور المجتمع أو تعوق من هذا التطور .

الظروف الطبيعية - السكان :

ان وجود السكان شرط ضرورى آخر لحياة المجتمع . فالانتاج
مستحيل بدون ناس . وعلى هذا فإن الظروف السكانية مثل كبر عدد
السكان أو قلته وارتفاع معدلات نموهم أو انخفاضه قد يؤثر على تطور
المجتمع بالزيادة أو النقصان . الا أن طبيعة السكان لا تلعب الدور
الحاسم فى التطور الاجتماعى ذلك أن أمامنا أمثلة كثيرة لبلاد ذات كثافة
سكانية عالية ومعدل نمو سكاني سريع ، ولكنها أكثر تخلفا من بلاد
أخرى ذات كثافة سكانية منخفضة ومعدل نمو بطيء والعكس صحيح .
كما أن هناك بلادا تتشابه فى نفس الكثافة السكانية ومعدل النمو

السكانى الا أنها تختلف فى درجة تطورها الاقتصادى والسياسى والثقافى . ويعنى ذلك أيضا أن الكثافة السكانية ومعدلات النمو السكانى لا يحددان حياة المجتمع ولكن العكس هو الصحيح ، فالكثافة السكانية ومعدلات النمو تعتمدان على طبيعة النظام الاجتماعى .

البيئة الجغرافية والسكان اذن شرطان ضروريان للحياة الاجتماعية ولكنهما ليسا العامل الحاسم فى التطور الاجتماعى ، فهذا العامل هو أسلوب انتاج الثروة المادية .

نمط الانتاج : Mode of Production

راى ماركس أن العمل هو أساس الحياة الاجتماعية وأن انتاج الثروة المادية هو العامل الأساسى المحدد للتطور الاجتماعى . وانتاج وسائل الحفاظ على الحياة البشرية ثم عملية توزيع تلك المنتجات هما أساس البناء الاجتماعى بأسره ففى جميع المجتمعات التى ظهرت فى التاريخ كانت الكيفية التى توزع بها الثروة وينقسم بها المجتمع الى طبقات أو أنظمة تعتمد على ما ينتج والكيفية التى يتم بها التوزيع .

ويتطلب هذا الانتاج موضوعات للعمل ، كما يتطلب أدوات يستخدمها فى معالجة هذه الموضوعات ، فبالنسبة للمزارع مثلا لابد من الأرض والبذور بوصفها موضوعات للعمل ، ولابد كذلك من الفأس أو المحراث بوصفها أدوات يعالج بها موضوعات . هناك اذن الموضوعات والأدوات ، وهناك كذلك الانسان العامل الذى يستخدم هذه الأدوات فى معالجته لهذه الموضوعات فأدوات العمل وحدها لا يمكن أن تنتج ثروة مادية ، ومن الضرورى أن لا تصنع فحسب ولكن أن تستخدم أيضا ، والانسان هو صانعها ومستخدمها وعلى هذا فان الانسان العامل عنصر جوهري فى الانتاج . ويطلق على الموضوعات والأدوات والانسان العامل اصطلاح « قوى الانتاج » forces of Production .

وتحدد قوى الانتاج علاقات الانسان بالطبيعة وسيطرتها عليها والانسان العامل هو العنصر الرئيسى فى القوى الانتاجية .

الا أن القوى الانتاجية ليست هى العوامل الوحيدة فى الانتاج .

المادى فالناس لا يمكنهم الانتاج الا اذا انتظموا فى علاقات اجتماعية ،
ذلك أن العمل بطبيعته نشاط اجتماعى . وهذه العلاقات والروابط
الاجتماعية يقتضيها الانتاج ويستحيل دونها .

ويطلق على علاقات الناس فى عملية الانتاج اصطلاح « علاقات
الانتاج » relations of production وهناك وحدة لا تقبل الانفصال بين قوى
الانتاج وما يقابلها من علاقات انتاج . وقد كان العمل دائما منذ فجر
التاريخ هو الرابطة بين الناس .

وتعتمد علاقات الانتاج اعتمادا جوهريا على ملكية وسائل الانتاج
means of production (الموضوعات والأدوات) فالذى يملك موضوعات
الانتاج (الأرض أو المناجم أو الغابات أو المواد الخام مثلا) وأدوات
الانتاج (الفئوس والمحاريث والآلات) يتحكم فى عملية الانتاج وفى
توزيع عائدها ، ويتوقف على ملكية وسائل الانتاج وضع المجموعات
الاجتماعية المختلفة فى المجتمع ، فالذين يملكونها يتمتعون بوضع
السيطرة والنفوذ ويحصلون على أكبر جزء من عائدها والذين لا يملكون
يكونون خاضعين ويكون نصيبهم من الانتاج أقل واذا كانت ملكية وسائل
الانتاج عامة أى ملك فئات الشعب فان علاقات الانتاج تكون علاقات
تعاونية متبادلة خالية من الاستغلال كما هو الحال فى البلدان الاشتراكية .
أما اذا كانت ملكية وسائل الانتاج فردية أى ملك أقلية ضئيلة من المجتمع
فان علاقات الانتاج تكون علاقات سيطرة وخضوع .

ويعتمد شكل التوزيع على ملكية وسائل الانتاج ، وفى المجتمع
الرأسمالى وفى ظل الملكية الفردية لوسائل الانتاج يحصل المالك على
أكبر نصيب من الثروة المنتجة على الرغم من أنه لا يشارك بطريقة مباشرة
فى الانتاج أما فى المجتمع الاشتراكى وفى ظل الملكية الجماعية لوسائل
الانتاج فان توزيع عائد الانتاج يتم تبعا للعمل .

وهكذا نرى أن علاقات الانتاج تضم شكل ملكية وسائل الانتاج
وما ينجم عنها من وضع المجموعات الاجتماعية فى الانتاج وأشكال توزيع
الثروة .

وهناك وحدة لا تقبل الانفصال بين قوى الانتاج من جانب وعلاقات الانتاج من جانب آخر ويطلق على هذين الجانبين معا نمط الانتاج . mode of production

الا ان الانتاج لا يتوقف عند حد معين ولكنه ينمو ويتطور دائما ، ذلك ان الناس لابد ان ينتجوا الثروة المادية من أجل الحفاظ على حياتهم ولابد ان يتزايد هذا الانتاج ويتحسن دائما فعدد السكان فى تزايد مستمر كما ان متطلباتهم تتزايد باستمرار . فالانسان البدائى لم يكن يحتاج سوى القليل جدا - طعام بسيط وجلد حيوان وسقف يستظل به ونار الى جوار كوخه . ولكن الانسان الحديث أصبحت له متطلبات مادية وثقافية هائلة وهى تتزايد باستمرار . والوسيلة الوحيدة لاشباع الحاجات المتزايدة للأعداد المتزايدة من الناس هى زيادة الانتاج وتحسينه . وقوى الانتاج (الموضوعات والأدوات والانسان) هى المحرك الرئيسى للتغيير والتطور .

وقرر ماركس ان الانسان من خلال عمله الاجتماعى يطور ويغير ويعدل من أدواته وليس أدل على ذلك من التقدم التكنولوجى المستمر فى عصرنا هذا الذى يتيح للانسان مزيدا من الطاقة والتحكم فى عالمه المادى . فتطور أدوات الانتاج اذن هو نقطة البدء فى التغيير الاجتماعى . الا ان هذا التطور من شأنه ان يحدث خلا فى التوازن القائم بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج بحيث لا تعد علاقات الانتاج على انسجام مع قوى الانتاج . فمع تحسن أدوات الانتاج وتطورها يتطور الناس أيضا فتتطور قدراتهم ومهاراتهم وتظهر قدرات جديدة لم تكن موجودة من قبل . ويتطلب ذلك بالضرورة تغييرا فى علاقات الانتاج . ونظرا لأن هذا التغيير لا يساير التغيير فى قوى الانتاج فان التناقض بين قوى الانتاج المتطورة وعلاقات الانتاج المتخلفة والتى أصبحت عقبة أمام قوى الانتاج يؤدى بالضرورة الى ظهور ظروف موضوعية للثورة من أجل حل هذا التناقض ومن أجل احلال علاقات انتاج جديدة تتوافق مع قوى الانتاج التى تطورت وتحولت . ويتضح لنا من ذلك ان هناك وحدة دياكتيكية بين

قوى الانتاج من جانب وعلاقات الانتاج من جانب آخر وهذا التناقض بين هذين الوجهين هو القوة المحركة للمجتمع .

الا ان هذا التناقض ليس شيئاً عرضياً فهو ينبع من طبيعة عملية الانتاج الاجتماعى ، فالقوى الانتاجية هى أكثر عناصر الانتاج تغيراً وحركة أما علاقات الانتاج فعلى الرغم من أنها تتعرض لتغيرات معينة فإنها تظل فى أساسها دون تغير داخل اطار أسلوب انتاج معين ، ففى أسلوب الانتاج الرأسمالى تعرضت قوى الانتاج لتغيرات عميقة ولكن علاقات الانتاج مازالت قائمة على الملكية الرأسمالية الخاصة .

الأساس الاقتصادى والبناء الفوقى للمجتمع :

Basic Structure and Super Structure

ان عملية الانتاج الاجتماعى هى حجر الأساس الذى يقوم عليه المجتمع الانسانى ومجموع علاقات الانتاج يشكل البناء الاقتصادى للمجتمع او ما يسمى بالأساس ، والذى نعنيه بمجموع علاقات الانتاج هو اشكال الملكية وما يترتب عليها عن علاقات بين الناس فى عملية واشكال توزيع السلع المادية .

ولكل مجتمع أساسه ، ويعتمد نوع هذا الأساس على حالة قوى الانتاج ولا يمكن ظهور الأساس الا عندما تتكون الظروف المادية اللازمة لظهور قوى الانتاج الخاصة به هى ثانياً المجتمع القديم .

وبمجرد ظهور هذا الأساس الى الوجود فإنه يلعب دوراً خطيراً فى حياة المجتمع فهو يمكن الناس من تنظيم الانتاج وتوزيع الثروة المادية ، فبدون أن يدخل الناس مع بعضهم البعض فى علاقات اقتصادية فإنهم لا يستطيعون الانتاج وبالتالى لا يمكنهم توزيع وسائل الحفظ على الحياة .

وهذا الأساس (الاقتصادى) شرط لابد منه لظهور ما يسمى بالبناء الفوقى أى البناء السياسى والتشريعى والفلسفى والأخلاقى والجمالى والدينى للجميع ، وما يترتب على ذلك من علاقات ومؤسسات ومنظمات

وعلى هذا فإن الأساس هو الذى يحدد طبيعة المجتمع بطريقة مباشرة ويحدد أفكاره ومؤسساته .

على أن البناء الفوقى لا يلبث ما أن يتكون فى القيام بدور كبير من التطور والنمو الاجتماعى . فالبناء الفوقى الذى يبنى على أساس اقتصادى محدد يعبر فى نهاية الأمر عن موقف الناس من هذا الأساس . أن أفكار الناس (البناء الفوقى) تصبح بمثابة تبرير أو دفاع أو استنكار ومجوم على هذا الأساس (١٠) .

فالمؤسسات الحكومية فى الدولة الرأسمالية أو الاقطاعية وأجهزة الاعلام والصحف الحزبية فيها تعمل على تدعيم وتبرير الأساس كما أن الأفكار العمالية والثورية تعبر عن موقف الطبقات المهورة من هذا الأساس .

البناء الفوقى إذن انعكاس للأساس الاقتصادى ، الا انه لا يلبث أن يتمتع بقدر من الاستقلال النسبى عن هذا الأساس ، بل قد يصبح سندا يدعم هذا الأساس ويساعد على بقاءه ، كما أن ثمة جوانب من البناء الفوقى تتسم بقدره على البقاء برغم تغير الأساس الذى تعتمد عليه ، مثال ذلك بقاء الأفكار ذات الطابع الرأسمالى فى المجتمعات الاشتراكية .

على أن البناء الفوقى ليس بأسره انعكاسا للأساس الاقتصادى فثمة سمات ثابتة تعكس حاجة انسانية خاصة كاللغة وبعض سمات الأسرة أو الحياة الجنسية .

مما سبق نثبت أن حجر الزاوية فى الفهم الماركسى للمجتمع هو الأساس الاقتصادى وما يترتب عليه من علاقات انتاج ، فلا حياة للانسان ولا للمجتمع دون العمل الاجتماعى المنتج الذى يقتضى تنظيما له ولما يترتب عليه من عائد .

كذلك لا يمكننا فهم المجتمع فهما مطلقا بمعزل عن الظروف الكلية له ، وبمعزل عن حركته التاريخية التى يقتضيهما تطور قوى الانتاج فيه .

(١٠) أوسيبوف - قضايا علم الاجتماع - ترجمة د. سمير نعيم أحمد ، د. فرج أحمد فرج - دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٠

ان المجتمع وحدة كلية اجتماعية اقتصادية مترابطة فى حركة مستمرة وتحول دائم يحتل فيه نشاط الانسان فى علاقته بالانسان المقام الأول .

ولا يمكن بأى حال الفصل بين البناء الفوقى وبين الأساس . فالبناء الفوقى يعتمد على اساس . فلو أخذنا المجتمع البدائى على سبيل المثال لوجدنا أن انعدام الملكية الخاصة والطبقات فيه ، وبالتالى المتناقضات الطبقيّة كان هو السبب فى أنه لم يكن فى هذا المجتمع دولة أو مؤسسات سياسية أو تشريعية ، ومع ظهور الملكية الخاصة الى الوجود وظهور الطبقات (السادة والعبيد) ظهر بناء فوقى من نوع مخالف ، فظهرت أفكار تبرر حكم صاحب العبيد للعبيد ، وظهرت مؤسسات (مثل الدولة) لتحكم هذا الحكم . ولما كان أساس المجتمع الطبقي ملئاً بالمتناقضات التى تنبع من التناقض الرئيسى بين المغبونين والقائمين بالخبن ، ولما كان البناء الفوقى فى مثل هذا المجتمع يعكس الأساس فانه من المنطقى أن يكون هذا البناء الفوقى نفسه ملئاً بالمتناقضات هو الآخر . فهو يضم أفكار ومؤسسات الطبقات المختلفة - الا أن أفكار ومؤسسات الطبقة المسيطرة هى التى تسود . فالطبقة التى تمثل القوة المادية الحاكمة فى المجتمع تصبح أيضاً هى الطبقة الفكرية الحاكمة . وفى ظل الرأسمالية يكون للبورجوازية السيطرة الاقتصادية وعلى هذا فانه تكون لأفكارها ومؤسساتها السيادة فى المجتمع وتستخدم هذه الأفكار والمؤسسات أساساً بواسطة البورجوازية لحماية حكمهم ومحاربة الطبقات الكادحة . الا أن هذه الطبقات الكادحة تكون بدورها أفكارها ومؤسساتها التى تتصارع مع البورجوازية (مثل النقابات العمالية والأحزاب السياسية) .

والتغيرات التى تطرأ على الأساس تؤثر على البناء العلوى بالضرورة ، فخلال الانتقال من الرأسمالية قبل الاحتكارية الى الامبريالية مر الاقتصاد الرأسمالى بتغير هام ودل الاحتكار محل التنافس الحر . وتغير تبعاً لذلك البناء الفوقى فتحوّلت الطبقة البورجوازية من تبنى شكل الحكم الديموقراطى البورجوازى الى تبنى الأشكال الرجعية والفاشية من الحكومة .

التكوين الاقتصادي الاجتماعي : Socio-Economie Formation

يمثل أسلوب انتاج الثروة المادية الأساس المادي الاقتصادي للتكوين الاقتصادي الاجتماعي ، وهذا الأساس الاقتصادي يمثل في الواقع هيكل التكوين بينما يمثل البناء الفوقي الجانب السياسي - الاجتماعي والروحي فيه ، وعلى هذا فان الأساس والبناء الفوقي يمثلان المكونات الأولية لأي تكوين اقتصادي اجتماعي وبالإضافة الى الأساس والبناء الفوقي يتضمن التكوين الاقتصادي الاجتماعي ظاهرات اجتماعية أخرى مثل أشكال المجموعات (العشيرة - والقبيلة - والأمة) وأسلوب الحياة والأسرة والزواج واللغة والعلوم وبعض التنظيمات الاجتماعية كالرياضة مثلا ، وهي جميعا سمات انسانية عامة وهي لا تنتمي بشكل مباشر للأساس أو البناء العلوي ولكنها عناصر ضرورية في أي تكوين اقتصادي اجتماعي ذلك أن الناس لا يمكنهم بأي حال أن يفكروا أو يعملوا دون لغة أو وسيلة للاتصال ولتبادل الآراء كما أنهم لا يمكنهم التناسل والاستمرار دون حياة جنسية ودون أسرة وزواج .

وهذه الظاهرات تتغير بتغير المكونات الاقتصادية والاجتماعية فأشكال التجمعات الانسانية تختلف باختلاف التكوينات . ففي المجتمع البدائي نجد العشيرة والقبيلة وفي المجتمع الاقطاعي نجد القومية وفي المجتمع الرأسمالي نجد الأمة ويتغير أسلوب الحياة والأسرة والزواج بتغير التكوينات الاقتصادية والاجتماعية . أما اللغة فعلى الرغم مما قد تتعرض له من تغيرات فانها تنتقل من تكوين لآخر وكذلك الحال بالنسبة للعلوم التي يتمثلها الناس ويطبقونها في حياتهم وعملهم في مختلف التكوينات .

والظاهرات الاجتماعية التي يتكون منها التكوين الاقتصادي الاجتماعي ترتبط ببعضها ارتباطا عضويا ، وتؤثر في بعضها البعض بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وهي جميعا تمثل سويا كائنا اجتماعيا متشابكا معقدا دائم التطور هو التكوين الاقتصادي والاجتماعي .

هناك إذن وحدة وتفاعل بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج وبين الأساس والبناء الفوقي . والبناء الفوقي يرتبط أيضا بالقوى الانتاجية ،

لا بطريقة مباشرة ولكن بطريقة غير مباشرة من خلال الاساس الاقتصادى .
 كما أن عناصر البناء الفوقى أيضا تتفاعل مع بعضها ، فالسياسة مثلا
 تؤثر على الفن والأخلاق والفلسفة وغيرها من صور الحياة الروحية
 للناس . ويؤثر الانتاج والاساس والبناء الفوقى على العلاقات الأسرية
 وأسلوب الحياة . الخ . وهكذا نرى أن التكوين الاقتصادى والاجتماعى
 يمثل تفاعلا متداخلا بين مختلف الظاهرات الاجتماعية وأكثرها تباينا
 بينما يظل الانتاج المادى هو السبب الأول أو الأساس الأول فى تفاعلها .

وتتمثل أهمية مفهوم التكوين الاقتصادى - الاجتماعى فى أنه
 يوضح الوحدة العضوية بين مختلف الظاهرات الاجتماعية والترباط
 المتبادل بينها كما أنه يبين لنا أنه لا يمكن الحديث بشكل مجرد عن المجتمع
 بوجه عام ولكن يجب دائما الحديث عن مجتمع ذى طابع خاص مميز .
 فلكل تكوين اقتصادى اجتماعى قواه الانتاجية الخاصة به ونمط محدد
 من علاقات الانتاج وحياة روحية تميزه وهكذا فإن كل تكوين يخضع
 لقوانين تاريخية عامة ولكنه يخضع أيضا لقوانين خاصة به . فالمجتمع
 الاشتراكى مثلا يخضع لقوانين التطور المخطط المتناظر والتزايد المستمر
 لدور الجماهير فيه .

وهكذا يرى ماركس أنه لا يمكن فهم العلاقات الاجتماعية بدون
 ارجاعها الى علاقات الانتاج وربط علاقات الانتاج بالقوى الانتاجية .

وعلى أساس مفهوم التكوين الاقتصادى - الاجتماعى أمكن لماركس
 تقسيم تطور المجتمعات الى المراحل الست التالية :

- ١ - المرحلة الجماعية البدائية . Primitive Communal
- ٢ - مرحلة العبودية . Slavery
- ٣ - مرحلة الاقطاع . Feudalism
- ٤ - المرحلة الرأسمالية . Capitalism
- ٥ - المرحلة الاشتراكية . Socialism
- ٦ - المرحلة الشيوعية . Crmunism

وتمثل كل مرحلة من هذه المراحل تكوينا اقتصاديا - اجتماعيا متمايزا . والتطور أو التغير الكيفي من تكوين اجتماعي اقتصادي الى آخر لا يتم فجأة ولكنه يحدث نتيجة تغيرات كمية تدريجية داخل كل تكوين تتراكم حتى يحدث التغير الكيفي . فالرأسمالية مثلا تمر قبل تحولها الى الاشتراكية بتغيرات تدريجية من الرأسمالية قبل الاحتكارية الى الرأسمالية الاحتكارية ثم الاستعمارية . ومن المعروف تاريخيا أن الانتقال من تكوين الى آخر لا يقضى كلية ومرة واحدة على كل آثار التكوين القديم ، أى أنه لا يوجد بالفعل تكوين « خاص » أو « نقي » فأى تكوين اقتصادي - اجتماعي يتضمن بقايا من التكوين السابق ، فالتكوين الاشتراكي مثلا مازال يحتوى على بقايا من الرأسمالية فى عقول وسلوك أعضاء المجتمع الاشتراكي .

نخلص من ذلك اذن الى أن ماركس قد رأى أن المجتمع فى حالة تطور مستمر وهذا التطور تحكمه قوانين محددة ووظيفة عالم الاجتماع الأساسية هى الكشف عن هذه القوانين وفهمها ثم استخدامها من أجل المساعدة على تطوير المجتمع .

وهكذا نرى أن المادية التاريخية (أو النظرية الاجتماعية الماركسية) ترى أن المجتمع وحدة كلية اجتماعية اقتصادية مترابطة فى حركة مستمرة وتحول دائم ويعتمد أداؤه لوظائفه الحيوية على تطوير أسلوب الانتاج فيه ويحدد أسلوب الانتاج هذا فى نهاية الأمر التغيرات التى تحدث فى نظامه السياسى والمعنوى أو ما يسمى بالبناء الفوقى . ويكون لهذا البناء الفوقى استقلال نسبي حيث يؤثر داخل حدود معينة على الأساس الاقتصادى ويتأثر به .

التقسيم الطبقي والصراع الطبقي :

قرر ماركس أن الطبقات قبل ظهرت الى الوجود عندما تطور تقسيم العمل وتطور الانتاج بحيث أصبح من الممكن لبعض الناس أن يمتلكوا فائض عمل غيرهم وبالتالي استطاعوا أن يحققوا تراكما من هذا الفائض مكنهم من أن يدخلوا فى علاقات استغلالية مع جماهير المنتجين . وهكذا أصبح من الممكن أن تسيطر طبقة من الناس على طبقة أخرى .

وقد عرف لينين الطبقات بقوله :

« الطبقات عبارة عن مجموعات كبيرة من الناس تختلف كل مجموعة منها عن الأخرى حسب الموقع الذى تحتله من نظام الانتاج الاجتماعى المحدد تاريخيا وحسب علاقتها بوسائل الانتاج وحسب الدور الذى تلعبه فى التنظيم الاجتماعى للعمل ويترتب على ذلك كله اختلاف جوهري فى كيفية حصولها على نصيبها من الثروة الاجتماعية . والطبقات مجموعات من الناس يمكن لاحداها أن تمتلك ناتج عمل الأخرى نظرا للمواقع المختلفة التى تحتلها كل منها فى نظام محدد من العلاقات الاقتصادية الاجتماعية . »

ويرى ماركس أن علاقة الطبقة بوسائل الانتاج هى العامل الأساسى المحدد لموقعها ودورها فى الانتاج الاجتماعى وأيضا المحدد لكيفية حصولها على الدخل وحجم ذلك الدخل . والطبقات لم توجد منذ بداية المجتمع البدائى فلم تكن هناك طبقات ذلك أن الانتاج كان ضعيفا للغاية بحيث لم يكن يكفى الاكى يقيم أود الناس أو يقيمهم على قيد الحياة ، وبالتالي فانه لم تكن هناك امكانية ما لأن تتراكم أى ثروة فى أيدي أى مجموعة من الناس ، بعبارة أخرى لم تكن هناك أى امكانية للملكية الخاصة التى ما أن ظهرت حتى ظهرت الطبقات وتمايز الناس الى مجموعات تملك وأخرى لا تملك أى شىء ، ولكن مع تطور قوى الانتاج ومع زيادة انتاجية العمل بدأ الناس ينتجون أكثر مما يستهلكون وهكذا أصبح من الممكن أن تتجمع ثروة مادية لدى بعض الناس وأن يملك بعضهم وسائل الانتاج ، وهكذا ظهرت الملكية الخاصة التى ساعد على زيادتها التزايد المستمر فى تقسيم العمل والتبادل التجارى .

وقد أدى ظهور وتطور الملكية الخاصة وحلولها محل الملكية العامة الى تزايد اللامساواة الاقتصادية . فبعض الناس وبخاصة زعماء القبائل أصبحوا أغنياء واستولوا على وسائل الانتاج الجماعى ، أما البعض الآخر الذين حرموا من ملكية وسائل الانتاج فلم يكن أمامهم من مفر الا أن يعملوا لدى أولئك الذين أصبحوا مالكين لوسائل الانتاج .

وقد ظهرت الطبقات الاجتماعية حين تداعى النظام الجماعى البدائى

وبدأ نظام الرق في الظهور . وقد كان هذا الوضع المتناقض للطبقات في المجتمع هو مصدر الصراع الطبقي وأصبح الصراع الطبقي هو العلامة المميزة لتطور البشرية خلال قرون طويلة .

وقد رفض ماركس تماما تعريف الطبقة على أساس المحكات التي كان يستخدمها المفكرون المثاليون في ذلك الوقت (والتي مازالت تستخدم حتى الآن في علم الاجتماع الغربي) فقد قرر ماركس عند حديثه عن الطبقات في كتابه رأس المال أنه لا يمكن التعرف على الطبقة على أساس مصدر الدخل ، أو على أساس الوضع الوظيفي للأفراد في عملية تقسيم العمل فهذه المحكات سوف تؤدي بنا الى تقسيم الناس الى عدد هائل من الطبقات : الأطباء الذين يحصلون على دخلهم من معالجة مرضاهم سوف يصبحون طبقة منفصلة عن طبقة الفلاحين الذين يحصلون على دخلهم من زراعتهم للأرض . (الخ) .

وفضلا عن ذلك فإن استخدام مثل هذه المحكات سوف يؤدي الى تداخل وضع تجمعات الأفراد في العملية الانتاجية فمثلا قد نجد شخصين يشتغلان بنفس العمل ولكن أحدهما قد يكون مستخدما لدى شركة ، بينما يمتلك الآخر محلا أو ورشة صغيرة يعمل بها .

كما رفض ماركس استخدام محك الدخل للتمييز بين الطبقات الاجتماعية ، ذلك أن الدخل ليس منفصلا بأي شكل من الأشكال عن العملية الانتاجية ولكنه يتحدد بأسلوب الانتاج وبالتالي فإن ماركس قد رفض دعاوى المفكرين المثاليين أمثال « جون سیتورت – ميل » بأن الطبقات ليست الا نتاجا للمساواة في توزيع الدخل وبالتالي فإنه يمكن تخفيف حدة الصراع الطبقي أو حتى إزالته عن طريق تقليل الفوارق بين الدخول التي يحصل عليها الناس .

رأى ماركس إذن أن أساس تقسيم المجتمعات الى طبقات هو ملكية أو لا ملكية وسائل الانتاج ، وأن الموقع من وسائل الانتاج هو الذي يحدد كل العوامل الأخرى التي يتحدث عنها المفكرون المثاليون مثل المهنة والدخل وأسلوب الحياة ومحل السكن الى أخوه . ورأى ماركس أن كل

المجتمعات الطبقيّة يوجد بها صراع طبقي بين الطبقة المسيطرة ، أى تلك التى تمتلك وسائل الانتاج المادية وبالتالي تكون لها السيطرة السياسية والقانونية والعسكرية والفكرية والطبقات الخاضعة أو المستغلة . وطالما توجد ملكية خاصة فى وسائل الانتاج وطالما ينقسم الناس فى المجتمع الى من يملكون هذه الوسائل ومن لا يملكون سوى جهدهم يبيعونه لملك وسائل الانتاج الذين يستغلونهم فسيظل هناك دائما عداوا بين هذه الطبقات وسيظل هناك صراع بينهم ، وقد شهدت المجتمعات البشرية لقرون عديدة هذا الاستغلال للطبقات العاملة سواء كانت هذه الطبقات من العبيد أو الفلاحين أو العمال الصناعيين من جانب الطبقات الحاكمة ، وبالتالي فانه من الطبيعى أن تقوم هذه الطبقات المستغلة بالثورة على القمع وعلى الظلم الواقع عليها وأن تسعى للحصول على حقوقها .

ويتكون المجتمع الطبقي من طبقات أساسية وطبقات غير أساسية أو ما يمكن تسميته بالفئات الاجتماعية . أما الطبقات الأساسية فهى تلك الطبقات التى ترتبط بنمط الانتاج فى مجتمع معين من المجتمعات الطبقيّة حيث نجد طبقة ملاك وسائل الانتاج وطبقة المعدمين المقهورين التى تقف فى مواجهة الطبقة الأولى ، وفى المجتمع العبودى نجد طبقتين أساسيتين هما طبقة أصحاب العبيد والعبيد . وفى المجتمع الأقطاعى نجد طبقتين أساسيتين هما طبقة الاقطاعيين وطبقة الفلاحين وفى المجتمع الرأسمالى نجد طبقتى البرجوازية والبروليتاريا .

ولكن هذه المجتمعات الطبقيّة تضم أيضا مجموعات أو فئات اجتماعية لا يمكن اعتبارها طبقات بالمعنى السابق ذكره أو يمكن النظر اليها بوصفها طبقات غير أساسية لأنها لا ترتبط بشكل مباشر مثل النوع الأول (أى الطبقات الأساسية) بنمط الانتاج السائد فى المجتمع الرأسمالى كما يضم المجتمع أيضا مجموعات اجتماعية مختلفة لا يمكن اعتبارها طبقات أساسية مثل المثقفين ورجال الدين وغيرهم . والصراع الطبقي فى المجتمعات الطبقيّة يدور بشكل أساسى بين الطبقات الاجتماعية الأساسية أما الطبقات الغير الأساسية أو المجموعات الاجتماعية فانها لا تكون ذات اتجاه محدد فى ذلك الصراع وتتحالف مع طرف أو آخر من أطراف

الصراع ، فالمثقفون قد يتحالفون مع البروليتاريا فى صراعها ضد البورجوازية أو قد يتحالفون مع البورجوازية ضد البروليتاريا .

وهناك بعض التجمعات المتنافرة من الأفراد الذين لا يشكلون طبقة بمعنى الكلمة والذين يعتبرون على هامش النظام الطبقي فى المجتمع لانهم لا يلعبون دورا هاما فى عملية تقسيم العمل . وهذه المجموعات تتكون من اللصوص والمجرمين والذين يعيشون عالة على المجتمع وقد بين ماركس أن درجة التشابه أو التجانس فى كل طبقة من الطبقات تختلف باختلاف الأزمنة التاريخية . وفى كل طبقة من الطبقات يوجد نوع من التدرج فى السيطرة والخضوع داخل ذاتها . مثال ذلك الطبقة الرأسمالية فى فرنسا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، هذه الطبقة كانت تتكون من جناحين أساسيين هما جناح البورجوازية المالية والبورجوازية الصناعية ، وكان هناك صراع بين هذين الجناحين ، بعبارة أخرى تنقسم الطبقة داخليا الى طبقات فرعية أو الى مجموعات لكل منها مصالح متعارضة مع مصالح المجموعة الأخرى ولذلك ينشأ صراع بين المجموعات المكونة للطبقة نفسها ولكن هذا الصراع أو ذلك التناقض بين المجموعات المكونة للطبقة الكبيرة إنما هو حسب تعبير ماركس تناقض ثانوى وليس تناقضا أساسيا ، بمعنى أنه اذا شعرت الطبقة ككل بخطر ما من طبقة أخرى فانها فى هذه الحالة سوف تتحد جميعها من أجل الدفاع عن المصالح المشتركة بينها . بعبارة أخرى يظل هناك التناقض والصراع بين مكونات الطبقة الواحدة طالما أنها متماسكة كطبقة أو مهيمنة ويتلاشى أو يختفى فى الظل ذلك الصراع اذا شعرت الطبقة ككل بتهديد مصالحها .

وقد قرر ماركس أن طبيعة الصراع الطبقي تختلف من شكل اجتماعى الى آخر . ورأى ماركس أن الصراع الطبقي هو القوة الدافعة ومصدر التطور فى المجتمع الطبقي الذى يسود فيه العداء أو العلاقات العدائية بين الطبقات ، وهذا الصراع هو الذى يحدد التطور الاجتماعى فى المجتمع الطبقي سواء فى فترات السلم أو فى فترات الثورة . فالرأسماليون يلجأون الى تطوير الآلات والتكنولوجيا وابتداع أساليب

جديدة لى يواجهوا ضغوط العمال وأصحاب الأعمال فقد لوحظ أنه بعد كل اضراب كبير قام به العمال ظهرت آلة جديدة (١١) .

ورأى ماركس أنه كلما ازدادت حدة الصراع الطبقي وكلما أصبحت الطبقات المستغلة أكثر تنظيماً وشدة فى صراعها ضد مستغليها كلما كان تطور المجتمع أسرع .

وتمثل الثورة الاجتماعية قمة الصراع الطبقي وتلعب دوراً هاماً فى التقدم الاجتماعى وينجم عنها بالضرورة تحطيم نظام اجتماعى قديم لى يحل محله نظام حديث أكثر تقدماً وتاريخ المجتمعات الطبقيّة بأسره ملئ بكفاح الطبقات المستغلة ضد الطبقات المستغلة ، فقد كان هناك صراع مرير بين العبيد وبين أصحاب العبيد فى المجتمع العبودى اتخذ أشكالا متعددة ابتداء من تحطيم الأدوات التى يعمل بها العبيد حتى الثورات الجماهيرية مثل الثورة التى قادها اسبباتاكوز فى القرن الأول قبل الميلاد والتى اشترك فيها ما يزيد على المائة ألف من العبيد . وفى المجتمع الاقطاعى اتخذ الصراع الطبقي شكلا حاداً وظهر على شكل هبات الفلاحين ضد الاقطاعيين واشتراك غيرهم من الكادحين معهم ، مثل الحرفيين فى هذه الثورة . وقد شهد تاريخ أوربا ثورات فلاحية اشترك فيها مئات الألوف من الفلاحين ضد الاقطاعيين وامتدت لتشمل مناطق خاصة واستمرت لسنوات طويلة . ومن أمثلة ذلك ثورة الفلاحين فى إنجلترا فى القرن الرابع عشر وثورة الفلاحين فى فرنسا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر وحرب الفلاحين فى ألمانيا فى القرن السادس عشر وثورات الفلاحين المتعددة فى القرن السابع عشر والثامن عشر فى روسيا وتمرد الفلاحين فى الصين فى القرن التاسع عشر ، ولكن ثورة المظلومين فى المجتمعات الاقطاعية والعبودية لم تضع حداً للاستغلال لأن الظروف لم تكن مواتية لذلك فمستوى الانتاج لم يكن يسمح بتغيير النظام الاجتماعى الى نظام آخر يخلو من الاستغلال والقمع . وكانت هذه الهبات أو الثورات غير منظمة ولم يكن لدى الثوار أفكار واضحة عن أهداف صراعهم أو

أساليب خوض هذا الصراع ولم تكن لدى هذه الجماهير نظرية تقدمية ترشدهم في صراعهم ضد الظلم ولم يظهر ذلك الا في عهد الرأسمالية . ومع هذا فان هبات العبيد والفلاحين لعبت دورا كبيرا وتقدميا في الانسانية . فقد قام العبيد بالقضاء على مجتمع العبودية وقام الاجراء من الفلاحين بدور كبير في القضاء على النظام العبودي وانتقاله الى نظام أكثر تقدمية هو نظام الرأسمالية . والطبقات الأساسية التي توجد في المجتمع الرأسمالي هي كما سبق أن ذكرت طبقة الرأسماليين وطبقة البروليتارية وهاتان الطبقتان في صراع دائم . وتهدف الطبقة الرأسمالية الى السيطرة على الطبقة البروليتارية بينما تهدف طبقة البروليتارية الى التحرر من تلك السيطرة والحصول على نصيبها العادل من الثروة الاجتماعية . وهكذا فان الطبقة البروليتارية هي التي يعتبرها كارل ماركس الطبقة الثورية الأساسية في المجتمع الرأسمالي .

أما غيرها من المجموعات الاجتماعية مثل الفلاحين والحرفيين وهم يشكلون عددا كبيرا في المجتمع الرأسمالي فانهم ليسوا ثوريين حتى النهاية ذلك أنهم لا يحتلون مكانة مستقلة في المجتمع، ومع تطور الرأسمالية فانهم يدخلون نسق التدرج الاجتماعي فغالبية الفلاحين والحرفيين ينضمون الى البروليتاريا ، ذلك أن التطور الرأسمالي يفرض عليهم ذلك نظرا لتزايد الميكنة والتصنيع ونسبة قليلة جدا منهم لا تذكر يمكن أن تنضم الى الطبقة الرأسمالية . أما بالنسبة للمثقفين أو الانتلجنسيا « مثل المهندسين والفنيين والأطباء والمدرسين والعلماء الى آخره » فانهم لا يمكن أن يكونوا ثوريين دائما ، ذلك لأن غالبية المثقفين يضطرون لخدمة الطبقات المستغلة . ولكن الطبقة البروليتارية بحكم ظروفها وبحكم موضعها في نسق الانتاج الاجتماعي لابد وأن تكون هي الثورية والتي تسعى الى التغيير ، ذلك أن النظام الرأسمالي يضطر لتعليم هذه الطبقة لكي تساهم في الانتاج علاوة على أن العمال لا يملكون أى شيء يخشون فقده في الصراع ضد الرأسمالية . والبروليتاريا قادرة دائما على تنظيم نفسها أكثر من غيرها من الفئات العاملة وبالتالي فانها تحتل دائما مركز القيادة للفئات الكادحة في المجتمع .

وتلجأ الطبقة البروليتارية فى صراعها ضد الاستغلال والرأسمالية الى عدة أنواع من أساليب الكفاح منها الكفاح الاقتصادى من أجل تحسين ظروفها وحصولها على أجور أفضل وساعات عمل أقل، والصراع السياسى من أجل تقليل السيطرة السياسية للدولة الرأسمالية وتحكمها فى المجتمع، والصراع الايديولوجى الذى تهدف من ورائه الى كشف زيف دعاوى البورجوازية وايديولوجيتها وتشجيع الطبقة العاملة على الثورة وعلى تنظيم نفسها ضد العدو البورجوازي .

ولكن كيف يحدث ذلك الاستغلال من جانب اصحاب رؤوس الأموال او الطبقة البورجوازية للبروليتاريا فى المجتمع الرأسمالى ؟ يجيب ماركس على ذلك بقوله ان الرأسماليين يعطون أجورا للعمال على عملهم ، وكل عامل له الحرية فى ان يعمل أو لايعمل فكيف يمكن القول اذن أن الرأسماليين طبقة مستقلة وأن العمال يقع عليهم الظلم أو الغبن ؟ يرد ماركس على ذلك فى كتابه رأس المال ويفند هذه الدعاوى ويقدم نظريته عن فائض القيمة .
نظرية فائض القيمة فى المجتمع الرأسمالى :

خرج كارل ماركس من دراسته للمجتمع الرأسمالى ولدينامياته بأن الرأسمالية هى نظام لانتاج السلع System of Commodity production وفى النظام الرأسمالى لاينتج المنتجون سلعا للوفاء باحتياجاتهم فحسب أو للوفاء باحتياجات الأفراد المتصلين بهم بشكل شخصى ولكن الرأسمالية تتضمن أساسا سوقا للتبادل سواء على المستوى القومى أو على المستوى الدولى .

وكل سلعة لها جانبان كما يقول ماركس : قيمتها الاستعمالية Use value من جهة وقيمتها التبادلية من جهة أخرى exchange value والقيمة الاستعمالية هى التى تتصل بالاحتياجات التى يمكن استخدام السلعة من أجل تحقيقها ، فأي شئ يمكن أن تكون له قيمة استعمالية سواء كان سلعة أم لا ولكن لكى يصبح المنتج سلعة لابد أن تكون له قيمة تبادلية ولكن العكس ليس صحيحا . أما القيمة التبادلية فهى تشير الى قيمة المنتج حين يقدم من أجل التبادل بمنتجات أخرى . وعلى عكس القيمة الاستعمالية نجد أن القيمة التبادلية تفترض علاقة اقتصادية معينة ولايمكن

أن تنفصل عن السوق الذى يتم فيه تبادل السلع . فأى سلعة يكون لها قيمة تبادلية من حيث علاقتها بغيرها من السلع .

وأى موضوع سواء كان سلعة أو لا يمكن أن تكون له قيمة طالما أنه قد استخدم فى إنتاجه جهد إنسانى وذلك هو أساس نظرية القيمة التى استعارها كارل ماركس من الاقتصاديين الكلاسيكيين أمثال آدم سميث وريكاردو . ويتربط على ذلك أن كلامن القيمة التبادلية والقيمة الاستعمالية لابد أن يرتبطا بكمية العمل المبذول فى إنتاج السلعة .

ومن الواضح كما يقول ماركس أن القيمة التبادلية لا يمكن أن تشتق أو تعتمد على القيمة الاستعمالية ، ويمكن توضيح ذلك بمثال القيمة التبادلية بسلعتين مثل الأذرة والحديد ، أن كمية معينة من الأذرة تساوى كمية معينة من الحديد ولما كنا نستطيع أن نعبر عن قيمة كل من هذين المنتجين بالنسبة للآخر وبطريقة كمية فإن ذلك يبين لنا أننا نستخدم معيارا مشتركا نطبقه على الاثنين .

هذا المقياس أو المعيار المشترك للقيمة لاعلاقة له بالخصائص الفيزيائية للأذرة أو الحديد وهى خصائص غير قابلة للمقياس . ولكن القيمة التبادلية لابد أن تعتمد على خاصية ما يمكن قياسها كميا هذه الخاصية هى العمل . وهناك بالطبع فروق كثيرة بين أنواع العمل المختلفة ؛ فالأعمال الفعلية التى تبذل فى زراعة وجنى الأذرة تختلف كثيرا عن تلك التى تبذل فى إنتاج الحديد .

ولكن الصفة المشتركة بين هذه الأعمال المختلفة هى كمية الوقت الذى ينفقه العامل فى إنتاج السلعة . أى أننا نقوم بتقييم أى سلعة من السلع على أساس الوقت الذى بذله العامل فى عمله ونقارن بين السلع بعضها وبعض على هذا الأساس . وقد أطلق ماركس على هذا العمل المبذول فى إنتاج السلعة تسمية (العمل المجرد) (abstract labor) .

ولا يعنى كارل ماركس بكمية العمل المبذول فى إنتاج السلعة أو العمل المجرد أى ساعات من العمل تبذل فى الإنتاج . فالعامل الكسول الذى يستغرق وقتا طويلا فى إنتاج سلعة ما لا يمكن أن تقدر قيمة السلعة

التي ينتجها بأكثر مما تقدر السلعة التي ينتجها عامل آخر نشط يستغرق وقتا أقل في انتاج نفس السلعة والذي يعنيه ماركس بالعمل المجرد أو كمية العمل المبذول في انتاج السلعة ليس هو كمية الوقت التي تبذل في العمل من جانب فرد عامل ولكنه يعنى بذلك ما أسماه وقت العمل اللازم اجتماعيا .

ويعرف ماركس وقت العمل اللازم اجتماعيا بأنه كمية الوقت التي يتطلبها انتاج سلعة ما في ظل الظروف العادية للانتاج مع توافر درجة متوسطة من المهارة في وقت معين لصناعة معينة . ويمكن وضع مقاييس عامة من خلال الدراسات الامبيريقية لتقدير الزمن المجرد أو وقت العمل اللازم لانتاج السلعة في ظل الظروف .

ولكن يجب أن نلاحظ أن كمية العمل اللازمة لانتاج السلعة تختلف من وقت لآخر حسب ظروف الانتاج فمثلا اذا حدث تحسن تكنولوجي مفاجيء فان ذلك سيؤدي الى تقليل كمية الوقت اللازم للعمل لانتاج سلعة معينة وبالتالي فانه سوف يؤدي الى تقليل في قيمة هذه السلعة .

والذي يعمل الرأسمالي أنه يشتري العمل ويبيع السلع حسب قيمتها الفعلية أى بعبارة أخرى أنه لابد للرأسمالي أن يشتري السلع (المواد الخام والعمل) حسب قيمتها ثم يبيعها بعد ذلك حسب قيمتها أيضا ولكنه مع ذلك في نهاية العملية الانتاجية يحصل على قيمة من هذه العملية التبادلية أكبر من تلك القيمة التي وضعها عند بداية العملية الانتاجية ، فكيف يحدث ذلك ؟

ان العمال في المجتمع الرأسمالي أحرار في بيع عملهم في سوق العمل . ويعنى ذلك أن قوة العمل في حد ذاتها سلعة تباع وتشتري في السوق . وقيمة هذه السلعة (أى قوة العمل) تتحدد مثل أى سلعة أخرى على أساس وقت العمل اللازم اجتماعيا لانتاجها . فقوة العمل الانساني تعنى استهلاكها لطاقة جسمية لابد أن تعوض ولتجديد هذه الطاقة التي استهلكت في العمل لابد أن يحصل العامل على المستلزمات الضرورية لبقائه ككائن حي يماركس وظائفه مثل الطعام والملبس والسكن له ولأسرته .

ووقت العمل اللازم اجتماعيا لانتاج مستلزمات الحياة للعامل هو قيمة قوة العمل التى يبذلها العامل . وبالتالى فان قوة العمل هذه يمكن فى نهاية الامر أن نحسبها بكمية معينة من السلع أى تلك التى يحتاج اليها العامل لكى يستطيع أن يعيش وأن ينتج . بعبارة أخرى يتبادل العامل مع رأس المال عمله فى حد ذاته أى أن عمله هذا يصبح غريبا عليه وهذا هو أساس فكرة الاغتراب Alienation التى تحدث عنها كارل ماركس .

وتسمح ظروف الانتاج الصناعى الحديث للعامل بأن ينتج فى يوم العمل العادى أكثر بكثير مما يحتاجه لكى يغطى نفقات معيشته . فيكفى العامل أن ينفق بعضا من وقت العمل اليومى لكى ينتج سلعا توازى قيمتها قيمة المتطلبات الضرورية لبقائه . ولكن يبقى هناك بقية يوم العمل وكل ما ينتجه العامل فى هذا الوقت المتبقى من يوم العمل يصبح قيمة فائضة يحصل عليها صاحب رأس المال .

فإذا فرضنا مثلا أن العامل يعمل عشر ساعات فى اليوم وإذا كان العامل ينتج ما يوازى قيمة الجهد الذى يبذله فى نصف هذا الوقت أى فى خمس ساعات فان الخمس ساعات الباقية من العمل تصبح انتاجا فائضا يملكه صاحب رأس المال . وقد أطلق ماركس على النسبة بين العمل الضرورى وفائض العمل معدل فائض القيمة أو معدل الاستغلال .

ويجب أن نلاحظ هنا أن ماركس قد أوضح أن وقت العمل اللازم لانتاج قوة العمل لا يمكن تحديده على أسس فيزيقية بحتة ولكن لابد أن نحدده على أساس مستوى المعيشة فى المجتمع المحدد ثقافيا . فالظروف الجوية والفيزيكية لها تأثير ولكن لابد من أن نضع فى اعتبارنا الظروف الاجتماعية التى تعيش فى ظلها طبقة العمال وما تستلزمها من متطلبات . ويعنى ماركس بذلك أنه مع تحسن الانتاج وزيادته وارتفاع مستوى المعيشة فان متطلبات العامل ومستلزمات أسرته المعقولة تتزايد باستمرار .

وهكذا يحدد كارل ماركس أساس الاستغلال فى المجتمع الطبقي الرأسمالى الحديث ، فيرى أن الرأسمالية كطريقة يستحيل عليها أن تقوم

بتراكم لرأس المال وأن تمتلك باستمرار مزيدا من الثروة ما لم تحصل دائما على فائض قيمة عمل العمال .

والعامل يضطر دائما الى بيع قوة عمله لأصحاب الأعمال في سوق العمل الذى يحددون هم قواعده باستمرار . ومعنى ذلك أن العمال لا يحصلون اطلاقا عن القيمة الحقيقية لما يبتذلونه من قوة عمل فى العملية الانتاجية بل تذهب هذه القيمة دائما الى أصحاب الأعمال ولا يحصلون هم أنفسهم الا على ما يكفى بالوفاء بمتطلبات حياتهم الضرورية (١٢) .

ان هذا الاستغلال هو أساس الصراع الدائم بين طبقة البرجوازية وطبقة البروليتاريا . ويتخذ هذا الصراع كما سبق أن ذكرنا أشكالا متعددة هى الشكل الاقتصادى والسياسى والأيدىولوجى .

وقد رأى ماركس أن هذا التقسيم الطبقي للمجتمع الى من يملكون وسائل الانتاج والى من لا يملكون الا طاقة عملهم يبيعونها الى أصحاب رؤوس الأموال ليس تقسيما أبديا . كما أن الصراع الطبقي الذى يوجد فى مثل هذا المجتمع ليس أبديا أيضا ولا عاما بالنسبة لكل المجتمعات . فمع تزايد حدة التناقض بين القوى الانتاجية من جهة وبين العلاقات الانتاجية من جهة أخرى ، ومع تزايد حدة الصراع الطبقي وتزايد وعى البروليتاريا وتنظيمها لنفسها ، ومع تزايد تناقضات المجتمع الرأسمالى فان الثورة الاجتماعية سوف تقع لامحالة ، بحيث تتوصل الطبقة العاملة الى السيطرة على المجتمع وتقيم حكم الديكتاتورية البروليتارية وبحيث يتم القضاء تماما على الملكية الخاصة وعلى التقسيم الطبقي العدائى الذى كان سائدا فى المجتمع الرأسمالى . وهذا المجتمع الجديد الذى سينشأ على انقاض المجتمع الرأسمالى هو المجتمع الاشتراكى .

فى هذا المجتمع الاشتراكى الذى تحدث عنه كارل ماركس سوف تحدث عملية اصفاء الطابع الجماعى لا الفردى على الانتاج وسوف يتم القضاء على الملكية الخاصة وتصبح الملكية جماعية وتوزع الأجور على أساس مبدأ آخر مخالف تماما لذلك المبدأ الذى توزع على أساسه فى

المجتمع الرأسمالى ، فسوف يحصل العمال على أجورهم على أساس قيمة العمل الحقيقية التى أنفقوها فى عملهم بعد أن يخصم من هذه القيمة ما يغطى الاحتياجات الجماعية مثل إدارة العملية الانتاجية والخدمات الاجتماعية المختلفة مثل التعليم والصحة والترفيه والسياحة ٠٠٠٠ الخ . ولكن فى إعادة التنظيم الاجتماعى هذا سوف يحتفظ فى نفس الوقت بالمبادئ الأساسية التى كانت سائدة فى المجتمع الرأسمالى من حيث كيفية تقدير العمل على أساس موضوعى أى على أساس كمية الوقت المستغرقة فيه ، بعبارة أخرى سيظل العمل ينظر اليه على أساس قيمته التبادلية . ولكن وجه الاختلاف الأساسى بين الوضع فى الاشتراكية وفى الرأسمالية هو أنه بدلا من أن يصبح العمل ذوى القيمة التبادلية قاصرا على الطبقة البورجوازية ويحصل أصحاب رؤوس الأموال على فائض قيمة العمل فإن العمل سوف يصبح خاصية لجميع الناس فى المجتمع ولن يمتلك فائض قيمته أفراد معينون . وبذلك ينتهى الاستغلال نظرا للقضاء على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج على التقسيم الطبقي ويحصل كل فرد على ما يوازى قيمة عمله ولا يسمح لأحد أن يحصل على فائض قيمة غيره من الناس .

وما ينطبق على عملية الانتاج ينطبق أيضا على المجال السياسى . فبدلا من سيطرة البورجوازية على جهاز الدولة لخدمة مصالحها سوف تسيطر البروليتاريا على جهاز الدولة لكى تخدم مصالح هذه الطبقة الجديدة .

ولكن هذه المرحلة أى مرحلة الاشتراكية انمسا هى مرحلة انتقالية بين مرحلتى الرأسمالية والشيوعية . وذلك أن العملية الانتاجية سوف يحكمها مبدأ جديد مخالف تماما لما كان موجودا من قبل بحيث يحصل المنتج لا على قيمة ما أنفقه من وقت فى العمل الانتاجى ولكنه سوف يحصل على احتياجاته الفعلية . أى أنه لن ينظر للعمل على أنه سلعة تبادلية كما كان الحال فى المرحلة الرأسمالية وفى المرحلة الاشتراكية ولكن سينظر اليه بوصفه تنمية لقدرات الانسان ، ومصدرا لمتعة الأفراد والمجتمع على السواء . ولن يتحقق ذلك بالطبع الا نتيجة لتزايد هائل

ومستمر فى تحسن وسائل الانتاج بحيث تكفى احتياجات كل البشر وبالتالى يمكن لكل شخص أن يشبع احتياجاته الأساسية سواء كانت هذه الاحتياجات احتياجات جسمية فيزيقية أو احتياجات ثقافية وروحية .

وفى المجتمع الشيوعى سوف تختفى الدولة لأنه لن يكون هناك أى نوع من الصراع بين البشر فى ذلك المجتمع وسوف يقوم الناس بأنفسهم على تصريف كل شئون حياتهم دون ما حاجة الى قوة تمارس الاكراه أو القمع على الناس .

ويعزو ماركس ذلك الى سيادة الروح الاجتماعية ، والاخلاق الشيوعية الجديدة فى المجتمع . ولكى يوضح ماركس ذلك استشهد بكميونة باريس ، فقد كانت خصائص هذا الكميونة أو هذا المجتمع الشيوعى الذى استمر فترة قصيرة أنه لم تكن به دولة وكان أعضاؤه ينظمون شئونهم بأنفسهم وكانوا يجمعون بين كل من السلطة التنفيذية والتشريعية فى نفس الوقت ، وسوف يختفى فى المجتمع الشيوعى تقسيم العمل الذى كان سائدا فى المجتمع البورجوازي حيث سيحل محل العامل المتخصص فى نوع معين من العمل فرد متطور يستطيع القيام بأعمال متنوعة ويستمتع بها . وسوف يصاحب ذلك بالطبع اختفاء ظاهرة التناقض بين العمل اليدوى والعمل العقلى من جهة والتناقض بين القرية والمدينة من جهة أخرى . وفى هذا المجتمع سوف تختفى أيضا ظاهرة اغتراب الانسان عن عمله واغترابه عن أخيه الانسان .

ظاهرة الاغتراب فى المجتمع الطبقي :

على الرغم من أن مفهوم الاغتراب قد ظهر فى كتابات كل من هيجل وفيورباخ إلا أن ماركس قد عالج هذا المفهوم على ضوء فلسفته المادية الجدلية وأضفى عليه معنى جديدا غير ذلك الذى كان يقصده كل من هيجل وفيورباخ .

ونقطة الانطلاق عند ماركس فى تحليله لهذه الظاهرة السيكولوجية الاجتماعية التى تعنى بصفة عامة « أن يصبح الانسان غريبا عن جانب

من جوانب حياته « هي الواقع الاقتصادي الاجتماعي والعلاقات الانتاجية التي مارس الانسان في ظلها العمل » .

لقد سبق أن ذكرنا أن النظام الرأسمالي يحيل طاقة العمل الى سلعة تباع وتشترى في الأسواق . وقلنا أن ماركس قد توصل الى أن قيمة هذه السلعة « أي قوة العمل » تتحدد مثل قيمة أي سلعة أخرى ، أي عن طريق وقت العمل اللازم اجتماعيا لانتاجها . وهذا الوقت اللازم لانتاج قوة العمل يتمثل في الوقت المستغرق لانتاج المستلزمات الأساسية لبقاء الانسان العامل على قيد الحياة مثل الطعام والسكن والملبس له ولأسرته . ورأينا أن العامل عليه أن يستبدل العمل أو قوة عمله بقيمة أخرى . وبهذه الكيفية فإنه يجعل هذا العمل غريبا عن نفسه أي يصبح عمله مغتربا عن ذاته ويصبح سلعة يسهل تبادلها في السوق مثل أي سلعة أخرى . هذه السلعة (أي قوة عمل العامل) تصبح أكثر رخصا كلما انتج سلعا أكثر . بعبارة أخرى يريد ماركس أن يقول أن تدهور قيمة الانسان تتناسب عكسيا مع تزايد قيمة الأشياء التي ينتجها (١٣) .

أن ما ينتجه العامل يصبح غريبا عن ذاته ويقف في مواجهته كقوة مستقلة لا يستطيع حيالها شيئا . فالحياة التي منحها للشئ وحوله بها الى سلعة تصبح ضده هو شخصا كقوة غريبة عليه ومعادية له .

ويتخذ اغتراب العامل عن ناتج عمله صورا متعددة ومتمايزة وتتخذ ظاهرة الاغتراب الأبعاد التالية :

١ - يفقد العامل السيطرة على التصرف في ناتج عمله طالما أن ما ينتجه يملكه آخرون غيره بحيث لا يستفيد منه .

أن المبدأ الجوهري في اقتصاد السوق هو أن السلع تنتج من أجل التبادل وفي الانتاج الرأسمالي يتحكم في عملية التبادل وتوزيع السلع آليات أو مبادئ السوق الحرة . والعامل ذاته الذي يعامل كسلعة تباع

وتشتري في السوق لا يكون له بهذه الكيفية القدرة على تحديد مصير ما ينتجه • فمبادئ السوق تعمل بطريقة تساعد على زيادة مكاسب الرأسمالي على حساب مصالح العامل •

وهكذا فإنه حسب قول ماركس : « كلما أنتج العامل أكثر كلما كانت قدرته على الاستهلاك أقل ، وكلما خلق مزيدا من القيم المادية كلما قلت قيمته أو أصبح عديم القيمة » •

٢ - ويغترب العامل أيضا خلال عملية العمل ذاتها :

« فان كان نتاج العمل هو الاغتراب فان الانتاج ذاته لابد أن يكون اغترابا ايجابيا - أى أنه يحدث اغتراب للنشاط وأيضا نشاط اغترابي » • والعمل ذاته لا يقدم اشباعا ذاتيا يجعل العامل قادرا على تنمية طاقاته العقلية والفيزيائية تنمية حرة طالما أن العمل الذي يؤديه مفروض عليه بقوة الظروف الخارجية فحسب • ان العمل يصبح وسيلة لغاية لاغاية في حد ذاته ويتضح ذلك من حقيقة أنه بمجرد أن تزول قوة الاجبار أو الاكراه عن العمل نجد أن الناس تهرب من عملها كما لو كان هذا العمل طاعونا •

٣ - وبما أن كل العلاقات الاقتصادية هي أيضا علاقات اجتماعية فإنه لابد أن نخلص الى أن اغتراب العمل له آثار اجتماعية مباشرة • فتصبح العلاقات الانسانية في المجتمع الرأسمالي مجرد آليات في السوق • ويتضح ذلك بشكل مباشر في مغزى النقود في العلاقات الاجتماعية • ان النقود في المجتمع الرأسمالي تشجع على ترشيد العلاقات الاجتماعية طالما أنها تمثل معيارا مجردا يمكن على أساسه المقارنة بين أكثر الخصائص اختلافا وتجانسا واستبدال كل منها بالآخر (فالذي يستطيع أن يشتري الشجاعة يصبح شجاعا مهما كان جباناً) فصاحب النقود يردد دائما أن نقوده قادرة على أن تتبادل كل خاصية وكل شيء بغيره مهما كانت هناك من تناقضات بين هذه الأشياء وبين بعضها البعض •

٤ - يعيش الناس فى علاقة متبادلة مع العالم الطبيعى . والواقع أن التكنولوجيا والحضارة كلاهما تعبير عن نتاج هذه العلاقات التبادلية وهما الخصائص الرئيسية التى تميز الانسان عن الحيوان . ان بعض الحيوانات تنتج بالطبع ولكن بطريقة آلية وبشكل تكيفى . والعمل المغترب يختزل النشاط الانتاجى الانسانى الى مستوى التكيف بدلا من مستوى السيطرة الايجابية عن الطبيعة . وهذه العملية تعزل الفرد الانسانى عن جنسه البشرى أى عما يجعل حياة البشر متميزة عن حياة الحيوان . والذى يميز الحياة البشرية عن حياة الحيوانات كما يرى ماركس هو أن القدرات والامكانيات والميول الانسانية تشكل من خلال المجتمع . والواقع أنه ليس هناك فرد انسانى واحد لم يولد فى مجتمع ولم يتشكل من خلاله وكل فرد هو فى الواقع مستقبل للحضارة المتراكمة للأجيال السابقة وفى نفس الوقت يسهم فى تعديل وتغيير العالم الذى يعيش فيه من خلال تفاعله مع العالم الطبيعى والاجتماعى . ان الحياة الفردية للانسان وحياة النوع ليسا شيئين مختلفين ، فماركس يؤكد بأنه على الرغم من أن الانسان فرد فريد ومتميز فإنه فى نفس الوقت عبارة عن كل أو كل مثالى فهو الوجود الذاتى للمجتمع ، كما تتم الخبرة به والتفكير فيه وعلى ذلك فان عضوية الانسان فى المجتمع مع الجهاز التكنولوجى والحضارى الذى يدعم هذا المجتمع والذى يجعل وجوده ممكنا هى التى تؤدى الى تمايز الفرد الانسانى عن الحيوان والتى تصبغ على الانسان صفته الانسانية . ان هناك حيوانات لها أعضاء حس مشابهة لتلك التى لدى الانسان ولكن ادراك الجمال الذى فى الصورة أو الصوت فى الفن أو فى الموسيقى صفة وملكة انسانية وهى من خلق المجتمع . والنشاط الجنسى أو عملية الأكل والشرب ليست بالنسبة للانسان مجرد اشباع بسيط لدوافع بيولوجية ولكنها تحولت خلال عملية تطور المجتمع الى تفاعل خلاق مع العالم الطبيعى والى أفعال يحصل منها الانسان على اشباعات متعددة . ان ظهور الحواس الخمس هو نتاج التاريخ السابق ولكن ليست الحواس الخمس فقط ولكن ما يسمى بالحواس الخلقية والحواس العملية (مثل الرغبة والحب . . . الخ) أى الاحساس الانسانى والطابع الانسانى للحياة هى التى يمكن أن تأتى فقط الى

الوجود عن طريق تواجد موضوعها أى من خلال الطبيعة التى اكتسبت
طابعاً إنسانياً •

وفى المجتمع البورجوازى يقترب الناس بأشكال محددة عن الروابط
بالمجتمع التى تصبغهم بصبغة الانسانية ، فأولاً يؤدى العمل المغترب
الى اغتراب حياة النوع عن الفرد ، وثانياً يجعل حياة الفرد هدفاً لحياة
النوع من شكلها المجرى والمغترب • ونجد فى الرأسمالية سواء فى
النظرية أو فى الممارسة أن حياة واحتياجات الفرد تبدو كما لو كانت
من معطيات عضويته فى المجتمع أى مفروضة عليه بشكل مستقل ونجد
هذه الفكرة معبراً عنها بوضوح فى الاقتصاد السياسى الذى يقيم نظريته
عن المجتمع على فكرة الفرد المنعزل الذى يسعى فقط الى الاشباع الذاتى •
والاقتصاد السياسى التقليدى بهذه الكيفية يجعل الملكية الخاصة جزءاً
من جوهر الانسان كما يقول ماركس • ولكن الفرد لا يصبح فقط منعزلاً
عن المجتمع ولكن ما هو اجتماعى يصبح خاضعاً لما هو فردى • فالطاقات
الانتاجية للمجتمع تستخدم فى حالة غالبية أفراد المجتمع الذين يعيشون
على حدود الكفاف من أجل تحقيق الحد الأدنى من الظروف اللازمة لبقاء
الكائن الحى على قيد الحياة ، ان جماهير العمال الذين يشتغلون بالأجر
يعيشون فى ظل ظروف بحكم نشاطهم الانتاجى فيها أكثر حاجات البقاء
الفيزيقي أولية وبدائية •

ولا يقتصر الاغتراب عن العوامل فحسب أو على طبقة البروليتاريا
ولكنه يمتد ليشمل كل المجتمع • والاغتراب يؤثر على كل مستويات
المجتمع ويشوه الوظائف الطبيعية للانسان • فالحواس التى هى المصادر
الأولى للحرية والسعادة ترد الى حاسة تملك واحدة • والحواس لا تنظر
الى موضوعاتها الا من زاوية امكان أو عدم امكان تملكها • بل ان اللذة
والمتعة ذاتها تتحولان من شروط ينمى الناس فى ظلها طبيعتهم الكلية بحرية
الى أحوال للتملك والاقتناء الأنانى (١٤) •

(١٤) انظر العقل والثورة مرجع سبق ذكره ص ٥٧٢ •

- والانتاج الرأسمالى بما فيه من اغتراب للعمل يدمر الانسان .
- فالانسان العامل لا يشعر بأنه يسلك بحرية الا حين يؤدى وظائفه الحيوانية كالأكل والشرب والتناسل أما فى وظائفه الانسانية فانه ليس الا حيوانا .
- فالحيوانى يصبح هو الانسانى والانسانى يصبح هو الحيوانى .

التشيؤ وفيتشية السلع :

يرتبط بمفهوم الاغتراب فى كتابات ماركس مفهوم آخر عالجه فى كتاب رأس المال هو مفهوم التشيؤ . والتشيؤ فى رأى ماركس هو العملية التى يحيل فيها المجتمع الرأسمالى كل العلاقات الشخصية بين الناس الى علاقات موضوعية أو لاشخصية بين أشياء .

ان النظام الرأسمالى يجعل العلاقات بين الناس فى المجتمع تتم من خلال السلع التى يتبادلونها . والذى يحدد المركز الاجتماعى للأفراد ومستوى معيشتهم ودرجة اشباع حاجتهم ومدى حريتهم هو فى الواقع قيمة السلع التى يملكها هؤلاء الأفراد أما الخصائص الشخصية للفرد وحاجاته الفردية فانها لاتدخل كثيرا فى الاعتبار فقد سبق أن ذكرنا أن الصفات الشخصية يمكن شراؤها بالمال فالشجاعة كما قال ماركس يمكن أن تشتري مهما كان الشخص جبانا والنبل يمكن أن يشتري مهما كان صاحبه خسيسا . وهكذا نجد أن أكثر صفات الانسان انسانية تصبح مرتبطة بالمال ، وكما نعظم فالمال هو البديل العام للسلع المتبادلة بين الناس والعلاقات بين بعضهم البعض علاقات بين ما يملكونه من سلع وبذلك تتحول العلاقات الاجتماعية بين الأفراد الى شىء أو بعبارة أخرى الى صفات للأشياء أو السلع ان أصل فيتشية السلع يرجع الى الطابع الاجتماعى الخاص بالعمل الذى ينتج هذه السلع (١٥) : وهكذا يقرر ماركس أن النظام الرأسمالى بما يتضمنه من اقتصاد السوق يحول العلاقات

(١٥) انظر للعقل والثورة ص ٢٧٣ .

كلمة فيتشية تعنى العبودية . وهكذا فان المقصود بفيتشية السلع هو عبودية الانسان للسلعة وتقديره الهائل لها بحيث تصبح ذات وزن متضخم فى حياته .

الاجتماعية الفعلية بين الناس الى علاقات آلية بين أشياء وبذلك تكون هذه العمليات التي تضمنها النظام الرأسمالي بمثابة سلب كامل لانسانية الانسان . ذلك أن تنظيم العمل وأسلوبه في هذا النظام يشوه كل القدرات الانسانية ويؤدي تراكم الثروة لدى القلة من أصحاب رؤس الأموال الى زيادة حدة الفقر عند الغالبية . كما يؤدي التقدم التكنولوجي الى سيطرة المادة الجامدة على العالم الانساني . ويجب أن نذكر هنا أن آراء كارل ماركس هذه عن التشيؤ وفيتشية السلع وعن التكوينات الاقتصادية الاجتماعية وعن اقتصاد السوق انما جاءت جميعها بعد نقد وتحليل للاقتصاد السياسي السائد في أوروبا في القرن التاسع عشر ونظريته التي اتهمها ماركس بأنها أغفلت تماما العنصر الانساني والاجتماعي في الاقتصاد وتعاملت مع هذا الاقتصاد كما لو كان شيئا جامدا خاليا من الحياة الانسانية . وفي ذلك يقول ماركس أن كل ظاهرة اقتصادية هي في نفس الوقت ودائما ظاهرة اجتماعية وأي نوع من الاقتصاد انما يتطلب وجوده أولا وجود نوع محدد من المجتمع . وعلى الرغم من تأكيد ماركس على الأهمية العظمى للعلاقات الاقتصادية المادية بين الناس وتقريره أنها تشكل أساس التطور الاجتماعي الا أنه رأى أن فهم عملية التطور الاجتماعي لا يمكن أن يتم اعتمادا على معرفة العوامل الاقتصادية فحسب . فبالإضافة الى النشاط الانتاجي الذي يمارسه الناس فان المجتمع له أيضا حياته الروحية . فالناس في أنشطتهم المختلفة يسترشدون بأفكار سياسية وخلقية . معينة ويكون لديهم نظريات علمية وآراء واتجاهات عن شتى الموضوعات وكل هذه الآراء والاتجاهات ذات طبيعة اجتماعية فيما يتعلق بأصلها وأهميتها وتنتمي الى ذلك المجال الذي أطلق عليه ماركس تسمية الوعي الاجتماعي وعلى ذلك فان الوعي الاجتماعي له أهمية كبيرة في التطور الاجتماعي .

الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي :

يقول ماركس في كتابه « اسهام في نقد الاقتصاد السياسي » :
يدخل الناس خلال عملية الانتاج الاجتماعي في علاقات محددة مع بعضهم البعض . وهذه العلاقات مستقلة عن إرادتهم . وتتفق هذه

العلاقات الانتاجية مع مرحلة التطور فى القوى المادية فى الانتاج لديهم .
ومجموع هذه العلاقات الانتاجية يشكل البناء الاقتصادى للمجتمع او
الاساس الحقيقى له الذى يبنى عليه الأبنية القوقية القانونية والسياسية
والذى تقابله أشكال محددة من الوعى الاجتماعى . ونمط الانتاج فى الحياة
المادية هو الذى يحدد الطابع العام للمعاملات الاجتماعية والسياسية
والروحية للحياة . فليس وعى الناس هو الذى يحدد وجودهم ولكن على
العكس من ذلك يحدد الوجود الاجتماعى للناس وعيهم .

ويتضح من ذلك أن ماركس على عكس الفلاسفة المثاليين وعلى عكس
الاتجاه المثالى فى علم الاجتماع المستمد من هذه الفلسفة مثل مؤلفات
أوجست كونت واميل دوركايم ، وماكس فيبر ومن تلاهم من علماء الاجتماع
المثاليين يبدأ بالتسليم بأن الأساس الاقتصادى المادى للمجتمع هو الذى
يتشكل بناء عليه الوعى الاجتماعى وأن القوى الأساسية المحركة للتاريخ
هى القوى الاقتصادية الاجتماعية وليست القوى الفكرية . وماركس يرى
أن علاقات الانتاج هى أساس الوعى الاجتماعى . والوعى الاجتماعى عند
ماركس يمكن تعريفه بأنه مجموع الأفكار والنظريات والآراء والمشاعر
الاجتماعية والعادات والتقاليد التى توجد لدى الناس والتى تعكس واقعهم
الموضوعى أى مجتمعهم الانسانى والطبيعة . وبما أن الوجود الاجتماعى
للناس يتصف بالتعقيد والتنوع ، فان الوعى الاجتماعى يتصف أيضا
بالتعقيد والتنوع . ويدل استعراض التاريخ الاجتماعى أنه مع تغير
الوجود الاجتماعى للناس يتغير أيضا وعيهم الاجتماعى فتتغير الأفكار
القديمة وتظهر بدلا منها أفكار جديدة تتفق مع الظروف الجديدة
والاحتياجات الاجتماعية الحديثة . ويمكن أن نلاحظ ذلك بما طرأ على
الأفكار والأيدىولوجيات فى المجتمعات الأوروبية بعد أن انتقلت هذه
المجتمعات من المرحلة الاقطاعية الى المرحلة الرأسمالية التى اتسمت
بنوعية جديدة من العلاقات الانتاجية . ان النظريات والفلسفات والآراء
القانونية والأخلاق والقيم والعادات والتقاليد التى ظهرت فى المجتمع
الرأسمالى على أنقاض المجتمع الاقطاعى انما تثبت صدق هذه المقولة لأنها
تختلف اختلافا كبيرا عن ذلك التى كانت سائدة فى العصر الاقطاعى .

وبالمثل يمكن القول أن الوعي الاجتماعي في المجتمعات الاشتراكية يختلف عنه في المجتمعات الرأسمالية ، فمع زوال الملكية الخاصة لوسائل الانتاج واستبدالها بالملكية العامة أو الجماعية ظهرت روح جديدة بين الناس وحلت الاتجاهات الجماعية محل الاتجاهات الفردية الانانية .

لقد أكد ماركس على أن الوجود الاجتماعي أى النشاط الانتاجى المادى للناس هو الذى يحدد وعيهم الاجتماعى . ولكنه أكد أيضا على أن الوعي الاجتماعى يتصف أيضا بخاصية الاستقلالية النسبية فى تطوره . فالوعي الاجتماعى قد يتخلف عن تطور الوجود الاجتماعى أو قد يسبقه وتتضح الاستقلالية النسبية للوعي الاجتماعى فى استمرارية التطور . فالوعي ليس فى علاقة سلبية مع الوجود ولكن الوعي يؤثر تأثيرا ايجابيا على الوجود الاجتماعى .

ويتخلف الوعي الاجتماعى عن الوجود الاجتماعى لأن الوجود الاجتماعى للناس هو الذى يتغير أولا ثم يتبعه بعد ذلك تغير فى وعيهم وتنجم هذه الهوة بين الوجود والوعي أيضا نتيجة لقوة الأفكار والآراء القديمة ، ذلك أن الطبقات الحاكمة تستخدم الأساليب المتاحة لها فى نشر أيديولوجيتها بين أعضاء المجتمع . والوعي الاجتماعى للناس لا يتخلف عن وجودهم الاجتماعى فحسب ولكنه فى ظل ظروف معينة يمكنه أن يسبق هذا التطور فى الوجود الاجتماعى ، فيمكن للأشخاص الذين يقومون بتحليل قوانين المجتمع ويكشفون عن الاتجاهات العامة للتطور التاريخى أن يتنبأوا بالمستقبل أو يخلقوا نظريات تسبق عصرهم وتوضح الطريق للتطور لسنوات كثيرة قادمة .

والاستمرارية فى التطور الأيديولوجى إنما هى دليل واضح على الاستقلال النسبى للوعي الاجتماعى . فالطبقة الجديدة أى التى تصل الى السيطرة على وسائل الانتاج فى المجتمع عندما تخلق أيديولوجيتها فانها لا تتخلى عن الانجازات السابقة للفكر الانسانى ولكنها تتمثل هذه الانجازات وتضعها فى خدمتها . والاستمرارية فى تطور الأفكار ذات أهمية عظيمة فى الحياة الاجتماعية . فاذا كان الناس عاجزين عن استخدام انجازات حضارة الماضى فانهم سوف يكونون مضطرين دائما

الى أن يبدأوا من نقطة الصفر والى أن يكتشفوا قوانين تم اكتشافها منذ زمن بعيد مضى . ولكن الطبقات المختلفة . تختلف فى نظرتها الى التراث الأيديولوجى . فالتبقات الرجعية تأخذ من الماضى الأفكار الرجعية وتكيفها بحيث تجعلها تتماشى مع الظروف التاريخية الجديدة ومع مصالحها . أما الطبقات الثورية فانها تأخذ من التراث الأيديولوجى ما لم يفقد دلالة الايجابية وما يمكن أن يساعد على التطور الانسانى .

وعلى الرغم من أن ماركس يعطى الأولوية العظمى فى تحليله للمجتمع للوجود الاجتماعى الا أنه رأى أن الوعى الاجتماعى يلعب دورا هاما وإيجابيا فى التطور الاجتماعى . فالأفكار التى توجد لدى الناس قد تساعد على تطور المجتمع أو قد تكون عائقا أمام هذا التطور . ولكن الدور الذى تلعبه هذه الأفكار يعتمد على الطبقة التى تتبناها أى ما اذا كانت هذه الطبقة تقدمية أو رجعية أو ما اذا كانت هذه الأفكار تعكس متطلبات الحياة المادية للمجتمع ومدى ارتباط هذه الأفكار بمصالح الجماهير . ولكن مهما كانت هذه الأفكار جديدة وتقدمية فانها لا تستطيع وحدها على الاطلاق تغيير النظام الاجتماعى القديم وخلق نظام جديد يحل محله ، ذلك أن هذه الأفكار لابد لكى تصبح قوة مادية من أن تكون متمثلة فى أذهان الناس فالناس الذين يتمثلون الأفكار التقدمية هم الذين يستطيعون جعل القوة الاجتماعية قادرة على حل المشكلات الاجتماعية الملحة .

تعليق عام :

تنص النظرية الماركسية عن المجتمع (السابذة التاريخية) على المسلمات الأساسية التالية :

١ - أن أساس الواقع الاجتماعى والحياة الاجتماعية مادية وليس فكريا ، وبالتالي فإن نقطة البدء فى تحليل المجتمع يجب أن تكون الأفراد الحقيقيين بلحمهم ودمهم ؛ وهؤلاء الأفراد كائنات حية حقيقية لها احتياجات فيزيقية حقيقية . ولكى يعيش هؤلاء الأفراد لابد أن يتفاعلوا مع الطبيعة وهذا التفاعل هو أساس عملية الحياة . والانسان لا يتفاعل مع الطبيعة تفاعلا سلبيا ولكنه يتفاعل معها تفاعلا ايجابيا بحيث ينتج من خلال عمله ما يحتاج اليه . والعملية الانتاجية ليست فقط عملية طبيعية ولكنها أيضا

اجتماعية ، حيث يضع الناس لأنفسهم نظاما تحدد علاقاتهم الاجتماعية فى العمل .

٢ - أن الانسان كائن قابل للتطور دائما وقادر على تغيير عالمه الطبيعى والاجتماعى .

٣ - أن التطور الاجتماعى يحدث نتيجة الصراع الدائم بين الانسان والطبيعة من جهة وبين المجموعات الاجتماعية المتصارعة فى المجتمعات التطبيقية من جهة أخرى .

٤ - أن المجتمع يكون فقط فى حالة ثبات نسبى ، ذلك أنه ما أن يظهر تكوين اجتماعى - اقتصادى جديد على انقراض تكوين سابق حتى تظهر فيه أيضا بذور فنائه ، وعلى الرغم من ثباته النسبى الا أنه تحدث فيه تغيرات كمية يؤدى تراكمها الى حدوث تغير كیفى فيه .

٥ - أن وظيفة العالم ليست فقط دراسة الظواهر الاجتماعية من أجل فهمها ولكنها أيضا تشمل الممارسة أو العمل من أجل تغييرها وفقا للقوانين الاجتماعية التى يكتشفها .

٦ - أن وحدة التحليل الأساسية ليست هى الفرد ولكن التكوين الاجتماعى الاقتصادى الذى تكون تاريخيا .

٧ - أن النظرية الاجتماعية يجب أن تضم القوانين العامة التى تحكم المجتمع الإنسانى فى تطوره والقوانين النوعية التى تحكم كل نمط من أنماط المجتمعات فى مرحلة تاريخية محددة والتى تحكم الظواهر النوعية .

٨ - المتغيرات التى يتم على أساسها تفسير الظواهر الاجتماعية هى المتغيرات الاقتصادية - الاجتماعية ذات الطبيعة التاريخية .
وتصور النظرية الماركسية عن المجتمع النظام الشيوعى على أنه النظام الأمثل للبشرية على عكس النظريات الاجتماعية الغربية التى تؤكد على أن النظام الأمثل هو الرأسمالية .

وتتنازع النظرية الماركسية بوضوح للطبقات العاملة وتؤكد أنها

صاحبة الحق فى السيطرة على المجتمع كما تدعو الى القضاء على الطبقية والعلاقات العدائية بين المجموعات عن طريق الغاء الملكية الخاصة بحيث ينتهى الصراع الطبقي فى نهاية الأمر وتسود الانسانية الحقيقية بين افراد المجتمع .

وقد قدم ماركس أدلة تاريخية على صدق نظريته واعتمد على الكثير من الأدلة من العلوم الأخرى .

وللنظرية طبيعة ثورية حيث تدعو الى العمل دائما على تغيير الواقع الاجتماعى وخلق أوضاع جديدة ومتطورة دائما .

ومنذ أن ظهرت النظرية الماركسية ، بل حتى منذ ظهرت بوادر الفكر الاشتراكى فى أوربا ، وهى تتعرض لنقد شديد ، وقد سبق أن ذكرنا أن بعض العلماء الاجتماعيين يرون أن علم الاجتماع الغربى الاكاديمى نشأ كرد فعل ضد الماركسية ونقد ونفى لها . وقراءتنا للنظريات السابق عرضها تشكل فى الواقع قراءة للنقد الموجه للماركسية . وسوف نرى أن الماركسية مازالت تتعرض للنقد الشديد فى كتابات علماء الاجتماع الغربيين التقليديين من جهة وأنها مازالت مصدرا للأفكار الراديكالية فى علم الاجتماع الغربى من جهة أخرى .

الباب الثالث

صياغات حديثة لسلامات قديمة

- الفصل التاسع : البنائية الوظيفية •
- الفصل العاشر : الظاهرانية (الفينومينولوجيا) •
- الفصل الحادى عشر : السلوكية الجمعية •
- الفصل الثانى عشر : الراديكالية •

الفصل التاسع

البنائية الوظيفية

يمكننا القول أن ما أصبح يعرف بالاتجاه البنائى الوظيفى فى النظرية الاجتماعية يمثل أكثر الاتجاهات رواجاً فى علم الاجتماع فى خلال الخمسين سنة الأخيرة فى كل من الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا . وخلال هذه السنوات الخمسين ظهرت مؤلفات عديدة حول هذا الاتجاه النظرى فى علم الاجتماع سواء منها ما تناولته بالشرح أو بالتعديل والاضافة أو النقد . وقد اعتبر هذا الاتجاه من المعالم الرئيسية لعلم الاجتماع الأكاديمى المعاصر .

ويميل كثير من علماء الاجتماع الذين يروجون لهذا الاتجاه الى اعتبار علم الأنثروبولوجيا هو المصدر الأساسى لذلك الاتجاه ، ويشيرون بصفة خاصة الى كتابات كل من رادكلف براون وماليزوفسكى .

الا أن هناك علماء اجتماع آخرين يرون أن هذا الميل من جانب علماء الاجتماع الوظيفيين الى الربط بين نشأة الاتجاه الوظيفى فى علم الاجتماع وبين الاتجاه الوظيفى فى الأنثروبولوجيا الثقافية إنما هو تشويه للحقيقة ومحاولة لاختفاء الطابع الأيديولوجى المحافظ لذلك الاتجاه (١) . فالواقع أن الاتجاه الوظيفى كما سنرى يعتمد تماماً على المسلمات الأساسية للاتجاه العضوى الذى كان سائداً فى النظريات الاجتماعية الأولى فى علم الاجتماع والذى تولى عنه علماء الاجتماع بعد ما أصبح هذا الاتجاه كما يقول مارتنديل سيئ السمعة وموصوما بوصمة الرجعية . والمسلمة الأساسية التى تعتمد عليها البنائية الوظيفية والتى تدور حول فكرة تكامل

(١) Don Martindale : Nature and Types of Sociological Theory opt. cit., p. 448 - 454.

الاجزاء فى كل واحد والاعتماد المتبادل بين العناصر المختلفة للمجتمع هى التى كانت تدور حولها فكرة الانفاق العام عند كونت وفكرة التكامل الذى يصحب التمايز عند سبنسر ونظرة باريتو للمجتمع على أنه فى حالة توازن .
كما أن نفس هذه المسئلة كانت موجودة فى أعمال أميل دوركايم (٢) .

والبنائية الوظيفية ليست فى واقع الأمر سوى صياغات جديدة لأفكار ومسلّمات قديمة تعود الى القرن التاسع عشر وترتبط بظهور ذلك الاتجاه القوي ذى الصبغة العلمية للدفاع عن النظام الرأسمالى وتبريره .
وعلى ذلك فإن المؤسسين الحقيقيين للوظيفية هم علماء الاجتماع الأوائل من الوضعيين العضويين وتعتمد الوظيفية بصفة أساسية على فكرة النسق العضوى Organic system التى اعتمدت عليها النظريات العضوية ، وهى الفكرة التى مؤداها أن كل شىء يمكن النظر اليه باعتباره نسقا أو كلا متكاملا يتكون من أجزاء مثل الكائن الحى . ويجدر بنا قبل أن نستطرد فى شرح العلاقة بين الوظيفية وبين الوضعية والأنثروبولوجيا الثقافية أن نحدد أولا الخصائص الأساسية للاتجاه الوظيفى فى النظرية الاجتماعية .

على الرغم من أن هناك عددا من علماء الاجتماع الذين ينتمون الى الاتجاه الذى يعرف باسم الوظيفية ، مثل رويت مرتون وجورج هوماتز وتالكوت بارسونز وماريون ليفى وروبرت بيلز وغيرهم ، وعلى الرغم مما يوجد من اختلافات بين هؤلاء العلماء إلا أنه يمكننا القول بصفة عامة أن الاتجاه الوظيفى يعتمد على ستة أفكار رئيسية أو مسلّمات محورية هى :

١ - يمكن النظر الى أى شىء سواء كان كائنا حيا أو اجتماعيا وسواء كان فردا أو مجموعة صغيرة أو تنظيما رسميا أو مجتمعا أو حتى العالم بأسره على أنه نسق أو نظام System . وهذا النسق يتألف من عدد من الأجزاء المترابطة ، فجسم الانسان نسق يتكون من مختلف الأعضاء والأجهزة ؛ والجهاز الدورى فيه مثلا عبارة عن نسق يتكون من مجموعة

من الأجزاء ، وشخصية الفرد نسق يتكون من أجزاء مختلفة مثل السلوك والحالة الانفعالية والعقلية ... الخ . وكذلك المجتمع والعالم .

٢ - لكل نسق احتياجات أساسية لابد من الوفاء بها وإلا فسان النسق سوف يفنى أو يتغير تغيراً جوهرياً . فالجسم الانسانى مثلاً يحتاج للأكسوجين والنتروجين وكل مجتمع يحتاج لأساليب لتنظيم السلوك (القانون) ومجموعة لرعاية الأطفال (الأسرة) وهكذا .

٣ - لابد أن يكون النسق دائماً فى حالة توازن Equilibrium ولكن يتحقق ذلك فلا بد أن تلبي أجزائه المختلفة احتياجاته . فإذا اختلفت وظيفة الجهاز الدورى فان الجسم سوف يعتل ويصبح فى حالة من الدائى اتزان Disequilibrium .

٤ - وكل جزء من أجزاء النسق قد يكون وظيفياً Functional أى يسهم فى تحقيق توازن النسق وقد يكون ضاراً وظيفياً Dys. Functional أى يقلل من توازن النسق وقد يكون غير وظيفى Non. Functional أى عديم القيمة بالنسبة للنسق .

٥ - يمكن تحقيق كل حاجة من حاجات النسق بواسطة عدة متغيرات أو بدائل ، فحاجة المجتمع لرعاية الأطفال مثلاً يمكن أن تقوم بها الأسرة أو دار الحضانة ، وحاجة المجموعة الى التماسك قد تتحقق عن طريق التمسك بالتقاليد أو عن طريق الشعور بالتهديد من عدو خارجى .

٦ - وحدة التحليل يجب أن تكون الأنشطة أو النماذج المتكررة فالتحليل الاجتماعى الوظيفى لا يحاول أن يشرح كيف ترمى أسرة معينة أطفالها ولكنه يهتم بكيفية تحقيق الأسرة كنظام لهذا الهدف .

وهدف الوظيفية أو التفسير الوظيفى هو الكشف عن كيفية اسهام أجزاء النسق فى تحقيق النسق ككل لاستمراره أو فى الاضرار بهـ

الاستمرارية فعلم الاجتماع الوظيفي قد يحاول الكشف عن دور وسائل الاتصال الجمعي في المجتمعات المركبة في تحقيق المجتمع لتوازنه ، وقد يحاول أن يكشف عن الجوانب السلبية للحرب أو الجريمة بالنسبة للمجتمع .

ولكى نوضح أكثر المقصود الوظيفي نأخذ كمثال تدلين كنجز لى ديفز وولبرت مور للتدرج الاجتماعي (أو التفاوت الطبقي) يقول المؤلفان أن التدرج الاجتماعي الذي هو عبارة عن ترتيب للمجموعات أو الأفراد في درجات أو رتب ذات مكانات مختلفة مثل الطبقات الاجتماعية أو الفئات المهنية شيء وظيفي بالنسبة للمجتمع ، أى أنه لابد أن يكون قائما باستمرار لأن هذا التدرج هو أساس شغل المراكز الهامة في المجتمع بأكثر الأشخاص كفاءة . ويعنى ديفز ومور بذلك أنه اذا كانت هناك مساواة بين الناس في أوضاعهم وفيما يحصلون عليه من مزايا فان المجتمع لن يستطيع المحافظة على حالته السوية . فالمراكز السياسية والاقتصادية الهامة ستظل خالية - أو ستشغل بأشخاص غير أكفاء مما سيؤدى الى اختلال المجتمع . ويفترض ديفز ومور أن عدد الأفراد الأكفاء والمؤهلين لشغل هذه المراكز محدود وأمثال هؤلاء الأفراد لابد أن يضحوا في البداية خلال عملية تدريبهم وبالتالي فانهم لابد أن يحصلوا على امتيازات كافية تشجعهم على تحمل فترة التدريب هذه . وعلى ذلك فان نظام التدرج يسهم في أداء المجتمع لوظائفه ، أى أنه يكون وظيفيا بالنسبة للمجتمع بوصفه نسقا .

ويرى عالم اجتماع آخر أن الأسرة تقوم بأشباع حاجات كل من الفرد والمجتمع أى أنها وظيفية بالنسبة للثنتين . فوظائف الأسرة بالنسبة للمجتمع هي :

- ١ - المحافظة على النوع .
- ٢ - تنظيم السلوك الجنسي .
- ٣ - تزويد الاطفال باحتياجاتهم الجسمية والاقتصادية والنفسية .
- ٤ - المحافظة على التراث الثقافى ونقله من جيل لآخر .

أما بالنسبة للفرد فأنها تؤدي له الوظائف الآتية :

- ١ - البقاء الفيزيقي .
- ٢ - الاشباع الجنسي .
- ٣ - الرعاية والحماية .
- ٤ - التنشئة الاجتماعية .
- ٥ - اكتسابه صفته الاجتماعية .

ويستند التحليل الوظيفي كما نرى وكما يؤكد دون مارتندال على التصور العضوي للمجتمع ، أى النظر للمجتمع بوصفه يشبه السكان الحي ، وبذلك تستمد الوظيفية مسلماتها الأساسية من الاتجاه العضوي الذي أسسه كونت ودوركاييم وغيرهما ، والذي اعتمد عليه علماء الأنثربولوجيا فى تحليلاتهم الوظيفية للمجتمعات البدائية (مثل رادكليف براون ، ومالينوفسكى) ثم ماليت تأثيرهم أن انتقل مرة أخرى الى علم الاجتماع .

وقد استخدمت كلمة وظيفة بعدة معان فى علم الاجتماع هى :

١ - الاسهام الذى يقدمه الجزء لكل قد يكون المجتمع أو الثقافة وهذا هو المعنى الذى استخدمهما به دوركاييم ورادكليف براون ومالينوفسكى .

٢ - الاسهام الذى تقدمه الجماعة الى أعضائها أو الاسهام الذى يقدمه المجتمع الكبير للجماعات الصغيرة التى يضمها .

٣ - تستخدم للإشارة الى دراسة الظواهرات الاجتماعية باعتبارها عمليات أو آثار لأبنية اجتماعية مثل أنساق القرابة أو الطبقة .

٤ - تستخدم بمعنى مناسب .

وأهم فكرة فى الوظيفية أن الوظائف أو الأجزاء ذات أهمية ثانوية

بالمقارنة بالنسق عند تحليل المجتمع (٤) .

ويختلف علماء الاجتماع الذين يتبنون الاتجاه الوظيفي في نوعية الأنساق التي يهتمون بملاحظتها فمنهم من يركز على تحليل أنساق صغيرة (كالمجموعات) ويمثل هذا الاتجاه كوزت ليفين ويعرف باسم وظيفية الوحدة الصغرى Micro functionalism ومنهم من يركز على تحليل أنساق كبيرة (كالمجتمع ويمثل هذا الاتجاه روبرت مرتون وتالكوت بارسونز وجورج هومانز . ولكن جميع الوظيفيين يشتركون في أن الخصائص التي يحللونها دائما خصائص معنوية أو سيكولوجية أو فكرية . أي أنهم مثاليون Idealist .

وسوف نعرض هنا باختصار لاثنتين من ممثلي الاتجاه الوظيفي وأشهرهم هما عالمي الاجتماع الأمريكي تالكوت بارسونز Talcott Parsons وروبرت مرتون Robert, Merton . تأثر تالكوت بارسونز فكريا بعالم الاجتماع الفرنسي اميل دوركايم . وعالم النفس النمساوي سيجموند فرويد ، والاطاللي صاحب نظرية الصفوة فلريدو باريتو وعالم الاجتماع الالماني ماكس فيبر ، وكذلك بعلماء الاقتصاد التقليديين .

وقد بدأ بارسونز كتاباته النظرية مسترشدا بماكس فيبر ، ويمكن تصنيف مؤلفاته الأولى تحت نظريات الفعل الاجتماعي السابق الحديث عنها .

ويرتكز الاطار النظري لبارسونز على أربع مفاهيم أساسية هي :

Social Action	الفعل الاجتماعي
Situation	- والموقف
Actor	- والفاعل
Actor's orientation	- وتوجيهات الفاعل

ويرى بارسونز أن كل فعل عبارة عن سلوك . ولكن كل سلوك ليس

(٤) John Rex : Key Problems of Sociological Theory. (Routledge and Kegan Paul, London, 1978) pp. 60 - 70.

فعلا . فاتجاه الفراشة نحو الضوء والذي يعتبر استجابة آلية من جانب ذلك الكائن لمنبه الضوء سلوكا وليس فعلا . أما اذا دخل عنصر ذاتي بين المنبه والاستجابة فان هذا السلوك يصبح فعلا . فانا تخيلنا أن الفراشة قالت لنفسها : « كم هذا الضوء جميل ، اننى أريد أن أكون قريبة منه ، ولذلك فاننى سأطير اليه مباشرة وبأسرع ما يمكن » ، غفى هذه الحالة يصبح السلوك فعلا (٥) .

وعلى ذلك فالذى يميز الفعل عن السلوك أساسا هو أن الفعل يتصف بعنصر اتخاذ القرار الذى يقع بين المنبه والاستجابة ، ووحدة التحليل هى الفاعل الذى قد يكون فردا أو مجموعة أو مجتمعا (٦) .

أما الموقف فانه قد يكون المسرح أو أى ظرف يكون الفاعل فيه مضطرا لاتخاذ قرار يختار بموجبه بين أدوار بديلة يقوم بها . والموقف يتضمن مجموعة متنوعة من المنبهات الممكنة ، وبصفة خاصة الموضوعات Objects ، سواء كانت هذه الموضوعات انسانية أو غير انسانية وكذلك مجموعة من المعايير Norms التى هى عبارة عن أنماط متوقعة من السلوك ، والقيم Values وهى عبارة عن تصورات لما هو مرغوب فيه ومهمة الباحث أن يحدد كيف ولماذا يستجيب الفاعل لمنبهات معينة دون غيرها .

وحيث يوجد الفاعل فى موقف ما ويكون عليه أن يقوم فيه بفعل معين فان هناك ما يحدد اختياره لنوعية ذلك الفعل وهذه المحددات هى ما أسماها بارسونز بالتوجيهات Orientations .

فحين تتعامل مع الآخرين فانه توجهنا عدة أشياء ، فلا بد أن نقرر ما اذا كان تعاملنا معهم سيكون على أساس علاقة انفعالية أو سيكون محايدا انفعاليا ، وبناء على ذلك نقرر ما اذا كنا سنتعامل معهم على أساس أنهم

(٥) Talcott Parsons : The Social System. (Glencoe, Ill. Free Press, 1951).

(٦) Calvin J. Larson : Major Themes in Sociological Theory (David McKay Company, New York, 1973) pp. 127 - 153.

شخصيات متكاملة أو على أساس جزئى ثانوى فحين ينتقى رجل ما زوجة له ، فانه يتعامل معها انفعاليا وعلى أساس انها شخصية متكاملة ، وحين ينتقى طبيا ليعالجه فانه يتعامل معه على أساس غير انفعالى وبالتالى ينظر اليه من جانب واحد هو كفاءته فى وظيفته (وقد أسمى بارسونز ذلك بالتوجيهات الادراكية الدافعة) .

كذلك يجب أن نختار بين أن نتصرف فى موقف ما على أساس المصلحة الذاتية أو على أساس مصلحة المجموعة (وأسمى ذلك بالتوجيهات التقويمية الدافعية) .

وقد ميز بارسونز بين ما أسماه بالتوجيهات الدافعية والتوجيهات القيمة وتشير التوجيهات الدافعية الى تلك الجوانب من توجيهات الفاعل نحو موقفه والتي ترتبط بالاشباع أو الحرمان الفعليين أو الممكنين لاحتياجات الفاعل (٧) .

وتوجد ثلاثة أنواع من التوجيهات الدافعية :

١ - التوجيهات المعرفية ، وتتضمن تحديد مكان الموضوع الذى نتعامل معه فى عالم موضوعات الفاعل وتحديد خصائصه ووظائفه الفعلية الممكنة وتمايظه عن غيره من الموضوعات .

٢ - التوجيهات الانفعالية وتتضمن مختلف العمليات التى يوزع بواسطتها الفاعل طاقته على مختلف الأعمال فيما يتعلق بمختلف الموضوعات ذات الدلالة الانفعالية فى محاولته زيادة الاشباع .

أما التوجيهات القيمة فتشير الى المعايير الثقافية أو الى تلك الجوانب من توجيهات الفاعل التى تجبره على أن يأخذ فى اعتباره امكانية تطبيق معايير معينة ومحكات اختيار حين يكون فى موقف يسمح له بأن يختار السلوك الذى يقوم به . وتنقسم هذه التوجيهات القيمة بدورها الى ثلاثة أنواع :

١ - التوجيهات المعرفية • وتتضمن الالتزام بمعايير معينة ثبت صدقها معرفيا •

٢ - التوجيهات التقديرية وتتضمن الالتزام بمعايير معينة ثبت بواسطتها ملاءمة أفعال معينة لموضوع ما انفعاليا •

٣ - التوجيهات الأخلاقية ، وتتضمن الالتزام بمعايير معينة تحددت صلاحيتها على أساس نتائج الأفعال بالنسبة للنسق الكلى (أى المجتمع) •

ويرى بارسونز أن التوجيهات القيمة تمثل تأثير التوقعات الاجتماعية على تعريف الشخص للموقف • فالقيم الاجتماعية - أى التوقعات التى يشترك فيها الناس فيما يتعلق بأنسب الوسائل لتحقيق الغايات المرجوة تؤثر على الجانب المعرفى عند الفرد من حيث أنها تحدد له مدى الموضوعات التى يدركها وأسلوب الاستجابة لها • كما أنها تؤثر على الفرد من حيث أنها تحدد له القيمة النسبية للموضوعات المختلفة ، وكذلك من حيث أنها تفرض عليه شعورا بالمسئولية عن أفعاله على أساس آثارها السلبية والايجابية على المجتمع •

وهذه العناصر المختلفة التى بدأ بارسونز يدرسها (أى الفاعل والفعل والموقف والتوجيهات) ارتكز عليها فيما بعد عند محاولته تكوين نظرية بنائية وظيفية عن المجتمع ، وهى التى يرى أن أى نسق يتكون منها فهى تدخل فى تكوين ثلاثة أنواع من الانساق : النسق الاجتماعى ، ونسق الشخصية ، والنسق الثقافى •

ويعرف بارسونز النسق الاجتماعى عدة تعريفات أوضحها ذلك الذى يقول : « والنسق الاجتماعى عبارة عن فاعلين أو أكثر يحتل كل منهم مركزا أو مكانة متميزة عن الأخرى ويؤدى دورا متميزا ، فهو عبارة عن نمط منظم بحكم علاقات الأعضاء ويصف حقوقهم وواجباتهم تجاه بعضهم البعض ، واطار من المعايير أو القيم المشتركة بالاضافة الى أنماط مختلفة من الرموز والموضوعات الثقافية » •

ويعرف بارسونز الدور بأنه سلوك الفاعل فى علاقته مع آخرين

إذا ما نظرنا الى هذا السلوك فى سياق أهميته الوظيفية للنسق الاجتماعى،
أما المكانة فتشير الى موقع الفاعل فى نسق علاقة اجتماعية معينة .

وعندما يتكون نمط ثابت نسبيا من الأدوار يسمى ذلك ببناء
Structure أما النمط الثابت من علاقات الأدوار فيسمى نظاما
Institution .

أما النسق الثقافى فيرى بارسونز أنه نتاج لأنساق التفاعل
الاجتماعى من ناحية ومحددا لهذا التفاعل من ناحية أخرى ، وقد ميز
بارسونز بين ثلاثة أنماط من الأنساق الثقافية :

- ١ - أنساق الأفكار أو المعتقدات .
- ٢ - أنساق الرموز التعبيرية مثل الفن
- ٣ - أنساق التوجيهات القيمية .

ويرى بارسونز أن الأنساق الاجتماعية تتصف بخاصتين أساسيتين
هما :

أولا : ميل مكونات النسق الى الحفاظ على درجة عالية من التكامل
على الرغم من الضغوط البيئية .

ثانيا : ميل الى التوازن أى الى استمرارية مكونات النسق فى أداء
وظائفها .

كما يرى بارسونز أن النسق الاجتماعى عليه أن يواجه أربع مشكلات
أساسية لكي يستمر فى البقاء :

- ١ - مشكلة التكيف . Adaptation
- ٢ - مشكلة تحقيق الهدف . Goal attainment
- ٣ - مشكلة التكامل . Integration
- ٤ - مشكلة خفض التوتر . Tension-Manegement

فأى نسق لابد أن يتكيف مع البيئة الفيزيقية ويهيء الوسائل

الاقتصادية الضرورية لحياة أعضائه ، ولكي يحقق النسق أهدافه لابد له من صورة ما من التنظيم السياسى (أى تركيز القوة) ولابد من حماية النسق لنفسه من التحلل والتفكك وذلك عن طريق وضع مجموعة من القوانين والتنظيمات وإقامة جهاز شرطى يعمل على تنفيذها (التكامل) كما لابد له من تدريب الأعضاء الجدد عن طريق الضبط الاجتماعى على المشاركة فى نشاطات المجموعة تبعا للأساليب المحددة بها .

ويشير بارسونز الى المجتمع الانسانى ككل بوصفه نسقا يتكون من مجموعة من الانساق (المجتمعات) التى يشكل كل منها نسقا مستقلا نسبيا ولكنها جميعا تشكل سويا نسق المجتمع الانسانى .

روبرت ميرتون :

على الرغم من الاختلافات بين تالكوت بارسونز وروبرت ميرتون فى تفاصيل النظرية التى حاول كل منهما ، وبالرغم من الانتقادات التى وجهها كل منهما للآخر ومن التعديلات التى اقترح ميرتون ادخالها على الوظيفية الا أن كليهما يبدأ من نفس المسلمات النظرية والأيدىولوجية التى يبدأ بها كل أصحاب الاتجاه الوظيفى وأصحاب الاتجاه العضوى من قبلهم . وأهم هذه المسلمات أن البناء الاجتماعى فى حالة ثبات وأن هناك تكاملا بين عناصر هذا البناء وأن هناك اجماعا عاما بين أعضاء المجتمع على قيم معينة وأن هناك توازنا يجب الا يصيبه الخلل فى البناء الاجتماعى .

لقد بدأ ميرتون ، الذى كان تلميذا لتالكوت بارسونز ، بنقد بارسونز على أساس أن أعماله تمثل جهدا غير ناضج لمحاولة تكوين نظرية اجتماعية عامة ولكنه لم يمس فى كتاباته المسلمات الرئيسية التى ارتكزت عليها أعمال بارسونز أو غيره من الوظيفيين ، ذلك هو أنه ذاته سلم بها تماما ، وبدلا من ذلك ركز جهده على نقد تفاصيل هذه الأعمال أو الفروض الجزئية التى تحتوى عليها .

ورأى ميرتون أن النظرية فى علم الاجتماع يجب أن تكون « متوسطة المدى Middle range » . وعرف النظرية متوسطة المدى بأنها تلك « التى تقع بين طرفين : الطرف الاول يتمثل فى مجموعة الافتراضات العملية

البسيطة التى نقابلها عند اجراء البحوث الميدانية والطرف الثانى يتمثل فى النظريات الشاملة الموحدة التى تسعى الى تفسير كل ملاحظة عن انتظام فى السلوك الاجتماعى والتنظيم الاجتماعى (٨) .

بعبارة أخرى نستطيع القول أن ميرتون يقترح مستوى للنظرية الاجتماعية أعلى قليلا من مستوى الفروض التى تعتمد عليها البحوث الامبيريقية والتى لا تتضمن قدرا يذكر من التجريد ، ولكنه أقل من مستوى النظريات الكبرى Grand Theories التى تتضمن قدرا كبيرا من التجريد ، وبرر ميرتون دعوته الى هذا المستوى المتوسط من التجريد بأنه يسمح باخضاع ما يتضمنه من قضايا للاختبار الامبيريقى نظرا لقرب هذا القضايا من الوقائع الملموسة .

وعلى ذلك فإن النظرية متوسطة المدى تتناول أساسا جوانب معينة من الظواهر الاجتماعية ، وليست الظواهرات فى عموميتها ، فيمكن مثلا أن تكون لدينا نظرية عن الجماعات المرجعية ونظرية عن الحراك الاجتماعى ونظرية عن صراع الأدوار ونظرية عن تكون القيم ... الخ .

وبعد أن تصبح لدينا هذه النظريات المتعددة ذات المدى المتوسط يمكننا فى المستقبل أن نصوغ منها نظرية عامة موحدة ، ولكن الوقت لم يحن بعد لتكوين مثل هذه النظرية الموحدة .

وقد حدد ميرتون مجموعة من الوحدات التى يجب أن تمثل بؤرة لاهتمام التحليل فى النظرية الاجتماعية متوسطة المدى مثل : الأدوار الاجتماعية ، العمليات الاجتماعية ، الأنماط الثقافية ، الانفعالات المحددة ثقافيا ، المعايير الاجتماعية ، تنظيم الجماعة ، البناء الاجتماعى ، وأساليب الضبط الاجتماعى ... الخ .

وبذلك جعل بؤرة اهتمام النظرية الاجتماعية ما أسماه « بالعناصر الثقافية المقننة Standardised Cultural items » (٩) .

(٨) Robert Merton, Social Theory and Social Structure. (New York : Free Press, 1949) p. 39.

(٩) Calvin Larson, Major Themes in Sociological Theory (New York : David Mckay Company, 1967), p. 137.

وقد استمد ميرتون مسلماته الأساسية عن الوظيفية من علماء الأنثروبولوجيا وبخاصة رادكليف براون ومالينوفسكى وكلايد كلاكهون .
وصاغ نظرية الوظيفية في أهم مؤلفاته : النظرية الاجتماعية والبناء الاجتماعي Social Theory and Social Structure الذي نشر عام ١٩٤٩ .
وقد استخدم ميرتون كلمة وظيفة بمعنى « الاجراءات البيولوجية او الاجتماعية التي تساعد على الابقاء على النسق وعلى تكيفه أو توافقه وهذه الاجراءات قابلة للملاحظة (١٠) فمثلا اذا نظرنا الى الجسم بوصفه نسقا بيولوجيا فان ضخ الدم يكون اجراء بيولوجيا يقوم به القلب للمحافظة على بقاء الجسم وبذلك يكون وظيفة القلب ، واذا نظرنا للمجتمع على انه نسق اجتماعي فان المحافظة على النظام تكون اجراء اجتماعيا تساعد على بقاء المجتمع ويكون وظيفة للحكومة وهكذا (١١) .

والوظيفة بهذا المعنى لها مؤشرات موضوعية قابلة للملاحظة ، لا يجب الخلط بينها وبين الأهداف أو الأغراض أو الدوافع . فهدف الزواج أو الدافع اليه مثلا يختلف عن وظيفة الزواج . والأسباب التي يقدمها الناس تفسيراً لسلوكهم تختلف عن نتائج هذا السلوك بالنسبة للنسق الاجتماعي - تلك النتائج التي يمكن ملاحظتها .

وقد انتقد ميرتون غيره من أصحاب الاتجاه الوظيفي ، وبخاصة رادكليف براون ومالينوفسكى على أساس أن الافتراضات التي تركز عليها نظرياتهم شديدة العمومية وغير محددة ، فهؤلاء العلماء قد افترضوا أن الأنشطة الاجتماعية المقننة أو العناصر الثقافية وظيفية بالنسبة للمجتمع بأسره وأن جميع هذه العناصر الثقافية والاجتماعية تؤدي وظائف اجتماعية وأن هذه العناصر لا يمكن للمجتمع الاستغناء عنها .

ورأى ميرتون أن هذه الافتراضات غير صحيحة ولذلك فإنه أقام نظريته على ثلاث فروض أساسية بديلة هي :

(١٠) لم يحدد ميرتون بوضوح ما الذي يعنيه بتكيف أو توافق ، ولكن يبدو أنه يعنى تكيف للنسق لمجموعة من الاحتياجات التي يتطلبها بقاؤه ، إلا أن هذه الاحتياجات لا يمكن بالطبع تحديدها موضوعياً . انظر في ذلك :

John Rex. Key Problems of Sociological Theory London : (١١) " Routledge of Kegan Paul, 1967) p. 73 - 76.

١ - العناصر الاجتماعية أو الثقافية قد تكون وظيفية بالنسبة لمجموعات معينة وغير وظيفية Non functional بالنسبة لمجموعات غيرها وضارة وظيفيا dysfunctional بالنسبة لمجموعات أخرى . وعلى ذلك فلا بد من تعديل فكرة أن أى عنصر اجتماعى أو ثقافى يكون وظيفيا بالنسبة للمجتمع بأسره .

٢ - أن نفس العنصر قد تكون له وظائف متعددة ونفس الوظيفة يمكن تحقيقها بواسطة عناصر مختلفة ، مثال الملابس التى يمكن أن تؤدي عدة وظائف مختلفة ، فهي قد تساعد على الوقاية من الطقس أو تكسب الفرد مكانة اجتماعية معينة أو يكون لها دور فى تحديد مدى جاذبيته الشخصية . ومعنى ذلك أن هناك تنوعا فى الوسائل التى يمكن أن تحقق هدفا وظيفيا معينة . وقد استخدم ميرتون لذلك مفهوم البدائل الوظيفية Functional alternatives .

٣ - يجب أن يحدد التحليل الوظيفى الوحدات الاجتماعية التى تخدمها العناصر الاجتماعية أو الثقافية . ذلك أن بعض العناصر قد تكون ذات وظائف متعددة ، وقد تكون بعض نتائجها ضارة وظيفيا .

ويرى دون مارتنديل أن ميرتون قد أضاف الى التحليل الوظيفى اضافتين رئيسيتين هما :

أولا : أنه قدم مفهوم المعوقات الوظيفية أو الأضرار الوظيفية dysfunction والذي يعنى به تلك النتائج القابلة للملاحظة والتى تقلل من تكيف النسق أو توافقه (١٢) ، وإن كان أميل دوركايم وراى دكليف براون قد أشارا الى ذلك بصورة أو بأخرى فى أعمالهما (١٣) .

ثانيا : أنه ميز بين نوعين من الوظيفة الظاهرة manifest function والوظيفة الكامنة Latent function . ويقصد ميرتون بالوظيفة الظاهرة

(١٢) مثال ذلك عنصر ثقافى مثل الاعتقاد فى السحر كوسيلة للشفاء من الأمراض . هذا العنصر يكون معوقا وظيفيا لأداء المؤسسات الطبية لوظائفها .
(١٣) استخدم دوركايم للامعيارية anomie بدلا من المعوقات الوظيفية ، واستخدم براون مفهوم المرض الاجتماعى dysnomia .

النتائج الموضوعية التي يمكن ملاحظتها والتي تسهم في الحفاظ على النسق والتي يقصدها المشاركون في النشاط . أما الوظيفة الكامنة فهي التي لم تكن مقصودة أو متوقعة (١٤) . مثال ذلك دور الدين في تحقيق التكامل الاجتماعي هذا الدور مثلما قرر دوركايم لم يكن مقصودا ، وعلى ذلك فإن التكامل الاجتماعي يعتبر في هذه الحالة وظيفة كامنة للدين .

وأما إذا استخدم الدين عن قصد بواسطة الطبقة الحاكمة لتخدير الطبقات المحكومة واخضاعها للنظام ، مثلما قرر ماركس ، فإن هذه النتائج تكون وظيفة ظاهرة للدين (١٥) .

وجدير بالذكر أن ميرتون لم يستحدث مفهومي الوظيفة الظاهرة والوظيفة الكامنة ، ولكنه استعار هذين المفهومين من سيمجوند فرويد الذي استخدمهما في التمييز بين المحتوى الظاهر (أى الشعورى) والمحتوى الكامن (أى اللاشعورى) للحلم ، مما يدل على تركيز ميرتون على الجوانب النفسية .

ويرى مارتنديل أن أهم نماذج التحليل الوظيفي عند روبرت مرتون تتمثل في دراسته عن البناء الاجتماعي واللامعيارية (١٦) ، ففي هذه الدراسة (١٧) طبق مرتون نظريته الوظيفية في تحليل المصادر الاجتماعية والثقافية للسلوك المنحرف . وكان هدف ميرتون من هذه الدراسة أن يبين كيف يمارس البناء الاجتماعي ضغوطا محددة على أشخاص معينين في المجتمع لممارسة سلوك غير امثالى بدلا من ممارستهم لسلوك امثالى ، وقد بدأ ميرتون بالتسليم بأن الأبنية الاجتماعية والثقافية تصوغ صفة المشروعية على أهداف معينة وعلاوة على ذلك تحدد أساليب معينة مقبولة لتحقيق هذه الأهداف . أى أن ميرتون قد ميز بين عنصرين رئيسيين فيما أسماه بالبناء الثقافى للمجتمع : الأهداف المحددة ثقافيا من جهة ، والأساليب النظامية لتحقيق هذه الأهداف من جهة أخرى .

-
- Don Martindale : The Nature and Types of Sociological Theory (London : Routledge and Kegan Paul, 1967) pp. 373-474. (١٤)
- Theodore Abel : The Foundation of Sociological Theory (New York : Random House. 1970). p. 171. (١٥)
- Don Martindale : Op. cit., p. 475. (١٦)
- Robert Merton : Op. cit., pp. 125 - 149. (١٧)

وفى المجتمع جيد التكامل نجد تكاملا وتناغما بين الأهداف والأساليب ، فكل من الأهداف والأساليب نجد تقبلا من أفراد المجتمع ككل كما أنها تكون ميسورة لهم جميعا . ويحدث اللاتكامل فى المجتمع عندما يكون هناك تأكيد على أحد الجانبين بدرجة لا تتناسب مع التأكيد على الجانب الآخر ، وهذا ما يحدث فى المجتمع الأمريكى . فهناك فى هذا المجتمع تأكيد على أهداف معينة ، مثل النجاح الفردى وجمع النقود وارتقاء السلم الاجتماعى دون تأكيد مماثل على الأساليب النظامية لتحقيق هذه الأهداف . فأساليب تحقيق هذه الأهداف غير متاحة للجميع فى المجتمع .

وقد نشأ عن ذلك حالة من اللامعيارية فى المجتمع . ذلك أنه لابد من أن تكون هناك درجة من التناسب بين هدف تحقيق النجاح وبين الفرص المشروعة للنجاح بحيث يحصل الأفراد على الأشباع الضرورى الذى يساعد على تحقيق النسق الاجتماعى لوظائفه ، فإذا لم يتحقق ذلك فإن الوظيفة الاجتماعية تصاب بالخلل ويحدث ما أسماه بالمعوقات الوظيفية dysfunctions

وقد قدم ميرتون تصنيفا لأنماط استجابات الأفراد أو تكيفهم لذلك التفاوت أو الانفصام بين الأهداف المرغوبة والحددة ثقافيا (أى النجاح) وبين الأساليب المتاحة لتحقيق هذه الأهداف . وقرر أن هناك خمس أنماط لتكيف الأفراد فى المجتمع ، أول هذه الأنماط وظيفى ، أى يساعد على بقاء النسق الاجتماعى . والأربعة الآخرين ضارين وظيفيا (أو أنماط تكيف منحرفة) أى يهددون بقاء هذا النسق . وهذا الأنماط الخمسة هى :

أولا : نمط الامتثال Conformity :

ويحدث هذا النمط من التكيف حين يتقبل الأفراد الأهداف الثقافية ويمثلون لها وفى نفس الوقت يتقبلون الأساليب التى يحددها النظام الاجتماعى بوصفها أساليب مشروعة لتحقيق هذه الأهداف . مثال ذلك تقبل الأفراد لهدف تحقيق النجاح والحصول على دخل مرتفع وتقبلهم لاستكمال تعليمهم كأسلوب لتحقيق ذلك الهدف فإذا كانت فرصة التعليم متاحة لكل أو غالبية أفراد المجتمع فإن حالة من الثبات أو التكامل سوف

تسود المجتمع لأن غالبية الناس سوف تتقبل الأهداف وأساليب تحقيقها في نفس الوقت أما إذا كان بالمجتمع تأكيد على الأهداف فقط دون إتاحة الأساليب اللازمة لتحقيقها لكل الناس فإن أحد الأنماط الأربعة الآتية من التكيف الانحرافى • يمكن أن يحدث •

٢ - نمط الابتداع Innovation :

يرى ميرتون أن هذا النمط من التكيف هو أهم أنماط التكيف الانحرافى فى المجتمع الأمريكى • ويعنى به أن نسبة كبيرة من الناس فى المجتمع تتقبل أهداف النجاح التى تؤكد عليها الثقافة الأمريكية ولكنها تجد فرص تحقيق هذه الأهداف موصدة أمامها لأن توزيع هذه الفرص غير متكافئ • وفى هذه الحالة يرفضون الأساليب المشروعة لتحقيق النجاح (مثل التعليم ويبتدعون أساليب غير مشروعة لتحقيق هذا الهدف • ويسود هذا النوع من التكيف لدى الطبقة العاملة •

٣ - نمط الطقوسية Ritualism :

يتمثل هذا النمط من التكيف فى التخلي عن الأهداف الثقافية للنجاح الفردى وتحقيق الثروة وصعود السلم الاجتماعى أو التقليل من مستوى طموح الفرد حتى يصل الى درجة منخفضة يمكن معها اشباع هذا الطموح ، وفى نفس الوقت يظل الفرد ملتزماً بطريقة شبه قهرية بالأساليب المشروعة لتحقيق الأهداف على الرغم من أنها لا تحقق له شيئاً يذكر • ويسود هذا النوع من التكيف لدى الطبقة الوسطى الدنيا ، مثل صغار الموظفين البيروقراطيين فى الشركات والمصالح الحكومية • ويفسر ميرتون وجود هذا النمط من التكيف بأنه يرجع الى أسلوب التنشئة الاجتماعية الصارم السائد فى هذه الطبقة والى الفرص المحددة للتقدم المتاحة لأعضاء هذه الطبقة •

٤ - الانسحابية Retreatism :

وهو من أقل الأنماط شيوعاً فى المجتمع الأمريكى • والفرد الذى يلجأ الى هذا النمط الانسحابى يعيش فى المجتمع ، ولكنه لا يكون جزءاً منه بمعنى أنه لا يشارك فى الانتماءات الجماعية على القيم المجتمعية • والانسحابى يتخلى عن كل من الأهداف والأساليب التى يحددها النسق

ومن أمثلة هذا النمط من التكيف الانحرافى حالات الجنون والتشرد وادمان الخمر وادمان المخدرات • ويرى ميرتون أن هذا النوع من الأفراد لا يقبل الأساليب الإبداعية (أى غير المشروعة) لتحقيق الأهداف وفى نفس الوقت لا تتاح له الفرصة لاستخدام الأساليب المشروعة لتحقيقها ولا يكون أمامه من مفر سوى أن ينسحب من المجتمع الى عالمه الخاص (الجنون أو السكر أو الأوهام) • وهكذا يحل هذا الفرد الصراع النفسى عن طريق الهروب الكامل من المجتمع •

٥ - نمط التمرد Rebellion :

يتسم هذا النمط من التكيف بآدانة (وليس مجرد رفض كما هو الحال فى النمط السابق) كل من الأهداف الثقافية للنجاح والالتزام بالأساليب النظامية لتحقيقها • أى اذا كان النمط السابق يتسم برفض الأهداف والأساليب رفضا سلبيا والهروب من المجتمع فان هذا النمط يتسم بالرفض الإيجابى والسعى الى استبدال البناء الاجتماعى القائم ببناء آخر يضم معايير ثقافية مختلفة للنجاح وفرصا أخرى لتحقيقه •

جدول يوضح أنماط التكيف الخمسة

نمط التكيف	الأهداف الثقافية	الأساليب
١ - الامتثال	+	+
٢ - الابتداع	+	+
٣ - الطقوسية	-	+
٤ - الانسحابية	-	-
٥ - التمرد	+	+
	-	-

من العرض السابق لأهم اسهامات ميرتون يتضح لنا أنه يركز على نفس المسلمات الأساسية التى يركز عليها غيره من الوظيفيين وان كان يختلف عنهم فى بعض الافتراضات الثانوية • فهو يسلم دون ما جدال بأن أساس البناء الاجتماعى هو القيم والمعايير السلوكية ، سواء اتخذت شكل أهداف محددة ثقافيا أو اتخذت شكل أساليب نظامية لتحقيق الأهداف •

كما أنه استبعد التاريخي في تحليله الاجتماعي ، ودعا أيضا الى التحليل الجزئي للظواهر الاجتماعية باستخدام النظريات متوسطة المدى بدلا من التحليل الشمولي للمجتمع . كما أنه أغفل المتغيرات المادية في تفسيره لمنشأ التفاوت بين درجة التأكيد على أهداف النجاح في المجتمع الرأسمالي من جهة ودرجة التأكيد على أساليب تحقيق هذه الأهداف من جهة أخرى (١٨) .

ويعلق ايان تابلور وزملاؤه (١٩) على اغفال ميرتون الاهتمام بنمط التكيف الامتثالي بقولهم أن ذلك لا يدعو الى الدهشة . فبغض النظر عن حقيقة صعوبة تحديد أمثلة واقعية للأشخاص الممثلين في المجتمع الأمريكي ، لأن أى شخص يمثل لأهداف ذلك المجتمع لابد أن يكون بالضرورة أيضا ابداعيا لأنه سيفتش دائما عن أساليب جديدة لتحقيق النجاح ، فإن البحث عن مصادر الامتثال كان سيوقع مرتون في مشكلة عويصة - وهي مشكلة بحث مشروعية السلطة في المجتمع الأمريكي .

كما أن ذلك كان من شأنه أيضا أن يضطره الى مواجهة حقيقة اجتماعية خطيرة تتمثل في أن عدد الأشخاص الممثلين في المجتمع الأمريكي قليل جدا حتى بين أولئك الذين لا توصل أمامهم فرص تحقيق النجاح بحكم المراكز الاجتماعية التي يشغلونها ولكي يفسر مرتون ذلك كان سيضطر الى الخوض في مسائل أعمق من مجرد نقده السطحي لحالة اللامعيارية في المجتمع الأمريكي ، أى أنه كان سيضطر الى الخوض في المسائل السياسية والاقتصادية التي يرغب أساسا في تجنبها .

الا أن ميرتون كان الى حد ما ناقدا للمجتمع الأمريكي ويختلف عن بارسونز وغيره من الوظيفيين في أنه لم يتبن بشكل مطلق فكرة وجود الاتفاق الجمعي في المجتمع ، وهو يقول في ذلك :

« يميل الأشخاص الذين يشغلون مراكز مختلفة في البناء الاجتماعي

(١٨) سمير نعيم أحمد : الدراسة الطمية للسلوك الاجرامى (للقاهرة - مكتبة سعيد رافت - ١٩٦٩) ص ٢٢٤ - ٢٢٨ .

(١٩) Ian Taylor, Paul Walton and Jock Young . The New Criminology, for a. Social theory of deviance (London: Routledge, 1973) pp. 32 - 110.

الى أن تكون لهم مصالح وقيم متميزة (مثلما يشتركون مع غيرهم في بعض المصالح والقيم) . ونتيجة لذلك ، فإن المعايير الاجتماعية ليست كلها موزعة بالتساوى بين المراكز الاجتماعية المختلفة . ويتبع ذلك منطقيا كما يتأكد بالأدلة أنه كلما كانت هذه المعايير مختلفة لدى المجتمعات والمراكز الاجتماعية في المجتمع كلما وجدنا أن كل مجموعة سوف تنظر الى نفس الظروف نظرة غيرها من المجموعات . فما قد تعتبره مجموعة ما مشكلة قد تعتبره مجموعة أخرى ميزة (٢٠) .

لقد أدرك ميرتون وجود تناقضات في النسق الاجتماعي الأمريكي ، ولكن التناقضات التي أبرزها ليست ذات طابع مادي وهي جزء من طبيعة النسق حسب رأيه ، فهناك عدم تكافؤ في الفرص المتاحة للمجموعات المختلفة لتحقيق أهداف النجاح في المجتمع الأمريكي ، ولكن عدم التكافؤ هذا يرجع رأيه الى العناصر الكامنة في الثقافة الأمريكية ! ، وهكذا لا يقدم مرتون أي تفسير بنائي لوجود عدم التكافؤ في الفرص في المجتمع أو لوجود مثل هذا المناخ الثقافي والأخلاقي . وهكذا يشبه مرتون من يفسر الانحلال الخلقي للناس في فترة ما بتخليهم عن التمسك بالمبادئ الأخلاقية ، أي أنه يفسر ما هو ثقافي بما هو ثقافي ، وليس ذلك بتفسير بالطبع .

وقد استعان ايان تايلور بمثال أورده زميل له هو لوري تايلور (٢١) في نقده لنظرية ميرتون حيث قال :

« يبدو تصوير ميرتون للنسق الاجتماعي وأنماط التكيف كما لو كان كل الأفراد في المجتمع يلعبون القمار على آلة قمار ضخمة هائلة من التي توضح فيها العملة فتدور ثم تقف لتقف بالنقود للرابح ، ولكن هذه الآلة بها نوع من التلاعب بحيث يربح بعض اللاعبين فقط دائما بينما يخسر الآخرون أما الى استخدام عملات زائفة أو قطعاً معدنية ممغنطة لزيادة فرصهم في الربح (المبدعون) أو الى الاستمرار في اللعب ولكن دون

Robert Merton. op. cit., p. 785.

(٢٠)

Laurie Taylor : Deviance and Society (London : Michel

(٢١)

Joseph 1971). p.148.

حماس وبأقل قدر ممكن (الطفرسيون) أو الى الانسحاب تماما من اللعب (الانسحابيون) أو اقتراح لعبة أخرى جديدة تماما (المتمردون) . ولكن لا يبدو أن أحدا منهم قد توقف لحظة ليسأل من الذى وضع هذه الآلة هنا منذ البداية ومن الذى يحصل على الأرباح ؟

وتقتصر محاولات الناقدين على محاولة تغيير النتائج بحيث يحصلون على حظ أفضل قليلا . وهكذا فإن ما يبدو للموهلة الأولى على أنه نقد جوهرى من جانب ميرتون للمجتمع ينتهى الى التسليم بالمجتمع القائم على ما هو عليه . ان ضرورة النظر الى التشكيلات البنائية الثقافية من خارجها ليس مهمة النمط المتمرد فحسب ولكنه أيضا مهمة عالم الاجتماع .

وبذلك يقتصر ميرتون على وصف المجتمع ونقد بعض جوانبه الثقافية دون أن يمس جوهر العلاقات الاجتماعية فيه ، وبذلك يقف عند حدود الدعوة الاصلاحية الجزئية لنتائج اللعبة دون أن يصل الى حد الدعوة الى تغيير قواعد اللعبة ذاتها ، اى الى احداث تغيير جذرى فى المجتمع .

ويستطرد تايلون وزملاؤه فى نقد ميرتون قائلين ان التناقض بين الأهداف الثقافية وبين عدم تكافؤ الفرص لتحقيق هذه الأهداف ليس فقط مشكلة ثقافية يمكن حلها عن طريق تحديد نسق ملائم ووظيفى من القيم ، وهو لا يوجد فقط فى مجال الأفكار بل ان أساسه الحقيقى هو التوزيع غير المتكافئ للثروة والقوة فى المجتمع الرأسمالى . وفى مجتمع من هذا النوع نجد أن الثوبات التى تتمثل فى المكانة والثروة ... الخ) تتوزع ، مثلما أدرك دوركايم عند مناقشته لتقسيم العمل المفروض على أساس العوامل المفروضة ascribed ولا يمكن أن تتوزع حسب التحصيل عن طريق الجهد .

فالأفراد عند مولدهم لا ينطلقون فى السباق من أجل النجاح من نفس نقطة الانطلاق . ان هذا التناقض عند ميرتون تمتد جذوره الى ذلك التناقض الذى ساد أعمال أصحاب النظريات الكلاسيكية النفعية : اى التناقض البنائى بين وجود الملكية وبين امكانية تحقيق التكافؤ الليبرالى . ان دعوة ميرتون الى اصلاح الموقف عن طريق إتاحة فرص متكافئة

للجميع لتحقيق أهداف النجاح أو لتحقيق الحلم الأمريكي ليست الا محاولة لاختفاء حقيقة اللامساواة ، فلا يمكن أن يتحقق ذلك الا مع الغناء الملكية الوراثية . ولحسن الحظ أن نظرية ميرتون قد أخضعت للاختبار الامبريقي على يد اثنين من أتباعه المقربين هما ريتشارد كلاوارد وليود أوهلين فثبت فشلها تماما . ففي إحدى المحاولات التجريبية لتطبيق هذه النظرية في الواقع والتي أجريت ضمن برنامج هيئة أمريكية عرفت باسم « التحرك من أجل الشباب Mobilization for Youth والتي كانا يشرفان عليها أراد هذان العالمان تخفيف التناقض بين القيم الداعية للنجاح وبين السبل المتاحة لتحقيقه من أجل تقليل نسبة الانحراف بين الشباب الأمريكي فقاما بعمل توعية بين كبار رجال الأعمال وأصحاب المنشآت التجارية لاستخدام الشباب العاطل من الطبقات الفقيرة ومن الأقليات وللتبرع ببعض الأموال لإنشاء مدارس للتدريب المهني لهم . واتضح لهم أن أصحاب الأعمال قد استجابوا لهذه الدعوة أولا ولكن سرعان ما تبين بعد ذلك أن هذا الشباب تنقصه المهارات الأساسية للعمل ولهذا فقد تم الاستغناء عنهم بعد استخدامهم . ومن الواضح أن هذه المحاولة كانت تهدف الى إتاحة بعض الفرص أمام شباب الطبقات الفقيرة لكي يحققوا شيئا من النجاح وبالتالي يصبحون من النمط الامتثالي ، ولكن من الواضح أيضا أن هذه المحاولة لا تزيد عن كونها تضليلا حقيقيا للناس (٢٢) . فالفرص كما يقول تايلور وزملاؤه ترتبط ارتباطا وثيقا بكيفية توزيع الثروة بين مجموعات المجتمع .

نقد البنائية الوظيفية

ان بارسونز هو أشهر ممثلي النظريات الوظيفية المعاصرين ولذلك فإننا سنركز على نظريته بوصفها ممثلة لهذا الاتجاه في علم الاجتماع الغربي التقليدي .

ان أهم كتب أشهر ممثلي هذا الاتجاه هو مؤلفه «النسق الاجتماعي» والذي يقع في ٥٥٥ صفحة ، وقد يكون أهم نقد وجه اليه هو ذلك الذي

(٢٢) من : سمير نعيم أحمد : الدراسة العلمية للسلوك الاجرامى (القاهرة مطبعة دار التأليف ١٩٦٩) ص ١٢٧ - ٢٢٨ .

وجهه عالم الاجتماع الأمريكى رايت ميلز في كتابه «التصورات السوسولوجية» لقد قرر ميلز بعد قراءته لهذا الكتاب الذى يقدم فيه بارسونز نظريته أن ما يقول بارسونز فيه صعب على الفهم حقا بل قد يكون من المستحيل فهمه . وأن كل ما يفعله بارسونز في نظريته هذه ليس أكثر من مجرد التلاعب بالألفاظ وبالمفاهيم طول الوقت لكي يبدو عميقا في تحليله للقراء وأن ما يقدمه ليس الا تأملات فكرية تفتقر الى الأدلة الموضوعية، وقد قام ميلز بمحاولة استخلاص ما يريد بارسونز أن يقوله فعلا من وسط كل المتاهات الفكرية التي يجر القارئ اليها وذلك بأن قام بترجمة الكتاب كله من اللغة الانجليزية غير المفهومة والمعقدة التي يستخدمها بارسونز الى لغة انجليزية بسيطة ، وقد ترجمه في أربع فقرات فقط هي كل ما يهدف بارسونز الى قوله من نظريته فأتضح أن بارسونز يقرر ما يلي :

« هناك نسق اجتماعي يقوم فيه الأفراد بأفعال تجاه بعضهم البعض . وهذه الأفعال عادة ما تكون منظمة لأن الأفراد في النسق يشتركون سويا في الاعتقاد في قيم معينة وفي أساليب مناسبة للسلوك . وبعض هذه القيم يمكن أن نسميها معايير . والذين يتبعون هذه المعايير يتصرفون بشكل متشابه في المواقف المتشابهة ، وهذا ما يحقق الانتظام في المجتمع . أو ما نسميه بالتوازن الاجتماعي Social equilibrium وهذا التوازن مهم جدا للمجتمع . ويتحقق التوازن وتتم المحافظة عليه عن طريق أسلوبين :

التطبيع Socialization والضبط الاجتماعي Social control والأسلوبان مكملان لبعضهما البعض ، وهدفهما جعل الأشخاص في المجتمع ينصاعون للمعايير التي توجد بالنسق الاجتماعي ، فإذا ما فشل التطبيع الاجتماعي في جعل الأشخاص يتبعون المعايير فإن الضبط الاجتماعي يجبرهم على ذلك » (٢٣) .

ويتساءل ميلز عما قدمه بارسونز من « نظرية متضخمة » مليئة بالمفاهيم المعقدة والألفاظ أكثر من المعرفة العامة المتوفرة لدى الجميع

C. W. Mills : The Sociological Imaginations (Oxford (٢٣) University Press, London, 1969). pp. 32 - 33.

والتي تحتاج لا الى التأكد من صحتها ؟ انه لم يقدم شيئا على الاطلاق أكثر من صياغات لغوية تبدو علمية ولكن وراءها أهدافا أيديولوجية واضحة تماما لمن يملك القدرة على التفكير النقدي ، ويتلخص ذلك الهدف فى شغل أذهان المحللين الاجتماعيين بمسائل ثانوية وصرف انتباههم عن فحص ودراسة المؤسسات والأنظمة الاقتصادية والسياسية .

لقد حول بارسونز كل أبنية المجتمع الى مجالات رمزية ، وبهذه الكيفية يقدم بارسونز تبريرا أخلاقيا لاستمرارية ذوى السلطة فى المجتمع فى التحكم فيه ويضفى على حكمهم صفة المشروعية .

ان تأكيد بارسونز على فكرة التوازن عن طريق الخضوع للمعايير – السائدة والمشاركة بين الناس إنما هو تحذير من أى تمرد أو محاولة لتغيير الأوضاع القائمة كما أن افتراضه أن هناك قيما ومعايير مشتركة بين جميع الأفراد لا يستند الى أى أدلة أمبيريقية .

لقد حول بارسونز المجتمع بأسره الى مجرد قيم ومعايير أو الى رموز مجردة توجد مستقلة عن البشر وتفرض عليهم سلطانها وأغفل تماما الأساس الاقتصادي والسياسي للمجتمع وعبر بوضوح عن انحيازه الأيديولوجي للطبقة الحاكمة . والانسان عنده غير قادر على تغيير هذه الانساق القيمية ولكن عليه أن يخضع لها ويتكيف معها فان هو حاول ذلك فان المجتمع سيصاب بحالة من اللاتوازن . والواقع الاجتماعي عنده يتسم بالسكون أو الثبات بالضرورة والمجتمع لابد أن يخلو من الصراع ويسعى للتكامل ، ووحدة التحليل عنده هى الفعل وما يتضمنه من معان سيكولوجية . والمتغيرات التفسيرية عنده كلها متغيرات سيكولوجية وليست اقتصادية أو سياسية أو تاريخية ومستوى النظر عنده بالغ العمومية والتجريد ولا يتكامل مع الأدلة الامبيريقية (أى يعانى من انفصام بين الجانب الحسى والجانب العقلى من المعرفة العملية) .

وينتقد بوبوف عالم الاجتماع السوفيتى النظريات الوظيفية على أساس أنها تصور المجتمع على أنه نظام أبدى لا يعرف التطور والانتقال الى وضع جديد . كما أنه يفسر الحياة الاجتماعية بمتاهات من الجدل

المدرسى الكلامى والتصورات القيمة البعيدة والمنفصلة عن الحياة الواقعية (٢٤) .

كما ينتقد بارسونز على أساس أنه يقرر أن بواعث وأهداف الأفعال الاجتماعية لا تحددها الأسباب المادية ، بل تحددها سيكولوجية الأفراد بوصفهم ممثلين يقومون بأدوار محددة لهم من قبل تحددها القيم التى يعتبرها مطلقة وأبدية لأن مصدرها هو مجال غير حسى أو تجريبي أى أنه « الله » وهنا يتفق بارسونز مع كل من يبررون للسلطة حكمها فى كل زمان بادعاء أنها ممثلة لإرادة الله .

ويرى بوبوف أن الوظيفية مثل غيرها من النظريات الاجتماعية الغربية التقليدية تدور فى حلقة مفرغة لا تسطيع الخروج منها وهى : أن وعى الإنسان (أى سيكولوجيته) تحدد وجوده . وأخيرا يقرر أن النظريات الوظيفية رجعية تدافع عن النظام الرأسمالى وعن معايير وقيمه وأهمها الملكية الخاصة لوسائل الانتاج .

ويستشهد بوبوف بقول عالم الاجتماع الأمريكى زيمرمان الأستاذ بجامعة هارفارد عن فراغ الوظيفية من المضمون حيث يقول فى كتابه الأيديولوجيات السياسية المعاصرة :

« لم تخلق مدرسة التحليل البنائى الوظيفى أكثر من أطر (جمع اطار) يمكن فيها وصف النظام الاجتماعى ، ولا أكثر من الوصف . وما أشبهها بأن نقول الكرسي مصنوع من الخشب وأن له أربع قوائم ووظيفته أن نجلس عليه ، وأن هذا الكرسي لا يؤدي وظيفته اذا كان الجلوس عليه مستحيلا . وعلى هذا النحو يبدو النظام الاجتماعى فارغ المعنى . . . ان هذه النظرية لا تضع فى اعتبارها التغير الاجتماعى ، ولا يمكن أن تكون دليلا فى الحلول والقرارات التى يجب علينا اتخاذها » .

وقد اشترك عدد من علماء الاجتماع فى نقد بارسونز على أساس أن نظريته الاجتماعية ليست سوى ضביاعة نظرية فى ثوب علمى لتحيزاته

الايديولوجية (مثل جولدنر (٢٥) ولوكوود (٢٦) وكوزر (٢٧) ودار هرندوف (٢٨) . فهو يدعو الى انصباع الناس للمعابد القائمة ويتجاهل الصراع الاجتماعى ويهمل دور المصالح المادية فى التفاعلات الاجتماعية ويهتم بالتكامل والاجماع القيمى ويتجنب الاشارة الى التغير الجذرى بالمجتمع .

-
- Alvin Gouldner : The Coming Crisis of Western Sociology (٢٥)
(Heimann, London. -973).
Lochwood, D. Some Remarks on the «Social System». (٢٦)
British Journal of Sociology. 1956, col. 7 pp. 134 - 136.
Coser, L. A. The Function of Social Conflict (Free Press, (٢٧)
New York, 1956).
Dahrendorf, R. Out of Utopia : Towards a reorientation (٢٨)
of Sociological Analysis. American Journal of Sociology, 1958,
Vol 6. pp. 115 - 127.

الفصل العاشر

الاتجاه الظاهراتى (الفينومينولوجى)

ازدهرت المدرسة الظاهراتية الأصلية فى علم الاجتماع فى ألمانيا والمناطق المجاورة لها والناطقة بالألمانية فى أوربا فيما بين الحربين العالميتين ، وقد استمدت هذه المدرسة أفكارها من فلسفة ادmond هوسرل E. Husserl (١٨٥٩ - ١٩٣٨) ومارتن هايدجر M. Heidegger ، وشوتز Schutz ، ومارلوبونقى (١) .

والمفهوم الرئيسى فى الفلسفة الظاهراتية هو مفهوم « قصدية الوعى » ، أى كونه موجها نحو الموضوع ، والتى تعنى تأكيد المبدأ المثالى الذاتى : « ليس هناك موضوع بدون ذات » . ويعتمد المنهج الظاهراتى على مسلمتين أساسيتين :

١ - الامتناع عن إصدار أية أحكام فيما يتعلق بالواقع الموضوعى وعن تجاوز حدود التجربة الذاتية .

٢ - اعتبار موضوع المعرفة نفسه الوعى الخالص وليس الوجود الحقيقى (٢) .

معنى ذلك أن أصحاب الفلسفة الظاهراتية يرون أن معرفتنا بالعالم الفيزيقي إنما تأتي عن طريق خبرتنا الذاتية به . وهذه الخبرة هى التى

(١) Paul Edwards (ed.): The Encyclopedia of philosophy (London: Collier Macmillan, 1957). p. 135.

روزنتال ويودين : الموسوعة الفلسفية ، ترجمة سمير كرم (دار الطليعة بيروت ، ١٩٧٤) ص ٤٣٤ .

(٢) Richard Quinney. Crime Control in Capitalist Society: in Critical Criminology, edited by Ian Taylor (London, Routledge, and Kegan, Paul, 1976). p. 986.

تمكننا من ادراك جوهر الأشياء . والفلاسفة الظاهراتيون يبدأون بتجاهل مسألة الواقع الموضوعي ، أو وضعه بين قوسين على حصد تعبيرهم Bracheting حتى يمكنهم توجيه اهتمامهم للواقع كما يوجد في الوعي أو الشعور Consciousness . وعلى هذا فان الظاهرة موضوع الدراسة تكون هي تلك التي تعبر عن نفسها بطريقة مباشرة في الوعي أو الشعور ، ويرتكز الظاهراتيون على تمييز الفيلسوف « كانت » بين مفهومى الظاهرة Phenomenon والشيء في ذاته Noumenon . فالظاهرة كما عرفها « كانت » هي الشيء أو الحدث كما يبدو لنا من خبرتنا ، أما الشيء في ذاته فهو الذى يوجد مستقلا عن قدراتنا المعرفية . والشيء في ذاته ليس معروفا لنا ولكن الظاهرة هي الشيء الذى يمكننا معرفته .

ان الوعي أو الشعور هو وسيلتنا لفهم العالم ، فأى فهم لشيء موضوعى لا يمكن أن يتحقق الا من خلال وعينا بذلك الشيء ، ولا وجود للواقع مستقلا عن وعينا أو شعورنا . وجوهر الأشياء هو ما يفهمه العقل الانسانى من خلال الوعي عن طريق خبرته بالعالم . والموضوعية تتحقق عن طريق الذاتية أى عن طريق وعينا .

ونلاحظ ان الفكر الظاهراتى يركز على دراسة العملية التى تفهم بها العالم وليس على تفسير هذا العالم ، فتفسير العالم بوصفه شكلا من أشكال الفكر يصبح فى حد ذاته موضوعا للدراسة .

هذه باختصار هي الأفكار الأساسية التى ارتكز عليها أصحاب المدرسة الظاهراتية فى علم الاجتماع وحاولوا بناء نظرية اجتماعية على هذيتها . ومن أشهر أصحاب الاتجاه الظاهراتى فى علم الاجتماع ماكس شيلر Scheler (١٨٧٤-١٩٢٨) (٣) والفريد شوتز (٤) Schutz

(٣) Scheler M. The Nature of Sympathy (Trans. Peter Heath) London : Routledge and Kegan Paul, 1958.

(٤) A. Schutz and T. Luchman. The Structure of the Lifeworld. (Evanson : Northwestern University Press. 1973).

جسوفمان Coffman (٥) ، وجارفنيكل Garfinkael (٦) ، وممن تأثروا أيضا بالاتجاه الظاهراتي في علم الاجتماع بيتربرجر (٧) Berger وباك دوجلاس Douglas (٨) ، وآرون سيسوريل Cicourel وجورج جيرفتس وسوف نعرض لأهم أعمال البارزين من هؤلاء العلماء بعد عرضنا لأهم الملامح الرئيسية لذلك الاتجاه في علم الاجتماع .

اللامح الرئيسية للاتجاه الظاهراتي :

تعرض علم الاجتماع بصفة عامة والنظرية الاجتماعية بصفة خاصة وما يتضمنانه من قضايا منهجية ونظرية للكثير من الشك والنقد من جانب الشباب من دارسي علم الاجتماع الذين لم يقتنعوا بما درسوه عن الوضعية والامبيريقية والوظيفية وخاصة مع التغيرات العميقة التي حدثت في المجتمعات الغربية بعد الحرب العالمية الثانية والأزمات التي مر بها العالم الرأسمالي . فقد اكتشف الكثير من الشباب وخاصة من أبناء الطبقة الوسطى خرافة الليبرالية بما تتضمنه من أوهام إتاحة الفرصة للجميع لتحقيق النجاح في المجتمع وزيف الأيديولوجية النفعية Utilitarianism وفي ذلك يقول ألفن جولدنر في كتابه « الأزمة المقبلة لعلم الاجتماع الغربي » :

« منذ نهاية الحرب العالمية الثانية شهدنا بدايات مقارمة عالمية جديدة ضد ذلك النوع من المجتمعات الذي ينتظم حول قيم نفعية ، وهي مقاومة ضد القيم الصناعية بوجه عام وليست مجرد القيم الرأسمالية . وتلك موجة جديدة من موجات المقاومة القائمة للثقافة النفعية التي بدأت فور ظهور هذه القيم في القرن الثامن عشر والتي تبلورت آنذاك في الحركة

-
- Coffman E., Behavior in Public Places 1973. (٥)
H. Garfinkel. Studies in Ethnomethodology. Englewood (٦)
Cliffs: Prentice - Hall. 1967.
P. Berger and Luckman. T. The Social Construction of (٧)
Reality: London: Allen Lane, The Penguin Press. 1967.
J. Douglas. Understanding of Every Day Life. London : (٨)
Routledge and Kegan Paul. 1971.

الرومانسية في القرن التاسع عشر (٩) .

وقد اتخذت هذه المقاومة لقيم المجتمع الرأسمالي الصناعي أشكالاً متعددة فعلى المستوى السلوكي لجأ الكثير من الشباب إلى رفض هذه القيم وما يرتبط بها من تصرفات وانسحبوا من المجتمع سلبياً دون أن يحاولوا أحداث تغيير جذري فيه واستبدلوا هذه القيم بقيم أخرى تتمركز في معظمها حول الغوص في الذات والتعبير عنها بحرية ، وكان تجسيد ذلك فيما سمعنا عنه من حركات الهيبز وجماعات العقاقير المخدرة ... الخ . أما على المستوى الفكري فقد لجأ الشباب المثقف وبخاصة من المتخصصين في العلوم الاجتماعية إلى رفض الاهتمام بدراسة أوفهم الواقع الموضوعي وارتدوا مثل جماعات الهيبز إلى الاهتمام بالذات من الداخل أملين أن يكشفوا معنى الحياة من خلال ذلك بعد أن فشلوا في فهمها مستخدمين الأطر النظرية في العلوم الاجتماعية . وكانت الفلسفة الظاهرية خير معين لهم على ذلك .

وفي مقابل ذلك لجأ فريق آخر من الشباب إلى المقاومة الإيجابية لقيم المجتمع الرأسمالي ونظمه من جهة ولأيديولوجيته النفعية من جهة أخرى . فعلى المستوى السلوكي تكونت جماعات سياسية راديكالية تدعو إلى أحداث تغيير جذري في المجتمع مثل جماعة « الطلبة من أجل مجتمع ديمقراطي » في الولايات المتحدة الأمريكية وعلى المستوى الفكري لجأ المثقفون خاصة من بين دارسي علم الاجتماع إلى النقد الجذري للأيديولوجية النفعية وما يرتبط بها من نظريات اجتماعية ووجدوا في الماركسية خير معين لهم . وعلى ذلك فإن الاتجاه الفينومينولوجي يمكن النظر إليه باعتباره رد فعل محافظ لفشل الوضعية والوظيفية في مقابل الاتجاهات الراديكالية التي تعتبر رد فعل ثوري لفشل نفس هذه الاتجاهات . ويشبه هذا الموقف المعاصر ذلك الموقف القديم الذي نشأ كرد فعل لفشل الفلسفات الميتافيزيقية إبان عصر التنوير . فقد انقسم الفكر آنذاك أيضاً كما رأينا إلى فكر محافظ وفكر ثوري . وقد اقتضى ذلك الموقف الجديد القائم على نقد الاتجاهات الفكرية المعاصرة مثل الوضعية والوظيفية العودة

بالطبع الى الاهتمام بأعمال الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع . فبالإضافة الى اعتماد علماء الاجتماع الظاهراتى على أعمال الفلاسفة الظاهراتيين أمثال هوسرل اعتمدوا أيضا على أعمال علماء الاجتماع الكلاسيكيين وبخاصة ماكس فيبر وامييل دوركايم كما سنرى فيما بعد .

بدأ علماء الاجتماع الظاهراتيون بنقد الافتراضات التى يركز عليها الاتجاه الوضعى فى علم الاجتماع وكذلك الاتجاه الوظيفى . وكان أهم تلك الافتراضات التى نقدها ذلك الافتراض المتعلق بوحدة المنهج العلمى وبتشابه الظاهرات الطبيعية والاجتماعية وتقبل الوضعية لواقع حياة الخبرة اليومية على أنه حقيقة قائمة . وبدلا من ذلك اهتم أصحاب الاتجاه الظاهراتى فى علم الاجتماع بفحص الافتراضات الشائعة التى تركز عليها الأعمال العلمية وابتداع منهج مناسب لدراسة العالم الاجتماعى الذى يتمثل فى الوعى القصدى لدى الأفراد وما يتضمنه ذلك الوعى من معان ، ودعوا الى ضرورة عدم اهتمام عالم الاجتماع بمجرد اعادة تفسير الخبرة اليومية وتجاوز ذلك الى محاولة فهم العملية الذاتية التبادلية لتكوين المعنى لدى الأفراد . ويعنى ذلك أن المعنى الذى يضيفه الافراد على العالم الاجتماعى ووعيههم بذلك العالم يجب أن يكون هو المادة الاساسية التى يهتم علماء الاجتماع بدراستها ، فالعالم الاجتماعى فى رأى الظاهراتية الاجتماعية هو نتاج لتفسيرات ومقاصد الانسان أى أنه عالم ذاتى . وبذلك فإن دراسة ذلك العالم يمكن أن تتم عن طريق أساليب مثل المحادثات وتحليل اللغة ، وتصبح وظيفة علم الاجتماع هى وصف تلك العمليات التى يتم بواسطتها تشييد العالم الاجتماعى من خلال الاجراءات التفسيرية .

ويميل علم الاجتماع الظاهراتى الى اهمال دراسة تصرفات وأفعال الناس فى المجتمع ويركز بدلا من ذلك على دراسة روايات الناس عما يفعلون ومحادثتهم وما يقولونه عما فعلوه وما يفعلونه . وبناء على ذلك فان علماء الاجتماع الظاهراتيون لا يناقشون اطلاقا مفهومات مثل القوة أو السلطة أو التدرج أو البناء الاجتماعى ولكنهم يتحدثون بدلا من ذلك

عن الأحساس بالقوة أو السلطة ٠٠٠ الخ ٠ ولا يهتم هؤلاء العلماء بدراسة مصادر هذه الاحساسات أو المعانى لدى الأفراد أو كيفية التحكم فيها أو تغييرها ٠

يركز الاتجاه الفنيومينولوجى اذن على دراسة العقل بوصفه عملية واعية ايجابية ويرى أن دراسة النشاط يجب أن تتم عن طريق دراسة القصد عند الفرد ٠ أى أن الاتجاه الظاهراتى يحل بؤرة اهتمام النظرية الاجتماعية من البحث عن الأسباب أو المجتمعات الى البحث عن النوايا أو المقاصد أو المعانى التى توجد فى عقول الأفراد وسوف نعرض فيما يلى لأصحاب الاتجاه الظاهراتى فى علم الاجتماع مثل ماكس شيلر ، فير كانت ، جارفينكل ٠ ثم نعرض بعد ذلك لأهم الانتقادات التى وجهت لعلم الاجتماع الظاهراتى بصفة عامة وتطبق عليه أسس تقييم النظرية الاجتماعية ٠

ماكس شيلر (١٨٧٤ - ١٩٢٨) :

كان ماكس شيلر من أشد المعجبين بالطبقة الارستقراطية التى اعتبر أعضائها هم القادة الطبيعىون للمجتمع ٠ وكان يزدري الطبقة الوسطى ويعتبرها فريسة ما تعانيه من حقد وبخاصة القطاع الأدنى فيها ، وكان يمجّد الصفوة والاقطاعيين والعسكريين وروح الفروسية ويزدري الفردية والنفعية والعقل المطلق ٠ وكان شيلر يهتم بصفة خاصة بالبحث عن منطلق اجتماعى تمارس الصفوة من خلاله زعامتها ٠ وكان يهدف من الناحية السياسية الى توحيد المانيا ضد عقلانية فرنسا ونفعية انجلترا ولذلك فانه كان شديد الحماس لاعداد المانيا عسكريا لتحقيق ذلك الهدف عن طريق الحرب ٠

وكان شيلر يهدف أيضا الى تحطيم العلم بوصفه معيارا لكل المعرفة الحقيقية ٠ ورأى ، على عكس كونت أن العالم لم يحل أبدا محل الفيلسوف والقديس وعارض شلر الآراء الماركسية ورأى أن علاقات الانتاج ليست هى المسئولة عن تحقيق الافكار ولكن مصالح الصفوة هى التى تفعل

ذلك (١٠) .

ويمكن القول أن شيلر قد أوقف حياته على مهاجمة الوضعية وتقديس العلم الذي اعتبره الخاصة المميزة للمجتمع الغربي واعتبره مسئولا عن صراعات الحياة الحديثة وما يوجد بها من أمراض اجتماعية (١١) .

وقد رأى ماكس شيلر أن وظيفة علم الاجتماع الأساسية يجب أن تكون حل الصراعات الأيديولوجية السائدة في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى وذلك عن طريق مساعدة رجال السياسة على إدراك أوجه القصور في وجهات نظرهم وآرائهم .

لقد كان شيلر يتخذ موقف المعارضة من البرجوازية ومن الرأسمالية ولكنه على عكس الماركسيين كان يرى البديل لها في مجتمع تحكمه الصفوة يعرف كل فرد مكانه ويوضع فيه حق الحكم بين أيدي الأصلح لذلك وراثيا واجتماعيا وعقليا أي الارستقراطية ، أي العودة بالمجتمع الى الصورة الاقطاعية (١٢) .

وقد اعتمد فكر ماكس شيلر بصفة أساسية على التمييز الظاهراتي بين مجالي القيم المثالية أو (الجوهر) والوقائع الوجودية . فالوجود الفعلي يتمثل في العلاقات بين الوقائع ، تلك العلاقات التي تتغير بتغير الزمن ، أما القيم فهي تمثل مجالا آخر هو المعاني المستلهمة والصادقة دائما دون اعتبار الزمان . وهذا التمييز الميتافيزيقي بين الوجود الفعلي والقيم المثالية هو أساس التمييز بين علم الاجتماع الثقافي من جهة وعلم اجتماع العوامل الواقعية من جهة أخرى . فالمسألة

Remmling. C. Towards The Sociology of Knowledge. (١٠)
Routledge & Kegan Paul, London. 1973. p. 309.

(١١) يشرح جون استود John Stude في كتابه عن ماكس شيلر هذه الفكرة بوضوح ويبين بالأدلة طبيعة فكر النازية والمحافظة ومعاداته للاشتراكية التي تنضح في معالجته للقضايا الفلسفية والاجتماعية . انظر :

John Saude : Max Scheler : An Intellectual Portrait.
(New York 1967).

Peter Hamilton. Knowledge and Social Structure Routledge and Kegan Paul. London. 1971. pp. 57-76. (١٢)

الثقافية مثالية وتوجد فى مجال الأفكار والقيم ، أما العوامل الواقعية فهى جزء من الأحداث المتغيرة فى نطاق الزمان . والمادة الثقافية يمكن تعريفها من خلال الأهداف المثالية أو النوايا ، أما المادة الواقعية فانها تشكل بناء من النوازع مثل الجنس والجوع واشتهاء السلطة . ومن الخطأ كما يرى شيلر افتراض أن العوامل الواقعية مثل العنصر أو القوة السياسية أو الانتاج الاقتصادى تحدد بشكل مطلق المعانى . ومن الخطأ أيضا افتراض أن الأحداث الخارجية للخبرة تتمثل فى كشف الأفكار الروحية والشخصية . فالأفكار لاتصبح شيئا ملموسا له وجود واقعى ما لم تترايط سويا بشكل ما فى صورة ميول جمعية ويتم تضمينها فى ابنية نظامية .

وهدف علم الاجتماع الثقافى هو تفهم ما هو مثالى ، وهو يدرس الدين والفلسفة والفكر العلمى والفن ، أما علم الاجتماع الأمبيريقى فهو يدرس الدوافع أو القوى التى تحدث تغيرات فى الواقع . وهناك صلة انتقائية بين الأساس الحقيقى للمجتمع وبين ما هو مثالى . فالعوامل الواقعية أو الحقيقية قد تشجع أو لا تشجع على استكشاف القيم المثالية . وعلى هذا فان المهمة الأساسية يجب أن تكون اكتشاف الأساليب التى تتفاعل بها العوامل الحقيقية والعوامل المثالية . وهناك مراحل متتابعة لتكامل هذين المجالين (الواقعى والمثالى) ابتداء من سيادة روابط الدم والقرباة الى التأثير بالبناء السياسى حتى التأثير بالحقائق الاقتصادية . وقد قدم شيلر هذه المراحل الثلاث بديلا عن مراحل كونت : اللاهوتية والميتافيزيقية والوضعية .

ورأى شيلر أن العقل يؤثر على الأحداث عن طريق توجيه النوازع القطرية . وهذا التفاعل بين الأحداث الحيوية والمعيارية يتم من خلال وسيط معين يتمثل فى الصفوة وهى عبارة عن عدد قليل من الأشخاص يوجهون عملية امتزاج الأحداث المثالية بالأحداث الواقعية ، فهم الذين يدركون الجوهر الظاهراتى . وتنتشر آراء الصفوة النفاذة عن طريق المحاكاة بين الجماهير ، وعلى ذلك فان التاريخ ليس سوى نتاج لنسق حوافز قادة المجتمع وما يرتبط به من روح جماعية Ethos .

ويختلف علم الاجتماع الثقافى عن علم الاجتماع الواقعى أو
الأمبيريقى فى أنه يتناول العوامل المثالية (المستمدة من الأهداف
والمطامع) بدلا من تناول العوامل الواقعية (التى تعتمد على الدوافع) .
فالعوامل المثالية لها تأثير على التطور الثقافى طالما تركز على المصالح
وتتجسد فى أشكال تنظيمية .

وهناك صور عديدة من المعرفة أكثرها أهمية البديهيات الثقافية
للمجموعة والتى تشكل المناخ الذى يتكون فيه الرأى العام . وأهم مهام
علم اجتماع المعرفة هى الكشف عن هذه الافتراضات الثقافية الأساسية
والصور المتغيرة التى تتخذها . وبعد أن يتحقق هذا الهدف يكون من
واجب علم اجتماع المعرفة تحليل الصور الأخرى من المعرفة الأكثر
سطحية والتى تعتمد على هذه الافتراضات الأساسية . مثل المعلومات
التكنولوجية والمعرفة العلمية والرياضية والفلسفية والدينية والحكم
الشعبية . وكلما كانت المعرفة أكثر فنية وعقلانية كلما كان معدل تغييرها
أسرع . ولكل نوع من المعرفة معدل تغييره الخاص به .

ويرى شيلر أنه على الرغم من أن الطبيعة الاجتماعية لصور
المعرفة (أى الفكر والبصيرة والادراك) شئ لا محل للشك فيه فإن
مضمون هذه المعرفة وصدقها الموضوعى لا يحددهما البناء الاجتماعى .
وترتبط الأنماط المختلفة للمعرفة بأشكال معينة من المجموعات ، فكل
نمط من البناء الاجتماعى له صور من المعرفة تتناسب معه . فالمجتمع
المحلى Germcinschaft له رصيد محدد من المعرفة . ويتصف هذا النمط
من المعرفة بعدم الاهتمام بالاكشافات الجديدة أو زيادة المعرفة ، بل أن
مجرد محاولة وضع المعرفة التقليدية موضع الاختبار يكون شيئا مكروها ،
والنمط السائد من الأنكر فى هذا المجتمع التقليدى هو نمط التقبل وليس
النقد وهو نمط جامد وواقعى .

وهناك صلة انتقائية بين الأفكار والصور التنظيمية . فظهور
الحضارة الصناعية الحديثة فى المجتمع Gesellschaft مثلا كان يرتبط
بالروح الفردية على عكس الروح الجماعية التى كانت ترتبط بنمط
الجماعة المحلية وبمبدأ التنافس بدلا من التعاون وبالمعرفة العلمية والفنية

بدلاً من الحكمة التقليدية وباتجاه نحو العلم بدلاً من اللاهوت والفلسفة .
وقد رأى شيلر أن العقل يؤثر على الأحداث في المجتمع لأنه هو
الذي يوجه ويرشد ويحرك الدوافع الغريزية . ولكن ذلك يتم من خلال
وسيط يتمثل في الصفوة أي ذلك العدد النقيض من الأشخاص الذي لديه
القدرة على المزج بين الأحداث المثالية والواقعية . فالصفوة هي التي
تستطيع أن تكتشف الجوهر الظاهراتي للأشياء بما لديها من بصيرة
نافذة . وهذه البصيرة تنتشر بين الجماهير عن طريق المحاكاة ، وعلى
ذلك فإن التاريخ ليس سوى نتاج لدوافع قادة المجتمع وأخلاقياتهم
وجوهر الثقافة يصبح شيئاً شعورياً لدى الصفوة (١٣) .

ويقرر كارل مانهايم أن ماكس شيلر قد حاول أن يفسر أحداث العالم
المعاصر على أساس مسلمات تنتمي إلى مرحلة سابقة من الفكر الإنساني ،
وبخاصة التفكير الميتافيزيقي ، ويرى تشابهاً كبيراً بين مسلمات شيلر
وبين الفكر الديني الكاثوليكي وخاصة ما يتضمنه هذا الفكر من مقولات
عن اللانهاية والأبدية وتمييزه بين ما هو واقعي وبين ما هو جوهري ،
وما هو زائل وما هو أبدي (١٤) .

الفرد فركانت (١٥) :

رأى فركانت Vierkandt (١٨٦٧ - ١٩٥٢) أن علم الاجتماع يجب
أن يقتصر على دراسة الخصائص النوعية للمجموعات وعلى تقديم نظرية
عن التفاعل الاجتماعي ونتائجه على أساس أن يكون التركيز على العوامل
الذاتية والداخلية وليس على المظاهر الخارجية للتفاعل . فعلم الاجتماع
يختلف عن العلوم الطبيعية لأن الإنسان يتميز بخصائص عقلية تنجم عن
معيشة أفراده سوياً . وهذه الحالات العقلية هي التي يجب أن يدرسها
العلم الاجتماعي . ولذلك فإن المنهج الفينومينولوجي هو المنهج الوحيد
الصالح لعلم الاجتماع .

Don Martindale. The Nature and Types of Sociological (١٣)
Theory. Routledge and Kegan Paul. London. 1961. pp. 273 - 276.

Karl Mannheim. Sociology of Knowledge From the Stand- (١٤)
point of Modern Phenomenology. in Remmling. op. cit., p. 187-188.

Don Martindale. op. cit., pp. 268 - 272.

والمنهج الظاهراتى يتلخص فى فحص عملية الوعي awareness ويتطلب ذلك تركيز الاهتمام على جوانب الخبرة الشعورية وليس على التعبيرات الظاهرية (مثل السلوك) ، أى على المعانى الكامنة للأشياء ، ويحاول المنهج الظاهراتى بذلك ومن خلال تحليل الخبرة أن يكشف عن استعدادات اجتماعية أساسية معينة يفترض أنها المسئولة عن الحياة المشتركة ، وهذه الاستعدادات الأساسية أو الجوهر essence يمكن اكتشافها فقط عن طريق التمييز بين الحالات العقلية . فهناك عمليات عقلية قد تبدو متشابهة ولكنها فى الواقع مختلفة تماما ، فالخجل مثلا يختلف عن الخوف من النتائج غير المرغوبة . وإذا ما درسنا المظاهر الخارجية فقط فان مثل هذا الاختلاف لن يمكن اكتشافه ، ومهمة علم الاجتماع الظاهراتى اكتشاف الجوهر أو الخصائص المسبقة apriori فى الحياة العقلية الانسانية المتبادلة .

ومن أمثلة التحليل الظاهراتى تحليل عاطفة احترام الذات ، التى ينجم عنها احساس داخلى بالتفوق وتؤدى للاحترام . وفى بعض الأحيان يفصح هذا الاستعداد عن نفسه فى شكل الرغبة فى القوة من أجل تحقيق التمايز والاعتراف بالشخص على أنه أفضل من الآخرين . وحين يتم اشباع هذه الرغبة فانها تصبح مصدرا للشعور بالكرامة وحين تحبط فانها تصبح مصدرا للشعور بالخجل . والدراسة الظاهراتية للخضوع تبين أنه ليس نتيجة للخوف أو غيره من الدوافع الغيرية ولكنه قد يتضمن خضوعا داخليا تلقائيا . ويصاحب الخضوع حالات سيكولوجية مثل الوداعة والارتباك والشعور بالحاجة للاتصال بشخصية أقوى ، كما يرتبط به اتجاهات مثل الاعجاب والتفانى والاحترام . ولكن جوهره هو المشاركة فى عظمة الآخر وتلك غريزة تفصح عن نفسها فى عبادة القوة والرغبة فى السير وراء القائد والشعور بالواجب والخضوع الأعمى لأمر داخلى .

ورأى فيركانت أن المجتمع عبارة عن مجموعة من الأشخاص بوصفهم حملة لعلاقات متبادلة ذات أساس عقلى داخلى . والعلاقات الاجتماعية التى تكون المجتمع وتبقيه هى القوى الفعالة التى تشكل وتتحكم فى التعبير عن الاستعدادات الداخلية . ويمكن تعريف المجتمع بسهولة طالما أن الفرد

ليس مغلقا على نفسه ولكنه يشارك فى حياة غيره من الناس ويستمد وعيه بذاته ومثله وعواطفه ورغباته من الآخرين والحياة الاجتماعية تتضمن حدا أدنى من التبادل reciprocity ، والروابط الداخلية (العقلية) هى الخاصية الأساسية للمجتمع ، وبناء على هذا الاطار التصورى رأى فير كانت أن التحليل الاجتماعى يجب أن يبدأ بالدراسة الفينومينولوجية للاستعدادات الداخلية للأفراد أو للغرائز وحدد فيركانت مجموعة من الاستعدادات الأساسية أو الغرائز التى يجب دراستها وهى : احترام الذات والخضوع والدافع الأبوى والميل للصراع والمحاكاة والتعاطف والتعبير والتواجد الاجتماعى مع الآخرين Sociability . ويقرر مارتندال أن فيركانت قد اعتمد فى ذلك على كل من ماكديوجال وويليام جيمس وبالدوين وجبريل تاردوكال جروس وزيميل . كما أنه اعتمد بعد ذلك على تقسيم تونير للمجتمعات الى المجتمع المحلى Gensinechaft والمجتمع Gesellschaft لكى يشرح العلاقات الاجتماعية الأساسية وأشكالها .

وركز فيركانت اهتمامه بعد ذلك على دراسة المظاهر الجماعية مثل الشعور الجمعى والوعى الذاتى للمجموعة والروح المعنوية .

ورأى فيركانت أن جميع العلاقات الاجتماعية تؤثر على الحياة الداخلية للأفراد فالعلاقات الاجتماعية لاتحقق أهدافا خارجية فحسب ولكنها تهدف الى تحقيق خبرات داخلية ، فالفرد قد يدخل فى علاقة اجتماعية مع آخرين لأسباب خارجية أو ليحصل على اشباع داخلى أو لتحقيق الهدفين معا .

فالعلاقات السيطرة والصراع مثلا تقدم اشباعا داخليا للفرد . فالصراع يجعل الشخص يستمتع بالتحصيل والعظمة نتيجة ممارسته لقوته . وعلم الاجتماع الظاهراتى فى رأى فيركانت هو الذى يشرح شرحا كافيا الاستعدادات الداخلية العقلية التى يتكون على أساسها المجتمع وطبيعة العلاقات الاجتماعية كما أنه يمكننا من فهم المجموعة . فالمجموعة لها روح خاصة بها تجبر الشخص على أن يشعر ويفكر ويتصرف بأسلوب محدد . والمجموعة كالفرد لديها وعى بذاتها وحافز للبقاء وتنظيم للحياة .

وعلى ذلك فإن المنهج الظاهراتى ، وهو المنهج الوحيد الصالح لعلم الاجتماع فى رأى فيركانت ، يؤدى الى الكشف عن جوهر المجتمع والسلوك الاجتماعى والعلاقات الاجتماعية ، وهذا الجوهر يتمثل فى الاستعدادات الفطرية لدى الانسان مثل الاستعداد للمساعدة والشجار والمتعاطف والمحاكاة وللايحاء والثقة . . . الخ . فهذه الاستعدادات هى الشروط المسبقة Apriori pereonditions للمجتمع الانسانى ويمكن اختزال الحياة الاجتماعية بأسرها اليها ونظرا لأنها استعدادات فطرية فإنها قابلة للاكتشاف بشكل مباشر اذ اتبعنا المنهج الملائم . ونظرا لأنها خصائص أصلية للخبرة فإنها لا تخضع الا للتحليل الظاهراتى الذى يكتشفها ويرجع كافة خصائص الخبرة الانسانية اليها .

جار فينكل Garfinkel :

يعرف اتجاه هارولد جارفينكل الفينومينولوجى باسم اتجاه المنهجية الشعبوية ethnomethodology (١٦) ، ويتصف هذا الاتجاه مثل غيره من الاتجاهات الظاهراتية بموقفه النقدى والرفض للاتجاه الوضعى فى علم الاجتماع وقد بدأ جارفينكل يرفض تركيز علم الاجتماع على دراسة المظاهر appearances أو الأحداث والسلوك الظاهر لأن ذلك فى رأيه عديم القيمة ولا يشكل جوهر الحياة الاجتماعية ، ودعا بدلا من ذلك الى التركيز على دراسة المعانى الخفية أو المضرة أو الضمنية tacit التى توجد فى عقول الأفراد عن مختلف المواقف الاجتماعية والتى لا يفكر فيها أحد وتعتبر من الأشياء المسلم بها Taken for granted ومع ذلك تحدد كل تصرفات الناس بما فى ذلك العلماء وهى المسئولة عن وجود تفاعل اجتماعى يتصف بالثبات . فأساس الحياة الاجتماعية عند جارفينكل وسبب تماسكها هو الفهم الضمنى الذى يشترك فيه الناس (دون أن يعبروا عنه) لكل الأمور اليومية العادية والتأفة . فهناك بناء من القواعد والمبادئ الخفية والمشاركة بين الناس يتصرفون بناء عليها حتى دون أن

Harold Garfinkel, Studies in Ethnomethodology, Englwood (١٦)
Cliffs. N. J. Prentice - Hall 1967.

يعرفوها • ولهذا فان علم الاجتماع الذى يتبع المنهج الشعبى يجب أن يجعل موضوع اهتمامه الأفراد العاديين ويدرس الأنشطة اليومية الروتينية لم يكشف عن المعانى التى وراءها والتى تعتبر جوهر الحياة الاجتماعية • فهو يهدف الى فهم الموقف الاجتماعى من الداخل كما يبدو للناس الذين يعيشونه أو كما يحسون به •

ورأى جارفينكل أن العالم الاجتماعى يقع خارج نطاق الزمن • فهو لا يهتم أن يعرف كيف تتكون هذه المعانى عند الأفراد ولماذا تتكون هذه المعانى أو التعريفات للواقع الاجتماعى فى ذهنهم فى فترة زمنية معينة دون أخرى أو لماذا تختلف باختلاف المجموعات الاجتماعية أو باختلاف المكان ، ولكن هدفه هو الوصول الى تعميمات عامة جدا لا ترتبط بزمن معين ولا بثقافة معينة (١٧) •

وقد رأى جارفينكل أن أهم جانب فى الحياة الاجتماعية هو ذلك الجانب غير المرئى الذى لا تحس به ربما لأنه مألوف جدا ووظيفة عالم الاجتماع الحقيقية هى الكشف عنه وجعل الناس يدركونه وذلك عن طريق مخالفة تلك القواعد أو المبادئ الضمنية غير المدركة بطريقة مفاجئة تجعلنا ندرك أنها هى التى وراء سلوكنا • أن مخالفة هذا المألوف فى رأيه هى التى تكشف عن وجوده ، والمثال على ذلك ما يأتى •

أن تأتى مجموعة من الشباب وسط ميدان شديد الزحام وقت الظهيرة فى مدينة مثل أمستردام ومعهم مائة دجاجة حية ويقومون بإطلاقها وسط الميدان لتجربى فى كل اتجاه • سوف يؤدى ذلك الى دهشة سائقى السيارات وتشيت انتباههم وقد تقع حوادث وسيجتمع الجمهور وسيرتبك المرور ويتوقف سير الروتين العادى ويضحك الناس عندما يتدخل رجال الشرطة ويجرون خلف الدجاج لجمعه من الطريق •

أن هذا الحدث سوف يجعل الناس تدرك فجأة قاعدة خفية لايلاحظونها تحكم سلوكهم فى حياتهم اليومية : لا يجب إطلاق الدجاج فى الطرقات

أثناء فترات الازدحام خلال النهار ! (١٨) .

ولابد أن أعترف هنا للقارئ أنني كنت أكن احتراما غامضا للفلسفة الفينومينولوجية والاستفادة منها في فهم الواقع الاجتماعي ، وأنني عندما سمعت لأول مرة بهذه التسمية لمنهج جديد في علم الاجتماع ينبع من الاتجاه الظاهراتي (المنهجية الشمولية) توقعت أن أقرأ شيئا عميقا ومفيدا ، وظللت أحاول أن ألم بما قدمه جازفينكل من أسهام ولكنني اكتشفت أن كل ما كتبه وما كتب عنه لا يمكن أن يزيد عن هذه السطور القليلة السابقة مكررة بعشرات الصيغ مدعمة بعشرات الأمثلة التوضيحية وندمت ندما شديدا على الوقت الذي أنفقته في هذه القراءة ، ولكن خفف من حدة ندمي أن زال سحر التسمية من عقلي ولم أعد أجهل المضمون الفارغ لهذه البدعة النظرية وقوى اعتقادي بأن هناك جهدا مقصودا لشغل طلاب الاجتماع والمتقنين بأفكار جديدة ينفقون وقتا هائلا في محاولة فهمها ثم مناقشتها ونقدها ورفضها وما أن ينتهوا من ذلك حتى تفرض عليهم أفكار أخرى وهكذا لا يلتفتون إلى القضايا الأساسية للمجتمع ولا يصلون إلى فهم علمي حقيقي له . ورأيت من واجبي أن أقدم هذه الصورة من الأفكار للقارئ العربي حتى يستفيد منها درسا وحتى لا ترهبه الأسماء الكبيرة أو التسميات البراقة التي تتحقق وراء ستار علمي .

ولكن لماذا ينتج المجتمع الغربي هذه الأفكار ؟ ولماذا تتبنى المؤسسات العلمية أصحابها ولماذا تروج دور النشر لها ومن الذي يمول عملية إنتاج هذا النوع من الفكر .

نستطيع أن نجد اجابة على مثل هذه الأسئلة لدى المستنيرين والعقلاء من علماء الاجتماع الغربيين في أوروبا وأمريكا .

يقرر عالم الاجتماع البريطاني باري سمارت Smart أننا يجب أن نحلل العوامل السياسية والاقتصادية والسياسية والعسكرية التي تشجع على قبول وتشجيع ظهور مثل هذه الأعمال غير المفيدة وتقديم لها التمويل اللازم . ويرى سمارت أن تشجيع المؤسسات العلمية والاقتصادية

والسياسية والعسكرية فى الولايات المتحدة الأمريكية لهذا النوع من الدراسات (١٩) انما يرجع الى أن جارفينكل ومنهجه الشعبى يركز الاهتمام على مواقف الحياة اليومية وكيفية تصور الناس لها بحيث يصرف الاهتمام تماما عن أى شىء يتصل بالبناء الاجتماعى وعن أزمات هذا البناء . فهو يقدم علم اجتماع محور اهتمامه هو الكلام والكلام عن الكلام بدلا من الاهتمام بطبيعة ما يفعله الناس وبالعلاقة الجدلية بين الفكر والفعل (٢٠) .

ويرى عالم الاجتماع الأمريكى ألفن جولدنر أن جارفينكل يقدم بفكرة بديلا للعنف فى مقاومة الوضع القائم فى المجتمع الأمريكى ، ذلك أنه يدعو الى نوع من الفوضوية قد يروق للشباب الساخط على النظام الاجتماعى ، فالمنهجية الشعبوية دعوة الى تغيير الذات بدلا من تغيير النظام أو هى مواجهة فردية صغيرة micro. Confrontation ومقاومة غير عنيفة للوضع القائم لا تزيد عن كونها تمردا رمزيا يستجيب لمشاعر الشباب حتى لا يعبروا عنها بالثورة أو العنف .

تعليق عام على الاتجاه الفينومينولوجى :

يلاحظ نقاد الفينومينولوجى أن هذا الاتجاه يتصف أساسا بالتركيز على دراسة المعانى والخبرات المشتركة بين الأفراد فى المجتمع بوصفها أساسا للحياة الاجتماعية وبإهمال الاختلافات والصراعات الواقعية داخل المجتمع . ويتعارض ذلك تمام التعارض مع التحليل العلمى الواقعى للمجتمع الذى يبين بالأدلة القاطعة أن العالم تمزقه الصراعات على كافة المستويات ، وأن القدر المتاح من المعانى والخبرات المشتركة بين الأفراد فى المجتمع الواحد أو فى مجتمعات العالم أقل بكثير من الاختلافات والصراعات فهناك صراعات عديدة بين الشباب والشيوخ والنساء والرجال ، الأغنياء والفقراء ، الأميون والمتعلمون ، أصحاب السلطة

(١٩) قامت القوات الجوية الأمريكية عن طريق مركز البحوث بها بتمويل عدة مؤتمرات عقدت بجامعة كاليفورنيا وكولورادو عن المنهجية الشعبوية واشترك فيها عدد كبير من العلماء الاجتماعيين : انظر فى ذلك : Gouldner. opt. cit., p. 411.
(٢٠) Barry Smart. opt. cit., pp. 108 - 109.

والقوة والخاضعين لهم ، دعاة السلام ودعاة الحرب ، الاشتراكيون والراسماليون ، العالم الثالث والبلدان المتقدمة (٢١) . أى أن المسئلة الأساسية التى تنص عليها التحليلات الفينومينولوجية عن طبيعة الواقع الاجتماعى (الخبرات الفكرية المشتركة) لاتدعمها الأدلة الامبيريقية بل هناك أدلة تنفيها .

وقد تجاهل أصحاب الاتجاه الفينومينولوجى مسألة الصراع الطبقي العنيف فى مجتمعاتهم ورفضوا حتى أن يروه أو يسيروا اليه أو يفسروه على الرغم من أنه كان يفرض نفسه على الجميع ، مثال ذلك تجاهل أحد أقطاب هذا الاتجاه وهو الفرد شوتز Schutz لضرب العمال بالمدفعية فى فينا عندما كان دولفوس Dollfus رئيسا للوزراء ، كما أنهم تجاهلوا الواقع الاجتماعى الاقتصادى للمجتمع ودرسوا الخبرة اليومية وأسلوب التفكير كما لو كانا منفصلين عن هذا الواقع ولا يتأثران به (٢٢) .

وقد كانت النتيجة الحتمية لكل ذلك تحول علم الاجتماع الفينومينولوجى الى دراسات ميكروسيولوجية Micro-sociological (أى دراسات اجتماعية للوحدات الصغيرة وليس للبناء الاجتماعى) تركز أساسا على الخصائص الكلية للأفعال والمعانى الشائعة (كما هو الحال فى المنهجية الشعبوية) مما يؤدى الى قصر اهتمام علم الاجتماع على دراسة ذلك الحيز المحدود من الحياة الخاصة كما لو كان منعزلا تماما عن كل ما يحيط به (٢٣) .

ويشترك الاتجاه الفينومينولوجى مع الاتجاه الزنايفى وخاصة عند بارسونز فى أنه يعانى من تضخم لفظى يتزايد باستمرار verbal inflation galloping على حد تعبير دافيد مارتن ، كما أنه يتصف بقدرة على

(٢١) Conter Remmling (ed.), Towards The Sociology of Knowledge, Routledge and Kegan Paul. London. 1973. p. 29.

Ibid. p. 29.

(٢٢)

(٢٣) انظر نقدا تفصيليا للاتجاه الفينومينولوجى المنهجى للشعوبى فى ،

Hans Peter Dreitzel (ed.), Recent Sociology No. 2. Patterns of Communicative Behavior. Eight Articles That Demonstrate What Ethnomethodology is All About, New York; Macmillan 1970.

وصف مجموعة من الحقائق البديهية التي نعرفها جميعا *truisms* سويا دون أن يضيف الى معرفتنا شيئا جديدا (٢٤) .

ومما لا شك فيه أن ظهور علم الاجتماع الفينومينولوجي قد زاد من حدة أزمة علم الاجتماع الغربي ، فعلى الرغم من أن أصحابه قد قدموه كمحاولة لايجاد بديل للنظريات القائمة الا ان النتيجة النهائية لظهوره هي اضافة اتجاه جديد يزيد من تعدد وتنوع الاتجاهات فى النظرية الاجتماعية (٢٥) .

موجز القول أن الاتجاه الفينومينولوجي يصور الواقع الاجتماعى على أنه مجرد المعانى والخبرات الفردية المشتركة ويهمل تماما الأساس الاجتماعى - الاقتصادى للمجتمع ويجعل وحدة تحليله أفكار الأفراد ويسلم بثبات البناء الاجتماعى ضمنا عن طريق استبعاده من مجال الدراسة ويجعل الانسان عاجزا حيال هذا الواقع الاجتماعى ويدعوه الى التأمل فى ذاته واكتشافها وتغييرها بدلا من دعوته لتغيير واقع الاجتماعى ، والاتجاه الفينومينولوجي لا يعتمد على أى متغيرات تاريخية فى تفسيره للظواهر الاجتماعية ولا يميز بين المجتمعات فى اطار الزمان أو المكان والأدلة الواقعية تنفى صحة المسلمات الأساسية التى ينهض عليها هذا الاتجاه . وأخيرا فان العلماء الاجتماعيين النقديين يعتبرون الاتجاه الفينومينولوجي اتجاها محافظا من الناحية الايديولوجية .

Martin David. The Sociology of Knowledge In. Remling (٢٤)
(ed.), Opt. cit., p. 313.

Peter Hamilton. Knowledge And Social Structure. Routledge and Kegan Paul. London. 1974 p. 80. (٢٥)

الفصل الحادى عشر

السلوكية الاجتماعية (*)

Social Behaviorism

أول من استخدم هذا المصطلح عالم الاجتماع الأمريكى جورج هيربرت ميد صاحب الاتجاه المعروف باسم التفاعل الرمضى Symbolic interaction وقد استخدمه بعد ذلك دون مارتندال فى كتابه « طبيعة وأنماط النظرية الاجتماعية » ليشير به الى مجموعة من النظريات المتنوعة ولكنها تشترك فى خاصية أساسية هى اعتبار السلوك الموضوع الأساسى لعلم الاجتماع، مما جعلها تختلف عن النظريات الوضعية العضوية ونظريات الصراع التى اهتمت بالبناء الاجتماعى والنظريات الشكلية formalisms التى اهتمت بالعلاقات المتبادلة كما حاولت هذه النظريات السلوكية الاجتماعية أن تبتكر أساليب أمبيريقية جديدة للدراسة الاجتماعية (١) .

ومن أعلام المدرسة السلوكية الاجتماعية جبريل تارد Tarde وفرانكلين هنرى جيد نجز Ciddings (أمريكى) وادوارد روس Ross (أمريكى) وتشارلس هورتون كولى Cooley (أمريكى) وويليام توماس Thomas (أمريكى) وجورج هيربرت ميد Mead (أمريكى) وماكس فيبر (ألمانى) وتورستون فبلن Veblin (أمريكى) وجون كومونز Commons (أمريكى) وروبرت ماكيفر MacIver (أمريكى) وفلورين زنانيكى . كما أن أعمال بارسونز الأولى يمكن أن تدرج تحت هذا الاتجاه .

ويرى مارتندال أن هذا الاتجاه قد ظهر وتبلور فى الفترة ما بين ١٨٩٠ و ١٩١٠ وهى الفترة التى بدأ علم الاجتماع فيها يتخذ وضعاً

(*) يسمى هذا الاتجاه فى بعض المؤلفات بالاتجاه السيكلوجى .
D. Martindale, Opt Cit., p. 285.

(١)

أكاديميا معترف به وأصبحت له مؤسساته وأصبح مهنة متخصصة • وكان على علماء الاجتماع أن يحددوا لأنفسهم مجالا متميزا ومهام محددة • ومن هنا بدأ أصحاب هذا الاتجاه برفض الكيانات الاجتماعية الكلية كوحدة للتحليل الاجتماعي (المجتمع الكلي أو المجتمع الانساني) وركزوا بدلا من ذلك على السلوك بوصفه وحدة التحليل ، وارتبطت بذلك محاولة تقديم منهج مناسب لدراسة هذا السلوك يجعل من علم الاجتماع علما أمبيريقيا يعتمد على استخدام أساليب مثل الاحصاء والمقاييس ودراسة الحالة وتاريخ الحياة والأساليب المقارنة (٢) •

ومن الواضح أن هذا الاتجاه قد حول الاهتمام من دراسة الكيانات الكلية الاجتماعية الى دراسة الكيانات الصغيرة أي أنه يمثل في نفس الوقت اتجاه دراسة الوحدات الصغرى micro-sociology وسوف نلاحظ عند عرضنا لأعمال ممثلي هذا الاتجاه أنه يركز على نفس المسلمات الرئيسية عن طبيعة الواقع الاجتماعي (واقع فكري يتسم عموما بالثبات) وطبيعة الانسان (عديم القدرة على تغيير واقعه) التي ارتكزت عليها النظريات الكلاسيكية المثالية والنظريات الحديثة (مثل الوظيفية والفينومينولوجيا) كما أنه يتخذ نفس الموقف من الأوضاع القائمة في المجتمع (تجاهل الصراع الاجتماعي والتسليم بمشروعية النظام) •

وعلى الرغم من اشتراك ممثلي هذا الاتجاه في هذه الخواص الرئيسية إلا أن بينهم اختلافات في التفاصيل التي يهتمون بها مما جعل مارتندال يصنفهم الى ثلاث اتجاهات فرعية داخل السلوكية الاجتماعية هي :

- | | |
|-------------------------|-----------------------|
| Pluralistic Behaviorism | ١ - السلوكية الجماعية |
| Symbolic Interaction | ٢ - التفاعل الرمزي |
| Social Action | ٣ - الفعل الاجتماعي |

ولكننا نرى أنه يمكن إضافة ثلاثة اتجاهات فرعية أخرى لهذه الاتجاهات الثلاثة لأنها تشترك معها في نفس الخصائص العامة هي :

١ - الاتجاه الموقفى Situational approach ويمثله ويليام ايزاك توماس Thomas (١٨٦٣ - ١٩٤٧) الذى اعتبر القيم والاتجاهات هي الوقائع السلوكية التى يجب أن يهتم علماء الاجتماع بدراستها ويجب أن يتم ذلك فى إطار الموقف الذى يحدث فيه السلوك (٣) .

٣ - اتجاه التبادل Exchange approach ويمثلها جورج هومانز Homans الذى حاول الجمع بين الاتجاهات الموقفية والفعل الاجتماعى والوظيفية والذى اعتبر السلوك الاجتماعى موضوع علم الاجتماع . وكذلك الفن جولدز ويلاو Blau .

٣ - نظرية المجال field Theory ويمثلها كورت ليفين Lewin (١٨٩٠ - ١٩٤٧) وتعتبر نظريته نظرية سيكولوجية تماما حيث كان موضوع اهتمامه الفرد وكيفية تأثر ادراكه واستجاباته بالعوامل التى توجد فى المجال أو الموقف الذى يحدث فيه السلوك .

وسوف نكتفى هنا بعرض نموذجين للسلوكية الاجتماعية هما السلوكية الجمعية والتفاعل الرمضى .

أولا : اتجاه السلوكية الجمعية :

يعتبر اتجاه السلوكية الجمعية أقدم الاتجاهات فى مدرسة السلوكية الاجتماعية وترجع نشأته الى أعمال عالم الاجتماع الفرنسى جبريل تارد (١٨٤٣ - ١٩٠٤) وقد أطلق على هذا الاتجاه تسميات مختلفة تدل جميعها على مضمونه مثل : اتجاه التقليد - الايحاء ، أو الاتجاه السيكولوجى أو الاتجاه السيكولوجى الاجتماعى : ولكن جيندنجز عالم الاجتماع الأمريكى أسماه السلوكية الجمعية Pluralistic Behaviorism ويسلم أصحاب هذا الاتجاه بأن النواة الأولية فى بناء المجتمع

(٣) يمكن الرجوع الى :

Morris Janowitz, ed., W. I. Thomas on Social Organization and Social Persoaulity Chicago : University of Chicago Press, 1965.

تتكون من شخصين يؤثر أحدهما في الآخر تأثيراً روحياً ، والعلاقة التي تنشأ بين هذين الشخصين هي العنصر الضروري الوحيد للحياة الاجتماعية وهي موضوع دراسة علم الاجتماع الذي يجب أن يهتم بما يدور بين عقول الأفراد من تفاعل ويبحث معتقدات وأفكار ورغبات هؤلاء الأفراد وكيفية تعبيرها عن نفسها في صورة سلوك يمكن ملاحظته أو وحدات من الأفعال المتكررة Repeated unit acts .

ولا يهتم أصحاب هذا الاتجاه بالبعد التاريخي للحياة الاجتماعية ولا بالبناء الاجتماعي الكلي بل أن الأمر يصل بهم إلى حد المطالبة بتغيير اسم علم الاجتماع إلى علم نفس المجتمع (٤) .

وسوف نعرض فيما يلي بإيجاز لأهم أصحاب هذا الاتجاه : تارد وجيدنجز .

١ - جبريل تارد :

رأى جبريل تارد (١٨٤٣ - ١٩٠٤) مؤسس هذا الاتجاه أن أساس الحياة الاجتماعية هو المعتقدات والرغبات التي تتخذ مسميات مختلفة مثل : العقائد والعواطف والقوانين والعادات الجمعية والأخلاق ... الخ .

ووظيفة علم النفس دراسة العلاقات المتبادلة بينها في عقل الفرد ولكن وظيفة علم الاجتماع دراسة العلاقات المتبادلة بينها في عقول الأفراد ، ووسيلة دراستها الإحصاء الذي يساعدنا على تعداد الأفعال المتشابهة والتي تمثل التعبيرات الظاهرة للمعتقدات والأفكار .

ورأى تارد أن هناك ثلاث عمليات اجتماعية أساسية يحدث بمقتضاها التفاعل بين المعتقدات والأفكار هي : التكرار (التقليد) والمعارضة والتكيف ، وألف تارد ثلاثة كتب يعالج كل منها إحدى هذه العمليات هي : قوانين التقليد Les Lois de l'imitation والمعارضة العامة L'apposition

F. H. Giddings. Studies in the Theory of Human Society (٤)
(New York, Macmillan, 1922) p. 252.

Universelle والمنطق الاجتماعي La Logique Sociale (٥) •

والحياة الاجتماعية في رأى تارد تعتمد على تفاعل عاملين :
الاختراع والتقليد ، فالاختراع ، وهو في جوهره ظاهرة فردية ، يضمن
للمجتمع التجديد والتقدم والتقليد يضمن للمجتمع الاستمرار • وقد كتب
تارد في كتابه قوانين التقليد « ان المجتمع لا يستطيع ان يعيش ولا ان
يتقدم الى الامام ولا ان يتطور دون ان يعتمد على ينبوع الروتين والتقليد
الذي لا ينضب والذي يتزايد باستمرار مع تعاقب الأجيال » •

وشبه تارد الميل التلقائي لدى الانسان للتقليد بتقليد القروء وتقليد
الخراف ، وبناء على ذلك عرف تارد المجتمع بأنه « مجموعة من الناس
تربط بينهم روابط اما لانهم ينادون بعضهم واما لأن بينهم نوعا من التشابه
والصفات العامة وهي في مجموعها لاتخرج عن كونها صورا قديمة
لنموذج واحد (٦) » •

والأسرة تعتبر في رأى تارد المسئولة عن انتقال الأفكار والمعتقدات
وعن ظهور اشكال اجتماعية أكثر تعقيدا •

والمعارضة عند تارد تعنى الصراع بين موجتين من موجات التقليد
تأتيان من مصادر مختلفة • فالصراع في المجتمع هو صراع الافكار
والمعتقدات ولا صلة له بصراع المجموعات الاجتماعية او صراع المصالح •
وتتخذ المعارضة صورا مختلفة مثل الحرب والتنافس والمناقشة •

أما التكيف فيعنى الوصول الى حالة من الاستقرار بعد تقبل
الاختراعات الجديدة وانتشارها عن طريق التقليد •

وفسر تارد ظهور الاشكال الاجتماعية المختلفة تفسيراً سيكولوجياً
مستخدماً مفهومى الاختراع والتقليد • فالافراد الموهوبون المخترعون
كونوا مجموعة النبلاء التي احتكرت الاختراعات والتي كانت مصدراً

Martindale. Opt. Cit., p. 307.

(٥)

(٦) السيد محمد بخوي • مبادئ علم الاجتماع • دار المعارف • القاهرة • ١٩٧١

ص ١٤٩ - ١٥٠ •

مشعا لموجات التقليد ثم حلت محلهم المدينة كمصدر للاختراعات وأخيرا أصبحت الأمة هي المصدر العام للاختراع وموجات التقليد (٧) .

ويعتد تارد مسئولا عن ذبوع الاتجاه النفسى فى علم الاجتماع وعن ظهور علم النفس الاجتماعى كفرع مستقل للدراسة وكان له تأثير كبير على ظهور دراسات التغير الاجتماعى والضبط الاجتماعى وعلم الاجرام . وقد تأثر به الكثير من علماء الاجتماع الأمريكىين الشهيرين أمثال جيندنجز وروص وأجيورن وتيمكوف وعبروا عن آرائه ومسلماته الأساسية بطرق مختلفة .

وسوف نتناول هذه المسلمات الأساسية بالنقد بعد انتهائنا من عرض آراء ممثلى الاتجاهات المختلفة داخل مدرسة السلوكية الاجتماعية نظرا للتشابه الكبير بين كافة ممثلى هذه المدرسة فى الأسس التى تركز عليها نظرياتهم وإن اختلفوا فى النقاط الفرعية التى يركز عليها كل منهم .

٢ - فرنكلين هتري جيندنجز F. H. Giddings :

اتفق جيندنجز مع تارد فى تسليمه بأن هدف علم الاجتماع هو دراسة العلاقات المتبادلة بين سيكولوجية الأفراد وأن وحدة التحليل الأساسية هى وحدات الفعل أو السلوك وأن أنسب أسلوب للدراسة هو الاحصاء .

وركز جيندنجز (٨) اهتمامه على نوع معين من العواطف أو الأفكار التى توجد فى عقول الأفراد وهى ما أسماه بالشعور بالنوع Consciousness of Kind ورأى أن هذا الشعور هو أساس المجتمع الإنسانى وهو الذى يحدد العلاقات بين أفراد (٩) وعلى هذا فالمجتمع يمثل أساسا ظاهرة نفسية . والشعور بالنوع هو الذى يجعل كل شخص يدرك وجود غيره

Martindale. Opt. Cit., p. 308.

(٧)

(٨) من أهم مؤلفات جيندنجز :

The Principles of Sociology (New York, Macmillan. 1928).

The Elements of Sociology, 1916.

The Scientific Study of Human Society, 1924.

(٩) مصطفى الخشاب . علم الاجتماع ومدارسه . الكتاب الثالث . الدار القومية للطباعة

والنشر : القاهرة ، ١٩٦٦ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

على أساس التشابه بينهما فى النوع (سواء كان هذا الادراك عضويا
أو عاطفيا أو يتعلق بالرغبة) .

ورأى جيندنجز أن الشعور بالنوع « يجعل الأفراد يتصرفون بطريقة
معينة بحيث تتحقق بينهم فى لحظة معينة عواطف مشتركة ، كما توصلون
الى أحكام متشابهة . وقد يسلكون فى بعض الأحيان نفس المسلك . من
ثم يمكن أن يؤدى هذا التفاعل الى ظهور هذا العقل الاجتماعى . وهذا
الوعى بالنوع هو الذى يجعل أى تجمع للأفراد يتحول الى مجتمع .

وقد ميز جيندنجز فى كتابه علم الاجتماع الاستقرائى Inductive
Sociology بين خمس أنواع من الشعور بالنوع .

- ١ - التعاطف العضوى .
- ٢ - ادراك التشابه .
- ٣ - التعاطف المتبادل .
- ٤ - الحب .
- ٥ - الرغبة .

وتحدد طبيعة كل من هذه الأنواع من الشعور بالنوع (أو التماثل
العقلى) كل ما هو أساسى بالنسبة للمجتمع مثل التنظيم الاجتماعى أو
المؤسسات والطبقات الاجتماعية . ويترتب على هذا الشعور بالنوع تماثل
فى الاستجابات لدى الأفراد الذين لديهم هذا الشعور . ويمكن تصنيف
الشخصيات التى توجد فى المجتمع على أساسه التماثل بينهم فى
الاستجابات الى أربعة أنماط من الشخصية : النمط القوى forceful
والنمط المرح Convivial والنمط المتزمت the austro والنمط السواعى
العقلانى the rationaly Conscious ويرتبط بهذه الأنماط الأربعة من
الشخصية أربعة أنماط عقلية هى : الفكرى الحركى the ideo-motor
والفكرى العاطفى the ideo-emotional والعاطفى المتزمت the dogmatic

emotional والمتقف النقدي theoretical lintellectual وبناء على هذه التقسيمات السيكولوجية للناس فى المجتمع قسم جيدنجز المجتمع الى ثلاثة انواع من الطبقات : طبقات الحيوية وطبقات الشخصية والطبقات الاجتماعية .

ولا تدخل النواحي الاقتصادية فى تحديد أى من هذه الطبقات ولكنها جميعا تعتمد على الخصائص السيكولوجية والبيولوجية . ورأى جيدنجز أنه يمكن تقسيم الناس فى المجتمع من حيث الحيوية الى طبقة ذات خصوبة عالية (تتميز بارتفاع معدلات المواليد وانخفاض معدلات الوفيات وتوجد بالريف) ، وطبقة ذات خصوبة متوسطة وتضم رجال الأعمال والمهنيين وطبقة ذات خصوبة منخفضة تتميز بارتفاع معدلات المواليد وارتفاع معدلات الوفيات وتضم العمال فى المدن . كما يمكن تقسيم الناس الى طبقات حسب شخصيتهم فهناك طبقة العباقرة وطبقة المراهبين وطبقة العاديين وطبقة المعوقين . أما الطبقات الاجتماعية فتتحدد على أساس الاسهام فى الحياة الاجتماعية . فهناك الطبقة الاجتماعية الحقيقية والطبيعية والتي تمثلها الأرستقراطية وتتميز بدرجة عالية من الشعور بالنوع وهناك الطبقة الزائفة التى تتصف بدرجة منخفضة من الشعور بالنوع (١١) .

ثانيا : اتجاه التفاعل الرمزي Symdolic interaction :

يتفق اتجاه التفاعل الرمزي مع اتجاه السلوكية الجمعية فى المسلمات الأساسية التى يعتمدان عليها فيما يتعلق بطبيعة الواقع الاجتماعى ووحدات التحليل الاجتماعى الصغرى ، ولكنهما يختلفان من حيث أن اتجاه السلوكية الجمعية الذى ظهر فى أوربا قد تأثر الى حد كبير بعلم النفس التجريبي ، بينما تأثر اتجاه التفاعل الرمزي الذى ظهر فى أمريكا بالفلسفة البراجماتية (النفعية) ، كما أن اتجاه السلوكية الجمعية قد جعل موضوع التقليد محور اهتمامه بينما ركز اتجاه التفاعل الرمزي على الاتجاه والمعنى meaning and attitude ولذلك جعل الشخصية

أو الذات محور دراسته (١٢) .

ومن أبرز ممثلي اتجاه التفاعل الرمزي تشارلز هورتون كولي
Horton Gooley Charles وجورج هيربرت ميد George Herbert Mead .

تشارلز كولي :

رأى كولي أن التصورات التي يكونها الناس عن بعضهم البعض
تشكل الحقائق الأساسية بالمجتمع ، وعلى هذا عرف المجتمع بأنه « ظاهرة
عقلية أو علاقة بين أفكار شخصية » ورأى أن مهمة علم الاجتماع دراسة
العلاقة بين الذات Self والمجتمع عن طريق تحليل التخييلات أو التصورات
التي توجد لدى الناس عن بعضهم البعض (١٣) . وقد عبر كولي عن ذلك
بقوله :

« ان المجتمع ... عبارة عن علاقة بين أفكار شخصية . فلكي يوجد
مجتمع ما لابد ان يلتقي الأشخاص سويا في مكان ما ، وهؤلاء الأشخاص
يلتقون سويا على المستوى الفكري في العقل ... وليس هناك مجال
آخر يمكن التقاء الأشخاص فيه غير هذا المجال المشترك ... فالمجتمع
يوجد في عقلي على شكل التقاء أفكار معينة مثل « أنا » و « توماس »
« وهنري » وسوزان ... الخ . وهو يوجد في عقلك بنفس الكيفية وهكذا
يوجد في كل عقل » .

ورأى كولي أن الذات عبارة عن بناء تخيلي imaginative
reconstruction للكيفية التي يدرك بها الشخص تفسير الآخرين لمظهره .
وقد أشار كولي للذات بتعبير الذات المرآة Looking - glass Self
ورأى أن هذه الذات تتكون من ثلاثة عناصر أساسية :

تصور كيف تبدو بالنسبة للشخص الآخر ، وتصور حكمه على هذا
المظهر الذي يراه منا ، وشعور ما بالذات كالفخر أو الخزي (١٤) .

Don Martindale. Op. Cit., p. 339.

(١٢)

Charles Horton Cooley, Human Nature and the Social
Order (New York, Charles Scribner's Sons, 1902, pp. 121 - 22.

Ibid. pp. 183 - 184.

(١٤)

ولكى نكشف عن تصورات الناس يجب أن تتبع أسلوب الاستبطان التعاطفى *eympathetic introspection* ، أى أن يضع الباحث نفسه فعلا أو تصورا فى موقف مبحوثيه ثم يستخدم خياله فى اعادة بناء العلاقة بين المنبهات التى توجد فى هذا الموقف وبين ما يلاحظه من نشاط سلوكى . والمادة التى يحللها علم الاجتماع تتكون من تخیلات الناس عن بعضهم البعض وكذلك من الأفكار التصورية والتفسيرية للباحث . ورأى كولى أنه يمكن الجمع بين الطريقة التعاطفية الاستبطانية وبين الطريقة الاحصائية فى البحث الاجتماعى .

وقد طور كولى مفهومه عن الذات المرآة وطبقه على المجموعات الانسانية وكيفية التنظيم الاجتماعى . وقد ميز بين نوعين من المجموعات : ما أسماه بالمجموعات الأولية وما أسماه بالمجموعات الثانوية . وقد عرف المجموعة الأولية *Primary group* كما يأتى :

أعنى بالمجموعة الأولية تلك التى تتصف بالعلاقات الحميمة والمباشرة *face to face* والتعاون بين أعضائها ، وهى أولية من عدة نواحى أهمها أنها أساسية فى تشكيل مثل الفرد وطبيعته الاجتماعية . والنتيجة السيكولوجية للعلاقة الحميمة هى امتزاج الأفراد فى كل مشترك بحيث تصبح ذات كل فرد هى الحياة المشتركة للمجموعة . وربما كانت أبسط طريقة نصف بها هذا الشكل المشترك هى أن نسميه « نحن » *we* ، ففي هذه المجموعة يكون تعبير « نحن » هو التعبير الطبيعى عن التعاطف والتوحد المتبادل بين الأعضاء . فالعضو يعيش فى شعور المجموع ويجد أهدافه الأساسية فى ذلك الشعور » (١٥) .

ومن أمثلة هذه المجموعات الأولية الأسرة وجماعة اللعب وجماعة الجوار وجماعة المسنين . والمجموعة الأولية ذات أهمية كبرى فى تكوين الطبيعة الاجتماعية للفرد وفى تكوين مثله . وهذه المثل التى تنشأ فى المجموعة الأولية هى التى تشكل وحدة وبناء العقل الاجتماعى . ومثلما يمكن تصنيف الشخصية الى أنماط على أساس ما تحويه من أفكار

ومثل ، يمكن تصنيف البناء السياسى والدينى والأسرة والفن واللغة الى أنماط (١٦) . وقد كان لكولى تحيزاته السياسية الواضحة بحيث رأى بعض المفكرين أن نظريته محافظة الى حد بعيد من حيث أنه كان يرى أن شكل المجموعة الأولية هو الأمثل بالنسبة للمجتمعات (١٧) كما أنه دافع عن الاستعمار الأمريكى مستخدماً فى ذلك نظريته عن الذات المرآة حيث رأى أن الوعى بالذات لدى الأمريكيين أرقى منه لدى غيرهم (١٨) .

جورج هيربرت ميد :

اتخذ ميد (١٨٦٣ - ١٩٣١) نفس الاتجاه السلوكى فى تفسيره للعمليات التفاعلية بين الأفراد فى المجتمع . وقد رأى ميد أن العقل نتاج للاتصال الانسانى وأن الوعى بالذات والشخصية انما هما نتاج للمقدرة الانسانية على الاتصال باستخدام الاشارات الفيزيائية والأصوات الرمزية . وقد رأى ميد أن وحدة التحليل يجب أن تكون الفعل الاجتماعى وعرف الفعل الاجتماعى بأنه فعل متبادل بين فردين أو أكثر . وقرر ميد أن اللغة تمثل الخاصية المميزة للانسان وأنها قد ظهرت نتيجة للتفاعل بين الأفراد ، وأول صورة لها هى الاشارات gestures التى يعبر بها الانسان عن انفعالاته . وتصبح هذه الاشارات وسيلة هامة فى التفاعل الرمضى حيث تكتسب معنى يتفق عليه كل أعضاء المجموعة . والاشارات هى أساس اللغة كما أنها أساس النشاط العقلى (١٩) . والوظيفة الأساسية للاشارات هى تسهيل السلوك العقلانى وجعل التنظيم الاجتماعى الذى يتسم بالثبات شيئاً ممكناً .

ومن خلال التفاعل الرمضى بين الأفراد ينشأ الوعى بالذات لدى كل

Theodor Abel. The Foundation of Sociological Theory, (١٦)
New York.

Philip Rieff, Introduction to Cooley's Social Organiza- (١٧)
tion. p. 23.

Schwindinger op. cit. (١٨)

George H. Mead. Self and Society, ed. Chartes W. Morris (١٩)
(Chicago, Univerty of Chicago Press, 1934). p. 7.

فرد • وهذا الوعي بالذات يحدث عندما يستطيع الفرد أن يفسر عقليا المعنى الرمزي لأشاراته • ولا يستطيع الفرد أن يشعر بذاته إلا من خلال اشارات الآخرين التي تحمل معنى رمزيا • أى أن الوعي بالذات يتم عن طريق أن يجعل الشخص ذاته موضوعا Object للملاحظة تماما مثلما يجعل الآخرين موضوعات لهذه الملاحظة •

والذات تتكون لدى الفرد من خلال عملية التفاعل فى المجموعة • فالذات لا يولد بها الشخص ولكنها تنشأ عن طريق الخبرة والنشاط الاجتماعى وعلى هذا فان أساس الذات يتكون فى مرحلة التطبيع الاجتماعى أثناء الطفولة ، ويمر تكوين الوعي بالذات بثلاث مراحل تطويرية : مرحلة المحاكاة فى الأفعال Imitative acts ومرحلة اللعب The Play stage ومرحلة الامتثال بقواعد اللعبة The game stage والمرحلة الأولى تحدث خلال السنة الثانية من العمر حيث يقلد فيها الطفل سلوك الآخرين المحيطين به مثل الآباء والأخوة والأخوات أما المرحلة الثانية فانها تبدأ عندما يصل الطفل الى سن الثالثة وتتسم بميل الطفل الى اتخاذ أدوار الآخرين حيث يلعب دور الأم أو دور المدرس أو رجل الشرطة وفى هذه المرحلة يبدأ الطفل فى الخروج عن نطاق نفسه أى أنه يبدأ فى الاهتمام باتجاهات الآخرين نحوه بوصفه موضوعا • واتخاذ دور الآخر Role taking هو العملية الأساسية فى تكوين الذات (٢٠) • وفى مرحلة اللعب هذه يكتسب الفرد مجموعة من « الذوات Selves » يتم التكامل بينها فى المرحلة الثالثة The game stage وهى المرحلة التى تظهر فيها الذات الموحدة Unified self وفى هذه المرحلة يصبح الطفل قادرا على تبني اتجاهات كل أعضاء المجموعة التى ينتمى إليها وعلى تصور دور كل فرد فى المجموعة والقيام به • وقد أسمى ميد المجموعة الاجتماعية التى يكون الفرد من خلالها ذاته الموحدة بالآخر المعمم Generalized other • ومن خلال هذا الآخر المعمم يمارس المجتمع الضبط على سلوك الأفراد الأعضاء فيه •

تعليق عام على نظريات السلوكية الاجتماعية :

انتشرت الاتجاهات المختلفة للسلوكية الاجتماعية وتبلورت فى الولايات المتحدة الأمريكية مع بداية القرن العشرين وكان لعلمائها تأثيرات كبيرة على الكثير من مجالات الدراسة والبحث فى علم الاجتماع . والسمة العامة المشتركة بين اتجاهات السلوكية الاجتماعية هى تركيزها على تحليل الوحدات الصغرى فى المجتمع Micro-Analysis (للفرد والمجموعة الصغيرة) وعلى دراسة الجوانب السلوكية والسيكولوجية للأفراد (الاتجاهات والقيم والأفعال . . الخ) وتجاهل تحليل الوحدات الكبرى للمجتمع Micro-Analysis . وبذلك اختزلت السلوكية الاجتماعية الحياة الاجتماعية بأسرها الى مجرد حالات سيكولوجية مجتزأة تماما من سياقها العام ، كما أن أسلوب دراستها تركز على الاستبطان وملاحظة السلوك وأغفلت تماما الأسلوب التاريخي .

والنتيجة الحتمية لكل ذلك أن السلوكية الاجتماعية قد استبعدت النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي من نطاق الدراسة أو جعلته موضوعا غير مشكل Non-Problematic ويعنى ذلك فى المقام الأول اتخاذ موقف ايجابي غير نقدي من الأوضاع القائمة تماما مثلما فعل أصحاب الاتجاه الوضعي ومن تلاهم من العلماء وتوجيه اهتمام الباحثين الى دراسة التفاصيل الصغيرة فى الحياة الاجتماعية وصرف اهتمامهم عن دراسة القضايا الأساسية للمجتمع . كما أن مفهوم أصحاب السلوكية الاجتماعية عن التغير الاجتماعي انحصر فى نطاق التغير السيكولوجي للأفراد وليس التغير فى الأنساق الاجتماعية الكبرى .

وقد كشف بعض العلماء الأمريكيين الراديكاليين عن التحيزات الأيديولوجية والسياسية لكثير من أصحاب اتجاهات السلوكية الاجتماعية . فقد استخدم كولى مثلا فكرة الشعور بالذات The feeling or self ليبر بها استعمار البلاد الأنجلو ساكسونية لبلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، حيث قرر أن الأمريكيين والبريطانيين يتسمون بالاعتماد على

الذات والمثايرة وضبط النفس مما يجعلهم أكثر رقياً بالنسبة لغيرهم .
 كما استخدم نفس هذه الادعاءات فى تبرير قمع واستغلال المجموعات
 القومية والعنصرية فى الولايات المتحدة ذاتها . كما أن جينينجز دافع
 عن الحرب الامبريالية ضد اسبانيا وعن توسيع رقعة الامبراطورية
 الأمريكية عن طريق الغزو وقد اشترك مع جينينجز فى ذلك كثير من
 السلوكيين الاجتماعيين أمثال روص وكولى .

الفصل الثاني عشر

الاتجاهات الراديكالية

شهدت الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية ابتداء من ستينات القرن العشرين اتجاها متزايدا بين المتخصصين في علم الاجتماع وخاصة الشباب منهم نحو نقد وإعادة تقييم نظريات علم الاجتماع السائدة وعلى وجه الخصوص النظرية الوظيفية وما تضمنته من مسلمات وما تحتوى عليه من مضمون أيديولوجي وما يشير اليه من اجراءات عملية تطبيقية .

ان أهم نقد وجه لنظريات علم الاجتماع التقليدي أو علم اجتماع المؤسسة establishment sociology كما يسميه الراديكاليون هو أن هذه النظريات ليست سوى تبرير أيديولوجي للنظام الرأسمالي الامبيريالي وأنها تدعيم باسم العلم للوضع القائم statusquo وقد تبلور التيار الراديكالي في علم الاجتماع بوصفه نقدا جذريا لعلم الاجتماع التقليدي وبوصفه دعوة لاحداث تغيير جذري في النظام الاجتماعي القائم في الغرب يؤدي الى استبداله بنظام آخر جديد .

ويرى المؤرخون لعلم الاجتماع الراديكالي (١) أنه قد ظهر بقوة في الولايات المتحدة الأمريكية نظرا لعوامل متعددة سادت المناخ السياسي والاجتماعي في هذه البلد أهمها فقدان الشباب لثقتهم في النظام الأمريكي واكتشافهم لزيغ ادعاءات القوى الحاكمة عن أنها تهدف للتقدم والسلام والرخاء والعدالة الاجتماعية .

فقد رأى الشباب كيف ان كل ما تفعله القوى الحاكمة مضاد تماما

J. D. Colfax and J. L. Roach (eds.) Radical Sociology. (١)
Basic Books. New York. 1970. pp. 3 - 21.

لادعاءاتها فالبطالة تتزايد والتفاوت الطبقي يتزايد وفتح المعارضين للحكم يتخذ أعنف الصور حتى يصل الى الاغتيال والسياسة الخارجية تعتمد على اباداة الجنس البشرى فى فيتنام وعلى التدخل المسلح فى أمريكا اللاتينية وآسيا . كما شاهد الشباب زيف الديمقراطية التى يدعيها الحكام وكيف يقتل المنادون بالحرية باسم القانون والنظام . وكان من جراء ذلك أن فقدت الشعارات الرائجة عن الحرية والديموقراطية والعدالة معناها بالنسبة لهم .

وبدأ المثقفون وبخاصة الطلبة يشيرون أسئلة لم تكن تثار من قبل حول الطبيعة السياسية للمؤسسات التعليمية التى كانت تدعى أن مهمتها الأساسية كشف الحقيقة وإجراء البحوث الحرة . بدأ طلاب علم الاجتماع بالذات يتساءلون عن الدور السياسى لعلم الاجتماع ، فقد لاحظ هؤلاء الطلاب أن علماء الاجتماع لم يولوا الأحداث الجارية فى المجتمع أى اهتمام . وفى الوقت الذى كان المجتمع الأمريكى مسرحاً للغليان السياسى والاجتماعى حيث بدأت ثورة الملونين على استغلالهم ومطالبتهم بحقوقهم المدنية وثورة الشباب على الحرب فى فيتنام واضرابات العمال لزيادة الأجور - فى هذا الوقت كان علماء الاجتماع يتشدقون بمفاهيم الاجتماع القيمى value Consensus التى ابتدعها تالكوت بارسونز ومفاهيم الوظيفية الكلية Pan-functionalism التى ابتدعها دافيز وكان أخصائيو التدرج الاجتماعى يتحدثون عن الأبعاد الوظيفية للمساواة الاجتماعية ويدافعون عن التفاوت الطبقي . وكان أخصائيو العلاقات العنصرية يبررون استغلال الملونين ويصرفون الناس عن الاهتمام بأسبابه الحقيقية مدعين أن اسباب التعصب العنصرى ترجع الى عوامل سيكولوجية يمكن علاجها فيسود السلام الاجتماعى بين البيض والملونين .

ولاحظ طلاب علم الاجتماع أن هذا العلم ، مثل الجامعات التى تضمه ، يلعب دوراً هاماً فى خدمة القوى الاجتماعية المسيطرة . فقد لعب علماء الاجتماع دوراً كبيراً فى رسم السياسة الحكومية وتنفيذها من خلال وظائفها كمستشارين ومدرسين وخبراء وإداريين . فعلى الرغم من أن علماء الاجتماع لم يكن بإمكانهم تصميم الأسلحة أو

ابتداع وسائل لنقل المواد الخام من بلدان العالم الثالث الى الصناعات الرأسمالية مثل غيرهم من العلماء فانهم كانوا يستطيعون تقديم النصيح للمؤسسة العسكرية الرأسمالية فيما يتعلق بأساليب حشد التأييد لبرامجها وتقديم تبريرات عملية لاستغلال وتحذير فقراء أمريكا والعالم الثالث باسم التنمية الاجتماعية والديموقراطية . وقد حصل هؤلاء العلماء المشهورون على المكافآت السخية لجهودهم فى شكل مناصب وأموال طائلة ينفقونها على أبحاثهم .

فى هذا المناخ السياسى والاجتماعى والأكاديمى كانت أعداد الشباب الذين يلتحقون بأقسام الاجتماع تتزايد وكان الكثيرون منهم يهدفون من وراء ذلك الى فهم المجتمع الذى يعيشون فيه من أجل الاسهام فى حل بعض مشكلاته ، ولكن هذه الآمال ما لبثت أن خابت حيث اكتشف هؤلاء الشباب أن أقسام الاجتماع بدلا من أن تزودهم بالمعرفة والمهارات اللازمة لمعالجة القضايا الاجتماعية توجههم الى دراسة مسائل أكاديمية شكلية وأنهم يملون بعملية تطبيع اجتماعى أو « غسيل مخ » يستبدلون مسئوليتهم الاجتماعية بمسئولية مهنية محدودة .

وفى الوقت الذى كانت فيه حركات الاحتجاج ضد السياسات الداخلية والخارجية للحكومة الأمريكية وللحكومات الأوربية والغربية تتخذ شكلا منظما أخذت حركات نقد مضمون وأهداف علم الاجتماع الغربى تتبلور بشكل واضح وحدث تداخل بين النوعين من الحركات (السياسية والأكاديمية) ونظم شباب علم الاجتماع مجموعات عمل ومؤتمرات لكشف العلاقة بين علم الاجتماع والسياسة وطالبوا بأن يحدد المشتغلون بعلم الاجتماع موقفهم من القضايا الرئيسية للمجتمع بوضوح . ومن أمثلة هذه المجموعات فى الولايات المتحدة حركة تحرير علم الاجتماع Sociology liberation movement التى ضمت طلاب الدراسات العليا وأعضاء هيئة التدريس بأقسام الاجتماع بالجامعات الأمريكية والتى نظمت حلقات دراسية تحت شعار : المعرفة لمن ؟ والتى شاركت فى مؤتمرات الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع ودعت العلماء التقليديين الى اتخاذ مواقف علمية وإنسانية من قضايا المجتمع الأساسية . ومن أمثلتها

أيضا رابطة علماء الاجتماع الراديكاليين Union of radical Sociologists وطالبت هذه الجماعات من خلال ما تنشر من دوريات ومؤلفات وما تعقده من مؤتمرات بأن يصبح علم الاجتماع قوة مؤثرة في الصراع من أجل التغيير الاجتماعي الجذري ودعت الى الجمع بين الجانب الأكاديمي النظري وبين الممارسة بحيث يلعب عالم الاجتماع نفسه دورا في احداث التغيير الجذري في المجتمع .

وقام الراديكاليون من دارسي علم الاجتماع (٢) بتحليل الموقف السياسي لعلم الاجتماع التقليدي وكشفوا عن حقيقة أن النظام يستخدم علم الاجتماع لتحقيق أهداف السياسة على المستويين الداخلي والخارجي عن طريقين : الطريق الأول جعل علماء الاجتماع يزودون المؤسسات الحكومية والرأسمالية بالمعلومات التي تساعد على رسم سياستها وتنفيذها باجراء بحوث عن الاتجاهات والرأي العام والأسواق والضبط الاجتماعي وزيادة الانتاج والربح وتخفيض التوتر بين العمال والادارة وتقبل الفقراء والمولنين لفقرهم وللغبن الواقع عليهم وجمع معلومات عن المجتمعات الأجنبية لتستفيد منها أجهزة المخابرات في تدبير المؤامرات . أما الطريق الثاني فهو اضافة صفة الشرعية على النظام القائم عن طريق الدعاية الأيديولوجية له باستخدام النظرية الاجتماعية ذاتها كما حدث في حالة النظرية الوظيفية التي يتزعمها تالكوت بارسونز والتي تقدم تعريفات محافظة للواقع الاجتماعي وتدعو الى خضوع الجماهير للنظام الحاكم بدعوى الاجماع القيمي . ولكي يحقق علم الاجتماع هذه الأهداف فإنه يخضع لتنظيم دقيق داخل الجامعات ومراكز البحوث ويحظى علماء الاجتماع بالتأييد والمكانة ومن خلال عملية التعليم يتم تطبيع الطلاب بحيث ينعزلون عن المجتمع ويصبحون في خدمة القوى الحاكمة والمسيطره .

وقد بذلت محاولات لتحديد أهداف يتبناها علم الاجتماع الراديكالي

Albert Szymanski. Toward A Radical Sociology, in Colfax (٢) and Roach. Radical Sociology, Opt. Cit., pp. 93 - 107.

بدلاً من الأهداف المحافظة لعلم الاجتماع التقليدي ومن هذه الأهداف (٣) .

١ - فهم المجتمع والعلاقة بين الإنسان والمجتمع على أساس علمي سليم بتطبيق المنهج العلمي تطبيقاً سليماً ورفض العبودية للمفاهيم التي يروج لها علماء الاجتماع التقليديون أو البحوث الأميريكية المجتزأة التي لا تعتمد على التحليل البنائي للمجتمع مع التركيز على بناء القوة في المجتمع وعلى آليات التغير الاجتماعي الجذري .

٢ - عدم تقبل النظريات السائدة بشكل آلي واخضاعها الدائم للنقد والتحليل والكشف عن مضمونها السياسي .

٣ - الالتزام الصريح الواضح بالقيم الإنسانية وجعل علم الاجتماع وسيلة تساعد على تنمية قدرات الإنسان الحقيقية عن طريق خلق الظروف الملائمة لاشباع احتياجاته وتحريره من الاستغلال .

ولكن كل ذلك لا يشير إلا إلى موقف الراديكاليين النقدي من النظريات التقليدية وأهداف علم الاجتماع الراديكالي وما نحتاج إليه هو معرفة النظرية الاجتماعية البديلة التي يقدمونها .

الواقع أن التعرف على النظرية الاجتماعية الراديكالية أمر بالغ الصعوبة . وتنبع هذه الصعوبة أساساً من اختلاف معنى الراديكالية عند مستخدميها ، فبعض علماء الاجتماع يعتبرون أنفسهم راديكاليين بمجرد أنهم يخالفون الاتجاه العام السائد في الفكر الاجتماعي أو في منهج البحث الاجتماعي . والبعض الآخر يعتبرون أن مجرد التعبير عن المعارضة الأخلاقية للسياسات الاقتصادية أو السياسية مبرراً كافياً لتصنيف أنفسهم على أنهم راديكاليون . وهناك آخرون يرون أن أي موقف نقدي من الأنظمة الاجتماعية يعتبر موقفاً راديكالياً حتى لو كان هذا النقد لا يؤدي إلى أكثر من الدعوة لمجرد أحداث بعض الإصلاحات التكنوقراطية (٤) .

(٣) Albert Szymanski in Colfax and Roach (eds.), Iib p. 98.
 Herman and Julia Schwendinger. The Sociologists of the
 Chair. Basic Books. Inc. New York 1974 p. XXI.

ومن الواضح أن أمثال هؤلاء العلماء الاجتماعيين ليست لديهم
نظرية اجتماعية متبلورة يمكن اعتبارها نظرية راديكالية .

وهناك من يرى أن الراديكالية مرادفة للماركسية ، وعلى هذا
فإن كل من يتبنى النظرية الماركسية في المجتمعات الغربية يعتبر
راديكاليا . ولكن من الممكن القول أيضا أن هناك من العلماء الاجتماعيين
من يدعو إلى التغيير الجذري للمجتمع دون أن يكون ماركسيا بالضرورة ،
كما أن هناك من يتبنى الماركسية في المجتمعات الاشتراكية دون أن
يكون ماركسيا بالضرورة ، كما أن هناك من يتبنى الماركسية في المجتمعات
الاشتراكية أن يكون راديكاليا حيث تستخدم الماركسية في كثير من الأحيان
للحفاظ على الأوضاع القائمة في هذه المجتمعات والحيلولة دون أحداث
تغيير ثوري فيها ينقلها إلى مرحلة تالية من التطور الاجتماعي .

ونحن نرى أن تعريف الراديكالية يجب أن يستبعد كل أولئك الذين
يقتصرون على مجرد نقد بعض الأفكار السائدة في علم الاجتماع أو بعض
الأوضاع السائدة في المجتمع دون المساس بالمسلمات الأساسية التي
تنهض عليها النظريات الاجتماعية أو بالأسس التي تنهض عليها الأنظمة
الاجتماعية . كما أن هذا التعريف يجب أن يستبعد أيضا أولئك الذين
يتخذون فقط موقف الرفض من كل ما هو قائم سواء في العلم الاجتماعي
أو في المجتمع دون أن يقدموا بديلا له يعتمد على التحليل العلمي السليم .

ونرى أن يقتصر تعريف الراديكالية على « الموقف النقدي من
المسلمات والأسس التي تنهض عليها النظريات الاجتماعية التقليدية
وما يرتبط بها من مناهج ومن الأسس التي تنهض عليها الأنظمة الاجتماعية
مع تقديم مسلمة بديلة وتصورات للأنظمة الاجتماعية التي يجب أن
تحل محل الأنظمة القائمة على أساس من التحليل العلمي الصحيح المعتمد
على الأدلة الإمبريقية والتاريخية » .

وقد قدم ثلاثة من علماء الاجتماع البريطانيين^(٥) تصورا لاهم

(٥) Ian Taylor, Paul Walton and Jock Young. Critical Criminology Routledge & Kegan Paul. London. 1975. pp. 23 - 28.

خصائص النظرية الاجتماعية الراديكالية التي تميزها عن النظريات المحافظة والليبرالية نجملها فيما يلي :

أولا : من حيث افتراضات النظرية عن طبيعة الانسان :

تؤكد النظرية الراديكالية على حقيقة أن قدرات الانسان غير محدودة وأن بإمكانه دائما تغيير الواقع المادي والاجتماعي الذي يعيش فيه وكذلك تغيير نفسه ليصبح أكثر انسانية .

ثانيا : من حيث افتراضات النظرية عن طبيعة الواقع الاجتماعي :

تؤكد النظرية على حقيقة أن هذا الواقع دائم التغير وأنه لا يتسم بالسكون أو الثبات كما تدعى النظريات المحافظة والليبرالية ، وبالتالي فإن مهمة النظرية الاجتماعية تقديم فهم علمي سليم للقوانين التي تحكم هذا التغير بحيث يستطيع الانسان أن يحدث هذا التغير في مجتمعه وفقا لها .

ثالثا : من حيث افتراضات النظرية عن آليات التفاعل الاجتماعي داخل المجتمع :

تؤكد النظرية على أنه طالما كانت هناك مصالح متعارضة ومتضاربة داخل المجتمع فإنه لابد أن يكون هناك صراع وأن فكرة الاجماع القيمي والاتفاق الجمعي خرافة .

رابعا : من حيث طبيعة النظرية الاجتماعية ذاتها :

تؤكد النظرية الراديكالية على أن النظرية الاجتماعية لا يجب أن تقتصر على مجرد الوصف بشكل سلبي لما هو قائم بالمجتمع ولكن لابد أن تتضمن بالضرورة توجيهات للممارسة العملية Praxis أي أنها يجب أن تشجع على أحداث التغيرات الاجتماعية الراديكالية وأن تقدم أساليب للبحث الاجتماعي الهادف الى التغير فالنظرية الاجتماعية الراديكالية لا يجب أن تقنع أبدا بمجرد وصف الأوضاع القائمة ولكن عليها أن تقدم أساليب عملية لتغيير المجتمع الى الصورة المثلى التي توصلت اليها من خلال تحليل المجتمعات القائمة .

ان النظرية الاجتماعية الراديكالية لا يجب أن تنفصل عن الممارسة ،
بل يجب أن تشير الى كيفية تغيير الواقع الاجتماعى اثناء دراسته .

خامسا : من حيث طبيعة المجموعات الاجتماعية التى تخدم النظرية الاجتماعية :

تؤكد الاتجاهات الراديكالية على أن النظرية الاجتماعية يجب أن تكون موجهة لتلك المجموعات والفئات الاجتماعية التى من مصلحتها احداث التغير فى المجتمع وليست تلك المجموعات المستفيدة من الأوضاع القائمة .

وليس من الضرورى أن تكون هذه المجموعات هى البروليتاريا فقط كما تؤكد على ذلك الماركسية التقليدية ولكن يمكن أن تشمل كل الفئات المهمورة (النساء والمولدين والأقليات عموما ، الخ) . ويجب أن تكون النظرية الاجتماعية مرشدا لكل هذه الفئات فى ممارسة نضالها ضد الاستغلال .

هذا ويمكننا القول أن الاتجاهات الراديكالية فى النظرية الاجتماعية تستمد كثيرا من مسلماتها فى النظرية الماركسية مع تطويعها للظروف الاجتماعية الحديثة السائدة فى الغرب ، ولكن أصحاب هذه الاتجاهات يختلفون من حيث درجة اعترافهم باعتمادهم على الماركسية فى تكوين تصوراتهم النظرية عن المجتمع وفى درجة تقبلهم أو نقدهم للنظرية الماركسية التقليدية .

ومع أن الراديكاليين يختلفون فيما بينهم حول كثير من تفاصيل النظرية الاجتماعية الا أن هناك خصائص عامة مشتركة بين الراديكاليين يمكن أن نجملها فيما يلى (٦) :

١ - أن الاتجاه الراديكالى فى علم الاجتماع الغربى الراسمالي جزء من اليسار الجديد سواء على المستوى الأكاديمى أو المستوى السياسى .

٢ - أن الغالبية العظمى من أصحاب الاتجاهات الراديكالية من الشباب وبخاصة الطلبة والمدرسين في الجامعة وهم لا يشغلون مناصب عليا في المؤسسات التعليمية أو الجمعيات العلمية ، وأن ظهورها ارتبط بظهور الحركات الطلابية في أمريكا وأوروبا مثل حركة SNCC (اللجنة الطلابية للتنسيق القومي سنة ١٩٦٠ و SDS (حركة الطلاب من أجل مجتمع ديمقراطي و FSM (حركة حرية الكلمة) .

٣ - أن الاتجاهات الراديكالية اليسارية الجديدة ليست فقط أكاديمية ولكنها أيضا سياسية ، فهي تتحدى المؤسسات القائمة وأساليب الحياة السائدة في البلدان الرأسمالية وحتى في البلدان الاشتراكية التقليدية .

٤ - أن هذه الاتجاهات لا تقتصر على بلد بعينها ولكنها ظاهرة تشمل المجتمعات الغربية الرأسمالية وخاصة الولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا وبعض البلدان التي تدور في فلكها مثل البرازيل التي ظهرت فيها اتجاهات معادية للاستعمار .

٥ - أن هذه الاتجاهات تتخذ موقفا معارضا من التسلطية Anl-authoritarian سواء في الغرب أو الشرق والذي يتضح في المؤسسات القائمة على البيروقراطية والتدرج الهرمي للسلطة كما يوجد في المجتمعات الرأسمالية الحديثة والذي يعتمد على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وتكدس الثروة في أيدي القلة والأساس الطبقي للعلاقات الاجتماعية . وتطالب الاتجاهات الراديكالية بخلق مجتمعات خالية من العلاقات الطبقية تعتمد على التسيير الذاتي وجماعية اتخاذ القرارات على المستوى الجماهيري . وعلى هذا فهي تسعى إلى القضاء على تلك الأنظمة الاقتصادية التي تشجع على الفردية والملكية الخاصة والعمل المأجور Wage-laber وبصفة عامة تدعو الراديكالية إلى إعادة بناء الخبرة الانسانية على أساس مبادئ اجتماعية غير مغترية de-alienated تعتمد على العلاقات الانسانية الحقيقية .

٦ - تتخذ هذه الاتجاهات موقفا معارضا تماما للعنصرية racism

والامبريالية وترى أن المجتمعات الرأسمالية المتقدمة جميعها امبريالية وعنصرية وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية . ويؤكد اليسار الجديد على أن العنصرية والامبريالية لن ينتهيا الا بالقضاء على الأساس الطبقي للعلاقات الاجتماعية في المجتمعات الرأسمالية الحديثة . كما يؤكد هذا الاتجاه على أن العنصرية تخدم الهدف الامبريالي للرأسمالية الحديثة . فاستغلال دول العالم الثالث واستنزاف ثرواتها يستند على أساس عنصري ويؤيد هذا الاتجاه حركات التحرر والاستغلال في العالم الثالث ويطالب بإنشاء علاقات دولية جديدة خالية من الاستغلال تشجع على تطور ونمو بلدان العالم الثالث بعد القضاء على الاحتكارات الرأسمالية الدولية . كما يؤكد هذا الاتجاه على ضرورة تحليل السياسات الخارجية للدول الرأسمالية وتحليل الدور الذي تلعبه المؤسسات المختلفة وبخاصة الجامعات في تحقيق الأهداف الاستعمارية الرأسمالية العالمية .

٧ - تحدد الاتجاهات الراديكالية تصورات لمجتمع جديد يحل محل المجتمع القائم ويتصف بالخصائص الآتية :

(أ) أن يكون العمل فيه غير مخترب أى أنه لا يتحدد بالاحتياجات الخاصة لرأس المال الاحتكاري ولكنه يتحدد بالاحتياجات الاجتماعية العقلانية .

(ب) أن تكون الثقافة غير قمعية non-repressive بحيث تنصر فيه كل القيم الروحية للانسان وتجدر وسائل التعبير عنها .

(ج) أن يكون التنظيم فيه يعتمد على اللامركزية وعلى جماعية اتخاذ القرارات داخل الجماعات المحلية بطريقة مستقلة وبحيث تكون وسيلة تحقيق الذات هي العمل من أجل الصالح العام .

(د) التحرر من السيطرة السياسية والاستغلال الاقتصادي وسيادة ثقافة دولية عامة تقوم على المحبة والتفاهم المتبادل .

(هـ) القضاء على الملكية الخاصة محلها الملكية الجماعية لوسائل الانتاج واستخدام المصادر الاقتصادية من أجل سعادة كل سكان العالم .

(و) ظهور وحدات اجتماعية جديدة مثل الاسرة الممتدة والكميونات ٠٠٠ الخ .

هذا وقد انصبت معظم كتابات الراديكالية على نقد النظريات الاجتماعية التقليدية واتبات الصلة الوثيقة بينها وبين الأيديولوجيا البورجوازية واستخدام هذه النظريات كوسيلة لتدعيم وتبرير الرأسمالية القائمة . واستمد الكثير من الراديكاليين أفكارهم من كتابات عالم الاجتماع الأمريكي الشهير رايت ميلز النقدية للمجتمع الأمريكي وللاتجاهات النظرية في علم الاجتماع واعتبروه مؤسس الاتجاه الراديكالي الحديث في علم الاجتماع .

ويرى بلاكبورن Blackburn (٧) ان النظريات الاجتماعية التقليدية وعلم الاجتماع الأكاديمي بأسره تقدم تفسيراً وتبريراً للأوضاع الاجتماعية القائمة في الغرب وأن هذه النظريات تعتمد استبعاد كل المفاهيم النقدية وتستخدم استخدامات سياسية . ومن أمثلة المفاهيم النقدية التي تخلو منها النظريات الاجتماعية الغربية : الرأسمالية ، الاستغلال ، التناقض ، الاغتراب والطبقة . وبدلاً من هذه المفاهيم النقدية تستخدم هذه النظريات مفاهيم أخرى مثل المجتمع الصناعي (مقابل الرأسمالي) واللاتوازن المتبادل reciprocity imbalances (مقابل الاستغلال) والضرر الوظيفي dysfunction (مقابل التناقض) . وقد أوضح بلاكبورن الطابع الأيديولوجي للنظريات الاجتماعية التقليدية من خلال مناقشته لكيفية معالجة هذه النظريات لموضوعات التنمية الاجتماعية والتغير الاجتماعي والثورة . فقد بين أن علماء الاجتماع يؤكدون مثلما فعل آرون وبارسونز ، على أنه ليس هناك تناقض بين مصالح البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة وذلك على الرغم مما تؤكد الأدلة من استغلال البلدان المتقدمة لدول العالم الثالث .

ومن جهة أخرى تعالج النظرية الاجتماعية الوظيفية موضوعات

Robin Blackburn, «A brief guide to bourgeois ideology» in (٧) Cockburn, A. and Blackburn, S. (eds.) Student Power. Peuguin. 1967.

التكامل والنظام الاجتماعي والاستقرار الاجتماعي وتهمل موضوع التغير وتحلل كل جزء من النسق الاجتماعي على أساس مدى اسهامه في المحافظة على الوضع القائم .

ويرى بلاكبورن أنه ليس هناك فرق حقيقى بين النظرية الوظيفية أو نظرية التوازن من جهة وما يسمى بنظريات الصراع من جهة أخرى فكلاهما يسعيان الى تحقيق التكامل وتجنب التناقضات . ويؤكد بلاكبورن على ان علم الاجتماع ليس لديه نظرية كافية عن التغير الاجتماعي والثورة ويدعو الى ضرورة اقامة التحليل الاجتماعي للمجتمع على أساس النظرية الماركسية ، وفند بلاكبورن دعاوى أصحاب النظريات الاجتماعية فى الولايات المتحدة وبريطانيا عن أن نظرياتهم موضوعية وغير منحازة وبين كيف أن كل استنتاجاتهم عن البناء الاجتماعي وخاصة فيما يتعلق بتوزيع القوة الاقتصادية أو الاجتماعية استنتاجات مضللة وتتعارض تماما مع الأدلة الواقعية . وقدم الكثير من الأدلة على زيف ادعاء نظريات التوازن بأن مصادر التوتر والصراع الطبقي قد اختفت فى المجتمع الرأسمالى الغربى الحديث (٨) .

وينتقد ألفن جولدتر أصحاب الاتجاهات الراديكالية على أساس أنه لم تتبلور لديهم بعد نظرية اجتماعية واضحة . فعلى الرغم من أنهم يتفقون على ضرورة أحداث تغييرات جذرية فى المجتمع فانهم غير متفقين على النظرية الاجتماعية التى يمكن أن توجههم فى أحداث هذه التغييرات : ان المجتمع القديم يبقى على نفسه من خلال نظريات وأيديولوجيات تسيطر على عقول الناس وتجعلهم يخضعون له . ومن المستحيل تحرير الناس من المجتمع القديم أو اقامة مجتمع انسانى جديد دون البدء من الآن بتشيد ثقافة مضادة تشمل نظريات اجتماعية جديدة ومن المستحيل عمل ذلك

Robin Blackburn (ed.), Ideology in Social Science. Fontana (٨) Colins. 1976.

دون نقد النظريات الاجتماعية السائدة الآن^(٩) ويرى جولدنر أن بعض الراديكاليين الذين يرفضون النظريات الاجتماعية السائدة يدعون بتبنى النظرية الماركسية التقليدية ولكنهم في الحقيقة لا يعرفون الكثير عنها . وعلى هذا فان هناك فجوة واسعة بين أهداف الراديكالية الثورية السياسية وبين مستوى النظرية لديهم . ويدعو جولدنر الراديكاليين الى التعمق في تحليل النظريات الاجتماعية التقليدية ونقدها من أجل الوصول الى نظريات راديكالية متكاملة تفسر الواقع الاجتماعي الفعلي وتساعد على تغييره وفي ذلك يقول :

« وليس هناك من سبيل لتجاوز الحاضر والماضي الذي يستمد الحاضر منه وجوده دون نقد مستفيض له . وليس هناك من سبيل لتجاوز علم الاجتماع المعاصر دون نقد لنظريته وممارساته وأفكاره » .

Gouldner. A. The Coming Crisis of Western Sociology, (٩)
 Heineman. London. 1971. p. 4.
 Ibid. p. 16.

مراجع عربية فى النظرية الاجتماعية

أحمد الخشاب : التفكير الاجتماعى : دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية
(القاهرة دار المعارف ١٩٧٠) .

أحمد أبو زيد : العلوم الانسانية والصراع الايديولوجى - عالم الفكر
ج ٢ ع ٢ ١٩٧١ .

السيد محمد بدوى : فلسفة أوجست كوت (مترجم) تأليف ليفى بريل :
ترجمة السيد محمد بدوى ومحمود قاسم : القاهرة مكتبة الأنجلو
المصرية ١٩٥٢ .

قواعد المنهج فى علم الاجتماع (مترجم) تأليف اميل دوركايم : ترجمة
السيد محمد بدوى ومحمود قاسم (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية
١٩٦١) .

مبادئ علم الاجتماع : (الاسكندرية : دار المعارف : ١٩٧٢) حسن
الساعاتى : مبادئ علم الاجتماع : (القاهرة : مكتبة مصر : ١٩٧١)
حسن سعيان : تاريخ الفكر الاجتماعى والمدارس الاجتماعية
(القاهرة : دار النهضة العربية ١٩٦٦) .

سمير نعيم أحمد : قضايا علم الاجتماع : (مترجم) تأليف أوسيبوف
ترجمة : سيمر نعيم وفرج أحمد (القاهرة : دار المعارف ١٩٨٠) .

علم الاجتماع بين الاشتراكية والراسمالية : الطليعة : س ٧ ، ع ٢ فبراير
١٩٧١ ص ٦٩ - ٧٤ .

عبد الباسط محمد حسن : أصول البحث الاجتماعى (القاهرة : مكتبة
وهبة ١٩٧٦) .

علم الاجتماع (القاهرة : مكتبة غريب ١٩٧٧) .

محمد عاطف غيث : مقدمة قضايا علم الاجتماع : تأليف أوسيبوف ترجمة
سمير نعيم وفرج أحمد (القاهرة : دار المعارف ١٩٧٠) .

١
- مقدمة نظرية علم الاجتماع : تأليف نيقولا تيماشيف : ترجمة
محمود عودة وآخرين (القاهرة دار المعارف ١٩٧٠) .

- الموقف النظرى فى علم الاجتماع المعاصر : (الاسكندرية : دار الجامعية
١٩٧٢) .

محمد الجوهري : نظرية علم الاجتماع (مترجم) تأليف نيقولا تيماشيف
ترجمة : محمود عودة ومحمد الجوهري ومحمد على محمد والسيد
محمد الحسينى (القاهرة : دار المعارف ١٩٧٢) .

محمود عودة : علم الاجتماع بين الرومانسية والراдикаلية : (القاهرة :
مكتبة سعيد رافت ١٩٧٦) .

مصطفى الخشاب : علم الاجتماع ومدارسه (القاهرة : الدار القومية
للطباعة والنشر ١٩٦٦) .

BIBLIOGRAPHY

- ABEL. T. **The Foundation of Sociological Theory** (New York. Random House, 1970).
- AFANASYEV. V. **Marxist Philosophy** (Moscow : Progress Publishers, 1968).
- ARON. R. **Main Currents in Sociological Thought** (England : Benguin Books, 1965).
- BERGER, P. and LUBKMAN, T. **The Social Construction of Reality** (London : Allenlane, The Penguin Pres. 1967).
- BERLINE, J. **Karl Marx. His Life and Environment** (New York. Oxford. 1948).
- BERNARD, S. **Historical Sociology** (New York Citadel Press. 1959).
- BLACKBURN, R. **A Brief Guide to Bourgeois Ideology.** in Coekburn, A. and Blackburn, R. (ed.) **Student Power.** (Benguin Books. 1967).
- Ideology In Social Science** (fontana/Collins 1976).
- BOTTOMORE. T. B& **Karl Marx Early Writings.** (New York 1941).
- **Sociology as Social Criticism** (London, George Allen and Uniwin, 1975).
- CHESNOKOV, D. L. **Historical Materialism.** (Moscow. Progress Publishers, 1959).
- COLFAX, J. Dand Roach (ed.) **Radical Sociology.** (New York Basic Books).
- **The Function of Social Couflict...** (Free Press, New York 1956).
- COOLEY, C. **Human Nature and the Social Order** (New York Charles Scribner. 1902).
- COSER. L. **Masters o^r Sociological Thought** (Harcourt Brace-Jovannavich, Inc. New York 1977).
- DAVID. M. **The Sociology of Knowledge.** In Remmling (ed.).

- DOUGLAS. J. *Understanding of Every Day Life*. (London. Routledge & Kegan Paul. 1971).
- DREITZEL. H. (ed.) *Recent Sociology No. 2. Patterns of Communicative Behavior, Eight Articles That Demonstrate What Ethnomethodology is All About*, (New York Macmillan 1970).
- DURKHEIM. E. *The Division of Labor in Society*. (Gloucester, Free Press, 1933).
- *Suicide*. (Free Press. New York. 1951).
- *Rules of Sociological Method*. (New York, Free Press, 1961).
- FRIEDRICH. R. W. A. *Sociology of Sociology*. (The Free Press. New York. 1970).
- GARFINKEL. H. *Studies in Ethnomethodology*. (Englewood Cliffs. Prentice-Hall. 1970).
- GIDDENS. A. *Capitalism and Modern Social Theory* (Cambridge University Press. London 1971).
- GIDDINGS F. *Studies In the Theory of Human Society* (New York. Macmillan, 1922).
- GIRTH. H. and Mills. W. (eds.) *From Max Weber Essays in Sociology* (New York, Oxford University Press, 1940).
- GOFFMAN. E. *Behavior in Public Places*. (New York : Free Press 1963).
- GOOD and HATT. P. *Methods in Social Research*. (New York. McGraw - Hill, 1951).
- GOULDNER. A. *The Coming Crisis of Western Sociology*. (London. Heineman. 1971).
- HAGEDORN. P. and LABVITS. S. *An Introduction into Sociological Orientations*. (New York. John Wiley. 1973).
- HAMILTON. P. *Knowledge and Social Structure*. (Routledge Kegan Paul. London. 1941).
- HARRINGTON. M. *The Twilight of Capitalism*. (The Macmillan Press New York 1977).
- HAWTHORN. G. *Enlightenment and Despair. A History of Sociology* (Cambridge University, Press. London 1976).

- HORTON. P. and HUNT. L. *Sociology* (New York. MacGraw-Hill. 1964).
- KOLFAX. D. and ROACH. J. *Radical Sociology*. (New York, Basic Books, 1970).
- LARSON. C. *Major Themes in Sociological Theory*. (New York. Duvid Mac-Kay Company. 1973).
- LEVINGSTON. A (ed.) *Mind and Society*. (New York. Harcourt Brace. 1963).
- LOCHWOOD, D. *Some Aemarks on the Social System* (British Journal of Sociology, 1956).
- LOTHSTEIN. A. (ed.) *All We Are Saying. The Philosophy of The Nuw Left* (New York. Capricon. 1971).
- MANHEIM. K. *Sociology of Knowledge from The Stand Point of of Modern Phenomenology*. in Remmling (ed.)
- MARTINDALE. D. : *Nature and Types of Sociological Theory* (London. Routledge - Kegan Paul. 1967).
- MEAD. G. : *Mind. Self and Society* (Chicago. University of Chicago Press, 1934).
- MILLS. C. W. *The Sociological Imagination*. London. Oxford University Press 1969).
- MITCHEL. A *Dictionary of Sociology*. (Routledge % Kegan Paul. London. 1968).
- *A. Hundred Years of Sociology*. (Aladine Publishing Company, Chicago, 1971).
- MARX. K. and ENGLES. F. *The German Ideology*. (London. 1965).
- MERTON. *Social Theory and Social Structlire* (New York Free Press. 1949).
- NISBET. R. *The Sociological Tradition*. London. 1970).
- OSIJOV. G. *Sociology*, (Mosco, Progres Publishers. 1969).
- PARSONS. T. *Vilfredo Pareto*. in *The International Encyclopedia of Social Sciences*.
- *The Social Sestem* (Clenenco, Free Press 1951).
- QUINNEY. *Crime Control in Capitalist Society* in Ian Taylor etal

- Critical Criminology (London, Routledge Kegan Paul, 1976).
- REIMLING, G. Towards the Sociology of Knowledge (Routledge and Kegan Paul, London, 1973).
- REX J. Key Problems of Sociological Theory (London, Paul Kegan, 1976).
- SALMON'S A, "German Sociology" in George Gurvitch and Wilberte. Moore, Twentieth Century Sociology (New York : The Philosophical Library, 1945).
- SCHELER M. The Nature of Sympath. (Trans. Peter Heath. London : Routledge and Kegan Paul, 1973).
- SCHUTZ. A. and T. Luckman. The Structure of the life world (Evanston: Northwestern University Press, 1973).
- SCHWENDINGER. H. J. The Sociologists of The Chair (Basic Books. New York. 1974).
- SJOBERG. G. and ROGER NETT : A Methodology for Social Reasrch (New York. Harper of Row, 1968).
- SOCIOLOGY LIBERATION MOVEEMENT HANDBILL, 1968, in Paul Horton and Gerald Lesli : Studies in the Sociology of Social problems (New York. Appleton-Century Crafts. 1971).
- STAUDE. J. Max Scheler: An Intlectual Portrait New York, 1967).
- TAYLOR, I. WALTON., P. and YOUNG J. The New Criminology. (London, Routledge, 1972).
- TAYLOR. I. et. al : Radical Criminology (London, Routledge, 1976).
- WEBER. M. The protestant Ethic and the Spirit of Capitalism (Scribner, New York, 1958).
- Basic Concepts in Sociology (New York, The Citadel Press, 1964).
- ZEITLIN. I. Ideology and the Development of Sociological Theory Prentice. Hall, New-Delhi, 1969).

رقم الايداع بدار الكتب المصرية

١٩٨١/٥٢٦٧ م

الترقيم الدولي

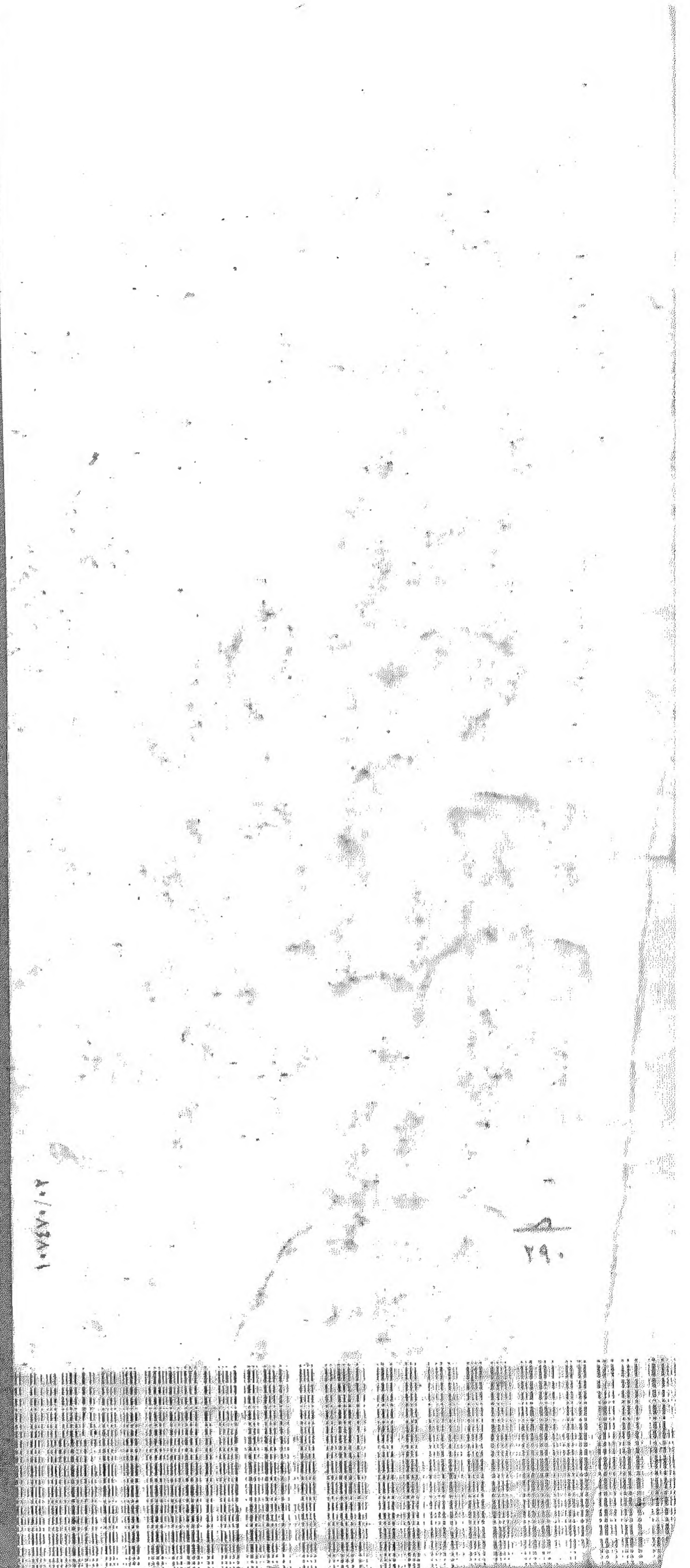
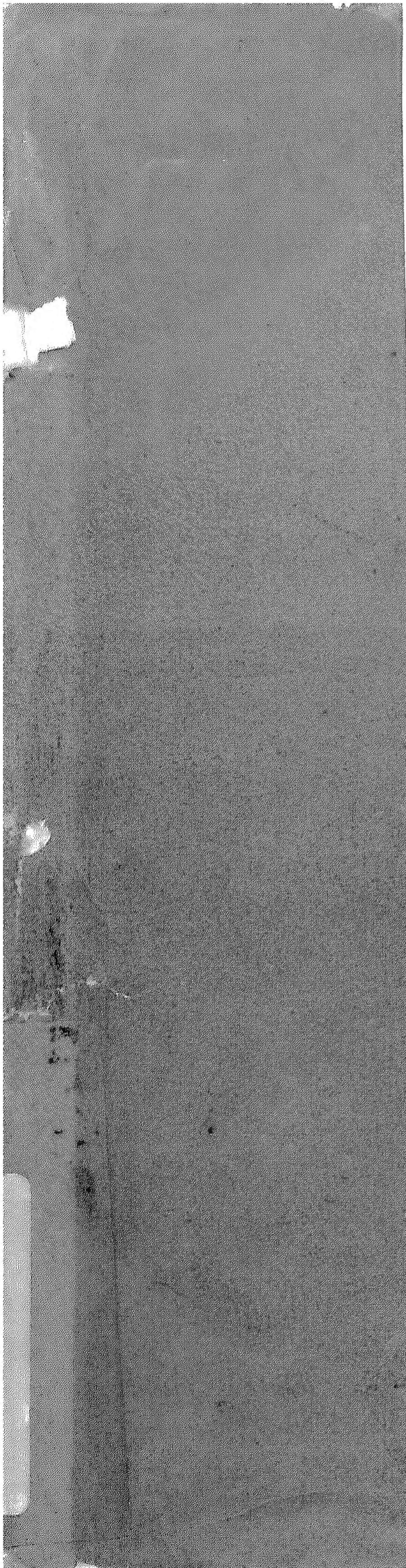
٧ - ٩١ - ٧٣٥١ - ٩٧٧



دار الثقافة للطباعة والنشر

٢١ شارع كامل صدقي بالفجالة

ت ٩١٦٠٧٦ - القاهرة



1.0330.1

29.